عـالم نـارنيـا

سي أس لويس

الحِصَان وَصَبيّه

عالم

نارنيا



عدوةٌ توّاقة إلى الحرية

نارنيا ... حيث الخيول تتكلّم ... حيث المؤامرة تُدبّر ... حيثُ المصير ينتظر.

في رحلةٍ يائسة، تلتقي مجموعتان هاربتان وتنضمان بعضهما إلى بعض. ومع أن كل ما يتطلعون إليه هو الهروب من الحياة القاسية والصعبة، لكنهم يجدون أنفسهم وسط معركةٍ رهيبة. إنها معركة ستقرّر مصيرَهم ومصير نارنيا نفسها.

ISBN 90-5950-018-0



الحِصَان وَصَبِيّه

كانت مفاجأةً عظيمة لشصطى أن يكتشف أنه ليس ابن أرشيش الصياد. لكن حين أخذه بري، الحصان الناطق، بعيداً عن أرض كالورمِن القاسية بحثاً عن أرض نارنيا الآمِنة والسعيدة، حيث يحكم الملك الأعلى بطرس، وجد شصطى نفسه مغموراً بالأسرار والغموض والمغامرات بشكلٍ لم يكن يحلم به.

تمتلئ رحلتهم بالخوف والخطر والمكائد والمغامرات، فيما كانوا يشقون طريقهم متخفين في مدينة طشبان، مارّين بالقبور الغريبة المخيفة، ثُمّ أياماً مُحرِقةً وليالي باردةً في الصحراء القاسية إلى جبال بلاد أرخيا العالية. وحتّى حين تلوح نارنيا بالأفق، يدرِك شصطى أن عليه أن يهزم خوفه في النهاية. قال لنفسه: «إنْ ذُعِرْتَ من هذه المعركة وفررْتَ، فسوف تخشى كلّ معركةٍ أخرى طول عمرك. فالآن، وإلا فلا إلى الأبد!»

هذه هي المغامرة الشيّقة الثالثة في

عالم نارنيا.

روايات عالم نارنيا

الحِصَانُ وَصَبيّه

سي اس لويس

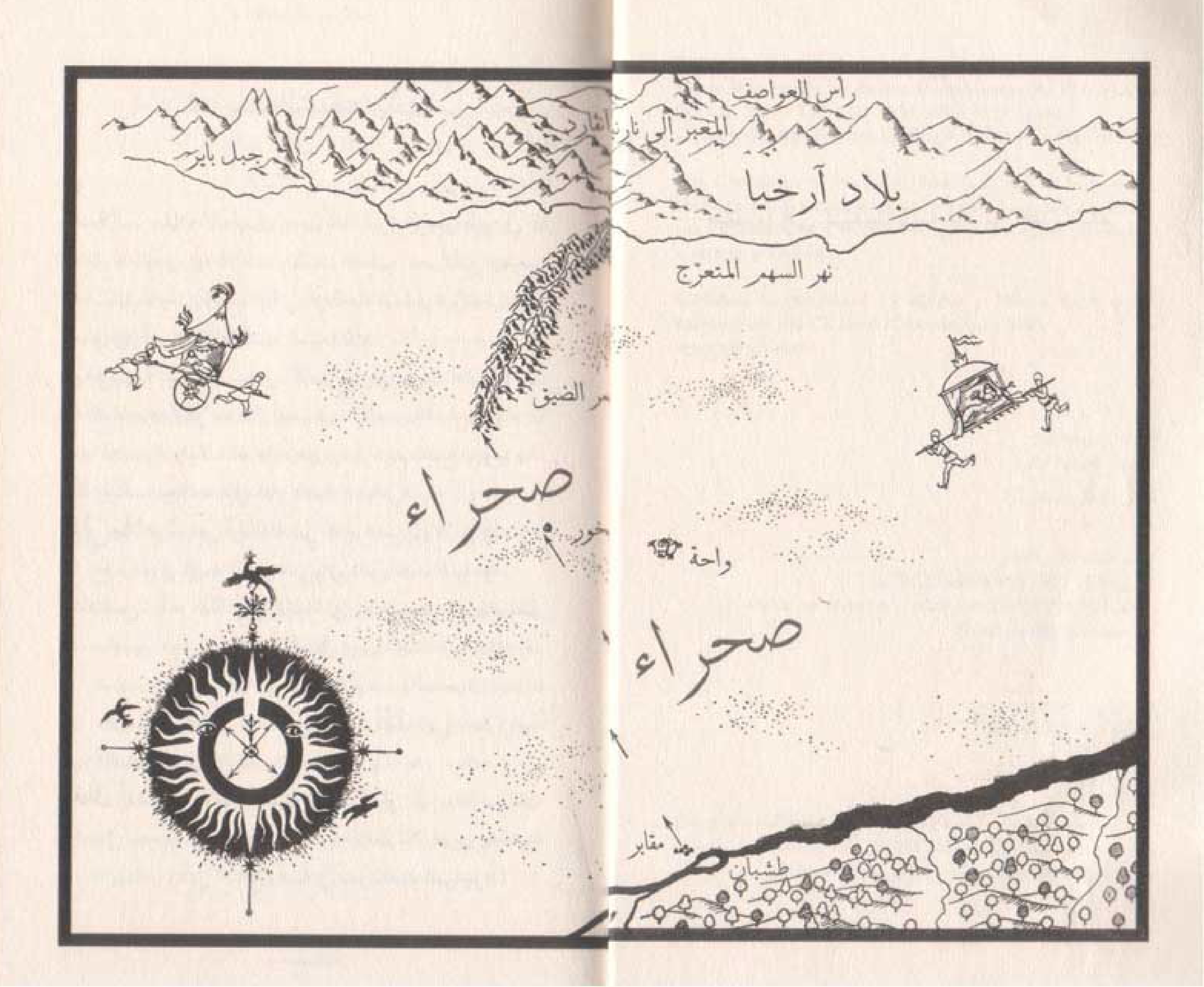
رسوم: پولين بينز

ترجمة: سعيد باز



اوفير

مهدى إلى ديفيد ودوغلاس غريشام


راس العواصف
بلاد آرخيا
نهر السهم المتعرج
صحراء
واحة
صحراء
مقابر
طشبان

تعريف الشخصيات

أصلان: ملك الغابات وسيّدُها، ابن الإمبراطور في ما وراء البحر. إنه الأسد، الأسد العظيم. وهو يأتي ويذهب كيفما ومتى شاء، ويأتي لإطاحة الساحرة وإنقاذ نارْنيا. ويظهر أصلان في الكتب السبعة كلّها.

ديغوري كيرك: نقابل دِيغوري من بداية «ابن أخت الساحر»، وهو مذكورٌ أيضاً في «الأسد والساحرة وخزانة الملابس». ولولا شجاعة ديغوري، لربما لم نسمع بنارْنيا قط. أما السبب فتجده في «ابن اخت الساحر».

پولي پلامر: وهي أول شخصٍ يغادِر عالمنا إلى نارْنيا. وتشترك مع ديغوري في بداية كل شيءٍ في «ابن أخت الساحر».

جاديس: آخر ملكات شارْن التي دمَّرتها هي نفسُها. تظهر جاديس مع ديغوري و پولِي في «ابن أخت الساحر»، وقد استولت على البلاد في «الأسد والساحرة وخزانة الملابس». وفضلاً عن كونها شرِّيرةً كُلِّيًا، فهي خطِرة جداً أيضاً، حتى في «الكرسيّ الفضيّ».

الخال أندرو: يعتقد السيِّد أندرو كِترلي أنّه ساحر. ولكنه مثلُ جميع الذين يعبثون بأُمور السحر لا يعرف بالحقيقة ما يفعله. وتأتي النتائج رهيبة في «ابنُ أختِ الساحر».

آل پيفِنسي:

بطرس پيفِنسي: الملك بطرس العظيم، الملك الأعلى

سوزان پيفِنسي: الملكة سوزان الرقيقة

إدمون پيفِنسي: الملك إدمون العادل

لوسي پيفِنسي: الملكة لوسي الباسلة

هؤلاء الأربعة من آل پيفِنسي، وهم أخوان وأختان، قدِموا إلى نارْنيا في زمان الشتاء الدائم إبّان حكم الساحرة البيضاء، ومكثوا هناك سنين نارْنيانيّة كثيرة، وأقاموا عصر نارْنيا الذهبي. وبطرس هو الأكبر سناً، تليه سوزان، ثُمَّ إدمون ولوسي. وهم جميعاً متواجدون في «الأسد والساحرة وخزانة الملابس»، وفي «الأمير كاسبيان». كذلك يظهر إدمون ولوسي أيضاً في «رحلة جوّابة الفجر»، كما يظهر إدمون ولوسي وسوزان في «الحصان وصبيّه»، فيما يظهر بطرس وإدمون ولوسي في «المعركة الأخيرة».

شصطى: يحيطُ سرٌ بهذا الولد الذي تبنّاه صيّاد سمكٍ من كالورمِن. فهو ليس الشخص الذي يبدو أنّه هو، مثلما يكتشف هو نفسه في «الحصان وصبيه».

بري: هذا الجواد الحربي أيضاً فائقٌ للعادي. فقد اختُطِف وهو مُهرٌ من غاباتِ نارْنيا، وبيع حصاناً عبداً في كالورمِن، وهو بلدٌ واقعٌ وراء بلا آرخيا وفي أقصى جنوبي نارْنيا. وتبدأ مغامرات بري عندما يحاول الفرار في «الحصان وصبيُّه».

آراڤيس: هي طرقانة، نبيلةٌ من كالورمن. إلا أنَّ فيها مزايا خيِّرة كثيرة تبرز إلى النور في «الحصان وصبيُّه».

هُوين: فرسٌ حسّاسة حسنة الطباع، تتصادق مع آراڤيس في «الحصان وصبيُّه».

الأمير كاسبيان: إنه ابن أخي الملك ميراز، ويُعرَف بلقب كاسبيان العاشر ابن كاسبيان، وهو ملك نارْنيا الحقيقي (ملك النارْنيانيّين القدامى). كذلك يُعرَف بألقاب «تلماري نارْنيا»، و«سيِّد كيرپراڤيل»، «وإمبراطور الجُزُر المنفردة». وهو يظهر في «الأمير كاسبيان»، و«رحلة جوّابة الفجر»، و«الكرسيُّ الفضي»، و«المعركة الأخيرة».

ميراز: هو تلماريٌّ من بلاد تلمار الواقعة بعيداً ما وراء الجبال الغربية (وأجداد التلماريِّين أصلاً كانوا من عالمنا). وميراز هو مغتصب عرش نارْنيا في «الأمير كاسبيان».

ريبيتشيب: هو الفأر الرئيس. وهو الخادم المتواضع المتطوِّع لخدمة الأمير كاسبيان، ولعلّه أكثر الفرسان بسالةً في نارْنيا كلّها. فروسيَّته لا تُدانى، وكذلك شجاعته ومهارته في استعمال السيف. ويظهر ريبيتشيب في «الأمير كاسبيان»، و«رحلة جوّابة الفجر»، و«المعركة الأخيرة».

يُسطاس كلارنس (صغرون): يُسطاس ابن خالةِ لأولاد آل پيفِنسي، يُضطر إدمون ولوسي أن يذهبا ويزوراه. إلاّ أنه يجد نارْنيا أشبهَ بصدمةٍ. وهو يظهر في «رحلة جوّابة الفجر»، و«الكرسي الفضيّ»، و«المعركة الأخيرة».

جِلّ پُول: هي البطلة في «الكرسي الفضّيّ»، تذهب إلى نارنيا مع يُسطاس في مغامرتِه النارْنيانيَّة الثانية. وهي تأتي أيضاً لنجدة نارْنيا في «المعركة الأخيرة».

الأمير ريليان: ابن الملك كاسبيان العاشر. وهو الأمير الضائع في نارْنيا. فابحث عنه وجِدْه في«الكرسي الفضّيّ».

بِرْكهموم: ساكن مُستنقعات (سباخ) طويل القامة، من المُستنقعات الشرقية في نارْنيا. شخص طويل يشكِّل سلوكه الرزين جداً قناعاً لقلبه الصادق الوافرالشجاعة. يظهر في «الكرسي الفضيّ»، و«المعركة الأخيرة».

الملك تِريان: رجلٌ نبيلٌ وشجاع، آخر ملوك نارْنيا. هو وصديقه «جوهر»، أحادي القرن، يخوضان القتال معاً في «المعركة الأخيرة».

شِفطة: قردٌ عجوز وقبيح، ينوي أن يتولّى حكم نارْنيا، ويباشر أموراً لا يستطيع إيقافها في «المعركة الأخيرة».

لَغْزان: حمارٌ طيِّب لم ينوِ قطُّ إيذاء أحد. غير أنّه ليس ذكيّاً جداً. وهو يقع ضحيّة لخداع شِفطة في «المعركة الأخيرة».

المحتويات

الفصل الأوّل

كيف انطلق شصطى في تجواله

هذه قصّةُ مغامرة جرت أحداثُها في بلاد نارْنيا وكالورمِن والبلدان الواقعة بينهما، في ذلك العصر الذهبيّ الذي فيه كان بطرس هو الملك الأعلى في نارْنيا، وأخوه وأختاه ملكاً ومَلِكتين معهُ وخاضِعَين له.

تلك الأيّام، في أقصى الجنوب بكالورمِن على خليجٍ بحريٍّ صغير، عاش صيّاد سمك فقير اسمُه أرشيش، وعاش معه صبيٌّ يدعوه أباه، وكان اسم الصبيّ شَصْطى. وفي أغلب الأيّام، كان أرشيش يخرج في قاربه لصيد السمك صباحاً، ثمّ في عصر النهار يشدُّ إلى حماره عربةً محمّلة بالسمك، ويمضي جنوباً مسافةً تُراوِح بين كيلومتر وكيلومترين إلى القرية كي يبيع السمك. فإذا وُفِّق في بيعه، يرجع إلى بيته بمزاج طيِّب نوعاً ما، ولا يقول لشَصطى شيئاً، ولكنْ إذا لم يوفَّق، كان ينتقده ويعيبه، وربَّما ضربه أيضاً. وكان مجال الانتقاد واللوم واسعاً دائماً، إذ كان على شصطى أن يقوم بكثيرٍ من الأعمال، كإصلاح الشِباك وغسلها، وطبخ العشاء، وتنظيف الكوخ الذي يسكنان فيه.

ولم يكن شصطى قطُّ مهتمّاً بأيّ شيءٍ يقع جنوبيّ بيته، لأنّه ذهب إلى القرية مع أرشيش مرّةً أو مرّتين، وعرف أنْ ليس فيها ما يعجبه كثيراً. فهو إنّما التقى في القرية رجالاً مثل أبيه تماماً، رجالاً يلبسون أرواباً طويلة وسخة، وأحذية خشبيّة رؤوسُها معقوفة إلى فوق، وعلى رؤوسهم عمائم، ولحاهم طويلة، يحادثون بعضهم بعضاً بكلّ تمهّل عن أمورٍ بدت تافهة. ولكنّ شصطى كان مهتمّاً كثيراً بكلّ ما يقع إلى الشمال، لأنّه لم يذهب أحد قطُّ إلى تلك الجهة، وهو نفسه لم يكن مسموحاً له أن يذهب إلى هناك. فكان إذا قعد وحده خارج الكوخ يُصلِح الشِباك، غالباً ما يتطلّع إلى جهة الشمال متشوّقاً. فلا يمكن للمرء أن يرى سوى مُنحدَر يكسوه العشب ويتّصل أعلاه بسلسلة جبال مستوية، ووراءه الفضاء الذي ربّما مرّت فيه بعض الطيور.

وأحياناً، إذا كان أرشيش حاضراً، كان شصطى يقول له: «يا أبي، ماذا وراء الجبل؟» فإن كان صيّاد السمك سيّىء المزاج، يشدّ أذنَي شصطى ويطلب منه أن يهتمّ بشغله. وإذا كان مزاجه رائقاً، يقول: «يا بُنيّ، لا تشغل فكرك عبثاً بالأسئلة التافهة. فقد قال أحد الشعراء إنّ الانصراف إلى العمل باجتهاد هو سرّ النجاح، أمّا الذين يطرحون أسئلة لا تعنيهم فإنّهم يوجّهون سفينة الحماقة نحو صخرة الفقر».

وقد خمّن شصطى أن يكون وراء الجبل سرٌّ بهيجٌ

ما، رغب أبوه في إخفائه عنه. إلّا أنّ الصياد بالحقيقة كان يقول مثل ذلك الكلام لأنّه لا يعرف ما يقع إلى جهة الشمال. ولم يكن ذلك يهمه أيضاً، فقد كان صاحب عقل عمليّ يهتمّ بالواقع.

وذات يوم جاء من الجنوب غريبٌ يختلف عن أيّ رجُل آخر رآه شصطى من قبل. كان راكباً على حصان مُنقَّط قويّ، يتطاير شعر عُرفه وذيله، ورِكاباه ولجامه مُغشّاة بالفضّة. وكانت على رأسه عمامةٌ حريريّة تبرز من وسطها رزّةُ خوذة، كما كان يلبس قميصاً من الزرد. وقد تدلّى من خصره سيفٌ معقوف، وتعلّق على ظهره ترسٌ مدوّر عليه عُقَد من نحاس، وكانت يمينه تمسك رمحاً. وقد كان وجهه قاتماً، ولكنّ ذلك لم يُفاجىء شصطى لأنّ هذا هو لون بشرة أهل كالورمن كلهم. أمّا ما فاجأه فعلاً فقد كان لحية الرجل المصبوغة باللون القرمزيّ، والمجعّدة، والبرّاقة بسبب الزيت المعطّر. غير أنّ أرشيش عرف من الذهب حول ذراع الغريب العارية أنّه طَرْقان، أو سيّدٌ عظيم، فانحنى راكعاً أمامه حتى مسّت لحيته الأرض، وأومأ إلى شصطى أن يركع أيضاً.

وطلب الغريب أن يحلّ ضيفاً على أرشيش تلك الليلة؛ الأمر الذي لم يتجرّأ الصيّاد على أن يرفضه طبعاً. ثمّ وضع أرشيش وشصطى أمام الطّرقان أفضل ما عندهما حتّى يتعشّى (وهو رأى ذلك أمراً لا يليق به). أمّا شصطى -كما كان يجري دائماً عندما يكون بصحبة



الصيّاد أحد– فقد أُعطي كسرة خبز وأُخرج من الكوخ. وفي مثل تلك المناسبات كان ينام عادةً بقرب الحمار في إسطبل القشّ الصغير. إلّا أنّ الوقت كان أبكر بكثير من أن ينام. ولمّا لم يكن قطُّ قد تعلّم أنّ من الخطإ استِراق السمع من وراء الأبواب، فإنّه قعد وأُذنه إلى شقٍّ في حائط الكوخ الخشبيّ حتّى يتسمّعَ حديث الرجلين الراشِدَين. وهاك ما سمعه:

قال الطَرْقان: «والآن، يا مُضيِّفي الكريم، لي رغبة بأن أشتري ذلك الصبيَّ الذي عندك».

فأجاب الصيّاد (وقد تصوَّر شصطى من لهجة تملُّقه علامات الجشع على وجهه): «آه يا سيّدي، أيُّ ثمن يمكن أن يُغريَني، أنا خادمَك، رُغم فقري، بأنْ أبيع ولدي الوحيد، لحمي ودمي، عبداً؟ أما قال أحد الشعراء إنّ العاطفة الطبيعيّة أقوى من الحامض الحارِق، والأولاد أغلى من الجواهر؟»

فقال الضيف ببرودة: «هي كذلك! ولكنَّ شاعراً آخر قال أيضاً إنَّ من يحاول خداع الحكيم فإنّما يكشف ظهره للسوط. فلا تُثقِلْ فمك المُسِنَّ بالأباطيل. من الواضح أنّ هذا الصبيَّ ليس ابناً لك، لأنَّ خدَّك أسود كخدّي، أمّا الصبيُّ فأشقر وأبيض مثل الأجنبيّين الملاعين لكنِ الوُسَماء، أولئك الذين يسكنون في أقصى الشمال».

أجاب الصيّاد: «ما أحسن ما قيل من أنَّ ضربة السيف يمكن أن يردَّها الترس، ولكنَّ عين الحكمة تخترق كلَّ دفاع! فهلّا تعلم، يا ضيفي العظيم، أنّني بسبب فقري الشديد لم أتزوّج قطّ، ولم أُنجِب أيَّ ولد. ولكنْ في السنة التي فيها باشر سُلطانُنا (عاش إلى الأبد!) حكمه الجليل والخيِّر، في ليلة كان القمر فيها بدراً، سَرَّ الآلهة أن تحرمني النوم. فقمتُ من فراشي في هذا الكوخ، وانطلقتُ إلى الشاطىء لأُنعِش نفسي بتأمُّل المياه والقمر وتنشُّق الهواء البارد. وما لبثتُ أن سمعتُ حسّاً كحسّ المجاذيف آتياً

فوق المياه صوبي، ثمّ طرَقت أُذنيّ -إن أحسنتُ التعبير- صرخات بكاءٍ ضعيف. وبعد ذلك بقليل، حمل مدُّ الموج إلى اليابسة قارباً صغيراً لم يكن فيه إلّا رجلٌ برى جسمَه الجوعُ الشديد والعطش اللاهب، وقد بدا لي أنّه مات منذ لحظات قليلة (إذ كان ما يزال ساخناً)، وقربةُ ماء فارغة، وولدٌ ما زال حيّاً. فقلتُ في نفسي: لا شكّ أنّ هذين التعسين قد نجَيا من تحطُّم سفينة ضخمة، ولكنْ بتقديرٍ عجيب من الآلهة جوّع الكبيرُ نفسه ليُبقيَ الصغير على قيد الحياة، ثمّ قضى نحبه عند رؤية البرّ. وعلى ذلك، إذا تذكّرتُ كيف لا تُقصّر الآلهة أبداً في مكافأة الذين يعطفون على المُعوزين، وإذ تحرّك قلبي شفقةً (فإنّي -أنا خادمك- رجل رقيق القلب)...»

وهنا قاطعه الطرقان قائلاً: «دعْك من جميع هذا الكلام المُنمّق في امتداح ذاتك. يكفيني أن أعرف أنّك أخذتَ الولد، وقد أنهكته بالعمل الذي تُساوي قيمته أكثر من عشرة أضعاف ثمن خبزه اليوميّ، كما يمكن أن يُلاحِظ أيُّ شخص! فالآن قُل لي حالاً ما الثمن الذي تطلبه فيه، لأنّي ضجرت من ثرثرتك».

فأجاب أرشيش: «أنت بنفسك قلتَ بحكمة إنّ شغل الولد كان عندي ذا قيمة لا تُقدَّر. فيجب النظر إلى هذا بعين الاعتبار عند تحديد الثمن. لأنّني إذا بعتُ الصبيَّ فعليَّ بلا شكّ إمّا أن أشتريَ وإمّا أن أوظّفَ غيره حتّى يقوم بعمله».

قال الطَرقان: «أدفعُ لك فيه خمسة عشر هِلالاً».

فصاح أرشيش بصوتٍ بين الأنين والصراخ: «خمسة عشر! خمسة عشر! ثمناً لسندي في آخرتي ولقُرّة عيني؟ لا تضحك على لحيتي الشائبة، ولو كنتَ طرقاناً. فالسعر الذي أطلبه سبعون».

في تلك اللحظة، نهض شصطى، ومضى ماشياً على رؤوس أصابع قدميه. فقد سمع كلّ ما أراده، إذ كثيراً ما كان يتسمّع حين يتساوم رجال القرية، ويعرف كيف تتمّ صفقاتهم. فإنّه تأكّد من أنّ أرشيش سيقبل في النهاية أن يبيعه بثمنٍ أكثر بكثير من خمسة عشر هلالاً، وأقلّ بكثير من سبعين، لكنّه علم أنّ أرشيش والطرقان سيقضيان ساعاتٍ قبل التوصّل إلى اتّفاق.

إنّما يجب ألّا تتصوّر أنّ شصطى شعر بمثل ما قد نشعر به أنا وأنت إذا سمعنا حالاً بالصدفة أبوينا يتكلّمان عن بيعنا عبيداً. فمن جهة، كانت حياته بالفعل أفضل بقليل من العبوديّة، ورغم كلّ شيء فربّما كان هذا الغريب النبيل الراكب على الحصان الكبير ألطف به من أرشيش. ومن جهة أخرى، غمرته قصّةُ العثور عليه في قارب صغير بالتشويق وبإحساسٍ من الراحة والتعزية. فلطالما كان منزعجاً لأنّه -مهما حاول- لم يقدر قطّ على أن يحبّ صيّاد السمك، وكان يعرف أنّ على الولد أن يحبّ أباه. وها قد بدا له الآن أنّه ليس قريباً لأرشيش أبداً. فأزاح ذلك من فكره حِملاً ثقيلاً، إذ فكّر: «عجباً، ربّما كنتُ أيَّ

شخص! ربّما كنت أنا نفسي ابن طَرقان، أوِ ابنَ السُّلطان (عاش إلى الأبد!)، أو ابنَ إلهٍ من الآلهة!»

كان شصطى واقفاً في الهواء الطَّلق على المرجة الصغيرة قدّام الكوخ وهو يفكّر هذه الأفكار. وكان احمرار الأفق عند المساء يشتدُّ ويخالطه السواد، وكانت نجمةٌ قد طلعت أو نجمتان، إلّا أنّ أطياف الغروب كانت ما تزال تُرى في الغرب. وعلى مسافة قريبة، كان حصان الغريب يرعى العشب وهو مربوط بحبلٍ طويلٍ بحلقة حديدية مغروزة في حائط إسطبل الحمار. فمشى شصطى إليه على مهل وربّت ظهره. ولكنّه ظلّ يقضم الحشيش دون أن يعنيه أمر شصطى بشيء.

ثمّ خطرت على بال شصطى فكرة أُخرى، فقال بصوتٍ عالٍ: «تُرى، أيُّ نوع من الرجال هو ذلك الطَّرقان. سيكون أمراً عظيماً إذا كان لطيفاً، فبعض العبيد في بيوتِ بعضِ السادة العظام لا يكادون يشتغلون شيئاً. إنّهم يلبسون ثياباً جميلة ويأكلون لحماً كلَّ يوم. وربّما يصطحبني إلى الحرب فأُنقذ حياته في معركة من المعارك، وعندئذٍ يُحرّرني ويتبنّاني ويعطيني قصراً ومركبة ودروعاً حماية لكل الجسم. لكنّه أيضاً قد يكون رجلاً قاسياً ظالماً. فقد يبعثني إلى العمل في الحقول مقيّداً بالسلاسل. يا ليتني أعرف حقيقته! وكيف لي أن أعرف؟ مؤكّدٌ أن هذا الحصان يعرف، فحبّذا لو يقدر أن يقول لي!»

وكان الحصان قد رفع رأسه. فمرّر شصطى يده على أنفه الناعم مثل الحرير، قائلاً: «كم أتمنّى لو تقدر أن تنطق يا صاحبي!»

ثمّ خُيِّل إليه ثانيةً واحدة أنّه يحلم، لأنّ الحصان –بكلّ وضوح وإن كان بصوت منخفض– قال: «ولكنّني أقدر».

فحدّق شصطى إلى عينَي الحصان الواسعتين، وكادت عيناه هو تصيران واسعتين مثلهما، وقد استولت عليه الدهشة، وقال:

«كيف تعلّمتَ أن تتكلّم يا تُرى؟»

فأجابه الحصان: «صه! اخفضْ صوتك. في بلادي، جميع الحيوانات تقريباً تتكلّم».

فسأل شصطى: «وأين بلادك يا تُرى؟»

قال الحصان: «بلادي هي نارنيا، بلاد نارنيا السعيدة: نارنيا المكسوّة جبالها بالخَلَنج وتلالها بالزعتر، نارنيا ذات الأنهار الكثيرة والأودية المتدفّقة بالشلّالات، والكهوفِ المغشّاة بالطحالب، والغابات الكثيفة التي تتردّد فيها أصداء ضربات مطارق الأقزام وفؤوسهم. وما أحلى هواء نارنيا المنعش! فإنّ ساعةً واحدة من الحياة هناك خيرٌ من ألف سنة في كالورمِن». وقد أنهى كلامه بصهيل بدا شبيهاً بالأنين.

فسأله شصطى: «وكيف وصلتَ إلى هنا؟»

قال: «خُطِفتُ، أو سُرِقت، أو أُسِرت... أيّاً شئتَ أن تُسمّي ذلك. آنذاك كنتُ مجرّد مُهر. وقد حذّرتني أُمّي

من التجوال عبر المُنحدرات الجنوبيّة إلى داخل بلاد آرخيا وما وراءها، إلّا أنّني لم أستمعْ لها. وقَسماً برأس الأسد، لقد دفعتُ ثمن حماقتي. فطوال هذه السنين ما زلتُ عبداً للبشر، ساتراً طبيعتي الحقيقيّة ومتظاهراً بأنّيَ أخرس وأبله مثل أحصنتهم».

«لماذا لم تقُل لهم مَن أنت؟»

«لستُ بهذه الحماقة؛ هذا هو السبب. فلو علموا أنّني أقدر أن أتكلّم، لجعلوني فُرجةً في الأسواق والمعارض وشدّدوا عليَّ الحراسة أكثر من ذي قبل. وهكذا تضيع آخر فرصة لي بالهرب».

وبدا شصطى يقول: «ولماذا...» ولكنَّ الحصان قاطعه قائلاً:

«والآن انتبه! علينا ألّا نُضيّع وقتنا في الأسئلة الباطلة. أتُريد أن تعرف حقيقة سيّدي الطرقان أنْرادين؟ طيّب، إنّه رديء. لا يقسو عليَّ كثيراً، لأنَّ الحصان الحربيَّ ثمنُه أغلى مِنْ أنْ يُساء إليه. ولكنْ أفضلُ لك أن تموت الليلة من أن تصير عبداً في بيته غداً».

فقال شصطى وقد شحب وجهه كثيراً: «إذاً، خيرٌ لي أن أهرب!»

أجابه الحصان: «طبعاً، ولكنْ لماذا لا تهرب معي؟»

فقال: «وهل تنوي أن تهرب أنت أيضاً؟»

أجاب الحصان: «نعم، إن ذهبتَ معي. هذه هي الفرصة المؤاتية لنا كِلَينا، فأنت تعرف أنّه إذا هربتُ بلا

راكب فسيقول كلُّ من يراني: 'هوذا حصانٌ شارد،' ويلحق بي بأقصى سرعة. ولكنْ بوجود راكب، تكون لي فرصةٌ للإفلات. فهُنا تقدر أنت أن تساعدني. هذا من جهة، ومن جهةٍ أُخرى فأنت لن تقدر أن تهرب إلى مكان بعيد على رجليك هاتين الضعيفتين (وما أسخف أرجُل البشر!) بغير أن يمسك بك أحد. ولكنّك على ظهري تستطيع أن تسبق أيَّ حصانٍ في هذه البلاد. وهنا أقدر أنا أن أُساعدك. على فكرة، أظنُّ أنك تُجيد ركوب الخيل؟»

فقال شصطى: «نعم بالطبع! على الأقلّ، طالما ركبتُ على الحمار».

«ركبتَ على ماذا؟» كان ردّ الحصان بمنتهى الاحتقار. (على الأقلّ هذا ما عناه. فقد جاء ردُّه شبيهاً بالصهيل، إذ قال: «ركِبتَ على ما-ها-ها-ها-ها؟» (إذ إنَّ الأحصنة الناطقة كثيراً ما تزداد لهجتُها شبهاً بطبع الخيول إذا غضِبَت.)

ثمَّ أضاف: «بعبارة أُخرى، أنتَ لا تُجيد الركوب. وهذا عائق. فعليَّ أن أُعلّمك الركوب ونحن منطلقان. وما دمتَ لا تستطيع الركوب، فهل تستطيع الوقوع؟»

فقال شصطى: «أعتقد أنَّ أيَّ واحد يمكنه الوقوع».

«أعني: هل تقدر أن تسقط ثمّ تنهض بلا بكاء، وتركب من جديد ثمّ تسقط من جديد، ومع ذلك لا تخاف من الوقوع؟»

قال شصطى: «سوف... سوف أُحاوِل».

ثمَّ قال الحصان بلهجة ألطف: «يا لك من حيوان مسكين صغير! لقد نسيتُ أنّك مجرّدُ مُهر. سنجعل منك راكباً قديراً في الوقت المناسب. أمّا الآن، فعلينا ألّا نبدأ قبل أن ينام هذان الاثنان في الكوخ. إنّما في هذه الأثناء يمكننا أن نرسم خُطَطنا، إنّ صاحبي الطرقان متوجّه شمالاً إلى المدينة العظيمة، إلى طَشْبان بالذات، وإلى بلاط السُّلطان...»

فقال شصطى بصوتٍ شبه مخنوق: «تُرى، ألا يجب أن تقول: 'عاش إلى الأبد!؟'»

قال الحصان: «لماذا؟ أنا نارنيانيٌّ حرّ. فلماذا ينبغي لي أن أتكلّم كلام العبيد والجهّال؟ أنا لا أريد له أن يعيش إلى الأبد، وأعرف أنّه لن يعيش إلى الأبد، سواءً أردتُ ذلك له أم لم أرِد. ويمكنني أن أرى أنّك أنت أيضاً من الشمال الحرّ. فلا مزيد من هذا الكلام الجنوبي الفارغ بيني وبينك! ولنعُد إلى خُططِنا. فكما قلتُ، إنّ سيّدي البشريّ في طريقه شمالاً إلى طَشْبان».

«أيعني هذا أنّه خيرٌ لنا أن نتوجّه إلى الجنوب؟»

فقال الحصان: «لا أظنّ! فأنت ترى أنّه يعتقد أنّني أخرس وأبله كجميع أحصنته الأخرى. ولو كنتُ كذلك لكنتُ لحظة انحلال رباطي أرجع إلى إسطبلي وحظيرتي، إلى قصره الذي يبعد مسيرة يومين إلى الجنوب. وهنالك سيبحث عنّي. فلن يحلم أبداً بذهابي إلى الشمال وحدي. وعلى كلّ حال، فقد يحسب أنّ واحداً من أهل

القرية الأخيرة الذين شاهدوه عابراً على ظهري قد لحق به إلى هنا وسرقني».

فقال شصطى: «يا لفرحتي! إذاً، سنذهب إلى الشمال. لطالما تشوّقتُ للذهاب إلى الشمال!»

قال الحصان: «لا شكّ في ذلك. والسبب هو الدم الذي يسري في عروقك. فأنا متأكد أنك من أهل الشمال حقاً. ولكنْ أبقِ صوتك منخفضاً. أعتقد أنّهما نائمان الآن».

فاقترح شصطى أن يرجع خفيةً ليستطلع الأمر. فقال له الحصان:

«فكرة جيّدة! ولكنْ حذارِ أن يُكشَف أمرُكَ!»

آنذاك كان الظلام قد اشتدَّ قليلاً، وقد ساد السكون، ما عدا صوت الأمواج على الشاطئ، ذاك الذي لم يكَد شصطى يتنبّه إليه لأنه طالما سمعه ليلاً ونهاراً منذ الحين الذي تعود إليه ذاكرته. وإذ اقترب من الكوخ، وجده مظلماً، فتسمَّع من أمام الباب، فلم يسمعْ حسّاً. ولكنْ لمّا دار إلى حيث الشبّاك الوحيد، استطاع بعد ثانيةٍ أو ثانيتين أن يسمع الشخير الخشن الذي اعتاد سماعه من الصيّاد المُسِنّ. وسرّه كثيراً أن يفكّر أنّه لن يعودَ يسمع ذلك الشخير، إذا سار كلُّ شيء كما يتمنّى. وإذْ حبس أنفاسه، وأحسّ بشيءٍ من الأسف قلّ كثيراً جدّاً عن سروره، انسلّ مبتعداً على العشب وقصد إسطبل الحمار، وتلمّس طريقه إلى مكانٍ يعرف أن المفتاح مخبّأ فيه، ثمّ فتح الباب وأحضر سرج الحصان ولجامه اللذين كان مُقفلاً عليهما

هناك تلك الليلة. ثمَّ انحنى وقبّل خدَّ الحمار قائلاً: «أنا آسف لعدم قدرتنا على أخذك معنا!»

ولمّا رجع إلى الحصان، قال له هذا: «ها أنتَ هُنا أخيراً. كنتُ قد بدأتُ أتساءل عمّا جرى لك».

فأجابه شصطى: «كنتُ أُحضِر عُدّتك من الإسطبل. فهلّا تقول لي الآن كيف أشدُّها عليك!»

ثمَّ مضت بضع دقائق وشصطى يعمل بكلِّ حذر لتجنُّب الخشخشة، فيما الحصان يقول أشياءَ مثل «شُدَّ هذا الحزام قليلاً»، أو «ستجد إبزيماً في الأسفل»، أو «عليك أن تُقصرَّ هذين الرِكابَين قليلاً بعد». ولمّا انتهى العمل كلُّه، قال:

«علينا الآن أن نثبِّت الزمام في مكانه حفاظاً على حُسن المنظر، ولكنَّك لن تستعمله طبعاً. فاربط الرَسَن بمقدَّم السرج واتركه رخواً حتّى أستطيع أن أُدير رأسي كيفما أردت. وتذكَّرْ أنَّ عليك ألّا تلمس رَسَني».

فسأله شصطى: «وما سبب وجوده إذاً؟»

أجابه الحصان: «هو لقيادتي عادةً. ولكنْ بما أنّني أنوي تولِّي القيادة كلِّها في هذه الرحلة، فأرجو منك أن تُبقي يديك بعيدتَين عن الرَسَن. وهناك شيء آخر بعد: لَن أسمح لك بأن تتمسَّك بعُرفي».

فقال شصطى متوسّلاً: «ولكنْ، من فضلك، إذا كان عليَّ ألّا أتمسَّك بالزمام أو بعُرفك، فبماذا أتمسَّك إذاً؟»

قال الحصان: «تتمسَّك بي بركبتيك. هذا سرُّ ركوب

الخيل ببراعة. فشُدَّ على جسمي بين ركبتيك بأقوى ما يمكنك. واجلسْ مستقيماً، مستقيماً مثل لوح خشبي عموديّ، مُبقياً كُوعَيك بلِزق جسمك. وعلى فكرة، ماذا فعلتَ بالمهمازَين؟»

فقال شصطى: «ثبَّتُّهما في عَقِبَي قدمَيَّ. فأنا أعرف هذا تماماً».

«إذاً، عليك أن تنزعهما وتضعهما في خُرج السَّرج. وقد نتمكّن من بيعهما حين نصل إلى طشبان. أأنت جاهز؟ أعتقد الآن أنّه يمكنك أن تركب».

وبعد محاولة شصطى الأولى غير الناجحة، قال للحصان لاهثاً: «أُووه! ما أعلى ظهرك!»

فجاء الجواب: «أنا حصان؛ هذا كلُّ شيء. وأيُّ شخص يمكن أن يحسبني كُدس قشّ من طريقة محاولتك تسلُّقي! هيّا الآن؛ هذا أفضل! والآن اجلس مستقيماً، وتذكَّر ما قلته لك عن ركبتيك. إنّه أمرٌ مضحك أن أُفكِّر بأن يقعد على سرجي كيسُ بطاطا مثلك، بعدما أدّيتُ مهامَّ الفروسيّة وفُزتُ في سباقات قياسيّة! على كلِّ حال، هيّا بنا». ثُمَّ قهقه قهقهةً لطيفة.

وبالفعل، انطلق الحصان بالصبيِّ في رحلتهما الليليّة بمنتهى الحذر. وفي البداية، مضى جنوبيَّ كوخ الصياد تماماً إلى النهر الصغير الذي كان ينحدر إلى البحر هناك، وحرص على أن يُخلِّف في الوحل آثار حوافر واضحة تتّجه نحو الجنوب. ولكنْ ما إن وصلا إلى وسط المخاضة، حتّى

انعطف بعكس تيّار النهر وخوّض إلى أن ابتعدا نحو مئة متر عن كوخ الصيّاد باتجاه الداخل. ثمّ اختار جزءاً مؤاتياً من الضفّة تكثر فيه الحصى بحيث لا تبقى آثار أقدام، وخرج إلى الجانب الشماليّ. وبعد ذلك توغّل شمالاً وهو ما يزال يسير سيراً خفيفاً، إلى أن غاب عن الأنظار، في قلب ظلام الليل الصيفيّ الرماديّ، كلّ ما ألفه شصطى تماماً: الكوخ، والشجرة الوحيدة، وإسطبل الحمار، والخليج الصغير. وبعدما مضى حينٌ وهما يصعدان الجبل، وصلا إلى قمم سلسلة الجبال التي طالما كانت حدود العالم الذي يعرفه شصطى. ولم يكن من قبل يقدر أن يرى شيئاً ممّا وراءها ما عدا كونها مكشوفة ومكسوّة بالعشب. وقد بدت بلا نهاية: بريّة ومنعزلة وطَلقة.

إذ ذاك قال الحصان ملاحظاً: «ما أحلى هذا المكان لِعَدوٍ، أليس كذلك؟»

فقال شصطى: «آه، لا تفعل ذلك! ليس الآن. فأنا لا أُجيد ركوب حصانٍ يعدو، رجاءً يا حصانُ! لا أدري ما اسمُك».

أجاب الحصان: «بْريهاي-هِني-ابريني-هوهاي-هاه».

«لن أتمكّن أبداً من إعادة هذا. فهل أقدر أن أسمّيك بري؟»

«إذا كان هذا أفضل ما تقدر عليه، فأعتقد أنّك تقدر. وبماذا أُناديك أنا؟»

«إسمي شَصطى».

فقال بِري: «أحُم! هوذا اسمٌ تصعب تهجئته بالحقيقة. ولكنْ ما قولك الآن في العَدْوة؟ فإنْ كنتَ لا تعرفُ، فهي أسهل بكثير من الخَبَب، إذ لن تُضطرَّ إلى الارتفاع والهبوط. فشُدَّ عليّ ركبتيك وأبقِ عينيك تماماً ناظرتين من بين أُذنيّ. لا تنظر إلى الأرض. وإن ظننتَ أنّك ستقع فمكّن إمساكك بي واجلس بطريقة أكثر استقامةً. أأنت جاهز؟ فهيّا الآن إلى نارنيا والشمال!»

الفصل الثاني

مغامرة على جانب الطريق

كان قد حلَّ الظُهر تقريباً في اليوم التالي لمّا أيقظ شصطى شيءٌ حارٌ وناعم فوق وجهه. وفتح عينيه فإذا به يحدِّق إلى وجه حصان مستطيل، يكاد منخراه وشفتاه تلامس أنفه وشفتيه هو. فتذكَّر الأحداث المشوِّقة التي حفلت بها الليلة الفائتة، وجلس. ولكنّه لمّا فعل ذلك أنَّ وقال لاهثاً:

«أوه، يا برِي، إنّني متألِّم جداً، في كلِّ جسمي! حتّى إنّني لا أكاد أقدر أن أتحرَّك».

فقال برِي: «صباح الخير، يا صغيري. كنتُ أخشى أن تشعر بشيء من التيبُّس. ولا يمكن أن يكون السبب سقطاتك. فأنت لم تسقُط إلّا عشر مرّات أو أكثر بقليل. وكان وقوعك دائماً على التُّربة الليِّنة اللطيفة الناعمة النابضة التي لا بدَّ أن يكون الوقوع عليها مُمتِعاً على الأرجح. والوقعة الوحيدة التي كان ممكناً أن تؤذيك خفَّفتها شُجَيرة الوزّال*. لا، فإنّما الركوب نفسه هو الذي

* الوزّال: شجيرة شوكية كثيفة لون أزهارها أصفر.

يصعب عليك أوّلاً. ما قولك في الفَطور؟ أنا تناولت فَطوري». أجاب شصطى: «آه، ما لي وللفَطور، ما لي ولأيِّ شيء! قلتُ لك إنّني لا أقدر أن أتحرَّك». ولكنَّ الحصان مسَّه بأنفه برِفق ونقره بحافره نقراً خفيفاً حتى اضطُرَّ إلى النهوض. ثمَّ تطلَّع حواليه فرأى أين كانا. فقد كانت وراءهما غَيضةُ شجر خفيفة. وأمامهما انحدرت التربة المنقَّطة بالزهر الأبيض حتى حافة جُرفٍ صخريّ. وتحتهما بعيداً امتدَّ البحر، بحيثُ تناهى إليهما وَقْع تكسُّر أمواجه خافتاً جداً. ولم يكن شصطى من قبل قد رأى البحر من مثل ذلك الارتفاع، ولا رأى قطُّ قبلاً ذلك المقدار الكبير منه، ولا حلم قط بكثرة ألوانه. وقد امتدَّ الشاطىء يميناً ويساراً نحو البعيد، وظهر منه رأسٌ بعد رأسٍ داخل المياه، وعند الأطراف كان يمكنك أن ترى رغوة البحر البيضاء مندفعة إلى أعالي الصخور، إنّما بغير ضجيج وعجيج، لأنّها كانت بعيدة جداً، وكانت طيور النورس تطير فوق رأسيهما، وحرارة الأرض تسفعهما من تحت، إذ كان النهار لاهباً، ولكنَّ ما لاحظه شصطى خصوصاً كان الهواء. فلم يقدر أن يحزر ما كان ينقصه، حتّى أدرك أخيراً أنّه يخلو من رائحة السمك. ذلك أنّه بالطبع لم يفارق تلك الرائحة في ما مضى، لا في الكوخ ولا بين الشِباك. وقد كان هذا الهواء الجديد طيِّباً ومنعشاً جداً، وبدا له ماضي حياته بجملته بعيداً للغاية، حتى إنّه نسي هُنيهةً رضوضه وعضلاته المتألِّمة وقال:

«يا بِري العزيز، أمَا قلتَ شيئاً عن الفطور؟»

فأجاب بِري: «بلى، قلتُ! أعتقد أنّك ستجد شيئاً في عِدْلَي السَّرج. إنّهما معلّقان هناك على الشجرة، حيث علّقتهما أنت البارحة، أو بالأحرى صباحَ هذا اليوم باكراً».

وفتّشا خُرج السَّرج، فكانت النتيجة بهيجة: فطيرة لحم لم تفسد بعد، وكتلة تين مجفّف، وقطعة جبن جديدة، وقنّينة نبيذ صغيرة، وبعض النقود التي بلغت نحو أربعين هلالاً، وهي كمّية تفوق كلَّ ما سبق لشصطى أن رآه.

وبينما قعد شصطى أرضاً، بألمٍ وحَذَر، مُسنِداً ظهره إلى جذع شجرة، وبدأ يتناول الفطيرة، تناول بِري بضع قضمات من الحشيش حتّى يؤانسه.

وسأل شصطى: «أليس سرقةً أن نستخدم هذا المال؟»

فقال الحصان وهو يرفع رأسه وفمُه محشوٌّ حشيشاً: «أوه، لم أُفكّر في هذا قطّ. فعلى الحصان الحرّ، والحصان الناطق، ألّا يسرق بالطبع. ولكنْ أعتقد أنْ لا بأس في الأمر. فنحن سجينان وأسيران في بلد العدوّ. وهذا المال غنيمة حرب وقعت بأيدينا. ثمّ كيف نحصل على أيّ طعام لك بلا مال؟ فأظنُّ أنّك، مثل البشر كلّهم، لن تأكل طعاماً طبيعيّاً كالعشب والشوفان».

«أجل، لا أقدر أن آكلها».

«هل سبق أن جرّبتَ؟»

«نعم، جرّبت، فلم أقدر أن أبلعه قطّ. ولو كنتَ مكاني، لما قدرتَ أنت أيضاً».

فقال بِري معلّقاً: «يا لكم، أنتم البشر، من مخلوقاتٍ صغيرة غريبة!»

ولمّا فرغ شصطى من تناول فَطوره (وقد كان حتّى ذلك الحين أفخر فطور تناوله)، قال بِري: «أعتقد أنّني سأتمرّغ بعض التمرّغ المُمتع قبل أن تُسرجني من جديد».

ثمّ مضى يفعل ذلك، حاكّاً ظهره بالتُّربة وملوّحاً بقوائمه الأربع في الهواء، وقائلاً: «هذا جيّد. هذا جيّد جدّاً. عليك أن تحذو حذوي، يا شصطى. إنّه أمرٌ منعشٌ جدّاً!» وقد بدا صهيله أقرب إلى الشخير.

إلّا أنّ شصطى انفجر ضاحكاً وقال: «إنّك فعلاً تبدو مضحكاً وأنت على ظهرك!»

فقال بِري: «لا أبدو كذلك». لكنّه فجأةً انقلب على جنبه ورفع رأسه، وحدّق طويلاً إلى شصطى وهو يصفر قليلاً. ثمّ سأل بلهجة متلهّفة:

«أيبدو ذلك مضحكاً بالفعل؟»

فأجاب شصطى: «نعم، يبدو كذلك! ولكنْ ما همّك؟»

قال بِري: «الأرجح أنكَ لا تظن أنّ ذلك قد يكون شيئاً لا تفعله الأحصنة الناطقة أبداً؛ حيلةً بهلوانيّة سخيفة تعلّمتُها من الأحصنة الخرساء؟ سيكون مروّعاً، لدى رجوعي إلى نارنيا، أن أجد أنني قد التقطتُ بعض العادات الوضيعة الرديئة. فما قولك، يا شصطى؟ قل لي صدقاً الآن، ولا تُراعِ مشاعري: أتعتقد أنّ الأحصنة الحرّة الأصيلة، من النوع الناطق، تتشقلَب؟»

«كيف أدري يا تُرى؟ على كلِّ حال، لو أنني كنتُ مكانك، لما أقلقَني هذا الأمرُ. علينا أن نصل إلى هناك أوّلاً. فهل تعرف الطريق؟»

«إنّي أعرف طريقي إلى طشبان. وبعدها تأتي الصحراء. أوه! سندبّرُ أمرنا في الصحراء بطريقة ما، فلا تخف. ثمّ إنّنا عندئذٍ سنشاهد الجبال الشماليّة. فكّرْ في روعة الأمر! إلى نارنيا وإلى الشمال! وعندئذٍ لن يوقفنا شيء. إنّما يسرُّني أن أتجاوز طشبان. فأنا وأنت نكون أكثر أمناً بعيداً عن المدن».

«ألا يمكننا أن نتجنّبَ طشبان؟»

«ليس بغير أن نجتاز مسافةً طويلة داخل البلاد، الأمرُ الذي يَضطرُّنا إلى عبور الأراضي المزروعة والطرق العامّة، ولستُ أعرف ذلك الطريق جيّداً. لا، فما علينا إلّا أن نتقدّم على طول الشاطئ. أمّا هُنا على التّلال، فلن نُقابِل إلّا الغنم والأرانب وطيور النورس وبعض الرعاة. وبالمناسبة، ما قولك في الانطلاق؟»

كانت رجلا شصطى تؤلمانه كثيراً وهو يُسرِج بري ثُمّ يعتلي السرج، غير أنّ الحصان كان لطيفاً معه للغاية، إذ سار على مهل طوال عصر النهار. ولمّا لاح شَفَق الغروب، نزلا في شِعابٍ منحدرة إلى وادٍ فوجدا قرية. وقبل دخولها، ترجّل شصطى ودخلها ماشياً ليشتري رغيف خبز وبعض البصل والفِجل. أمّا الحصان فسار خَبَباً حول القرية بين الحقول عند هبوط الظلام، ثمّ لاقى شصطى عند

طرف القرية الأقصى. وصارت هذه خطّتَهما المعتادة كلَّ ليلةٍ تالية.

وقد كانت تلك أيّاماً عظيمة بالنسبة إلى شصطى، وكان كلُّ يومٍ أفضل من سابقه، إذِ اشتدّت عضلاته وقلّت سقطاته. وحتّى عند انتهاء تدرُّبه، كان برِي ما يزال يقول إنّه يجلس على السّرج كأنّه كيسُ طحين. وقد قال له: «حتّى لو كان الأمر آمِناً، يا صغيري، فإنّي أستحي أن يراني الناس بصحبتك على الطريق العامّ». غير أنّ برِي، رغم خشونة كلماته، كان معلّماً صبوراً. فلا أحد مثل الحصان يمكن أن يُعلّم الركوب الحسن. وقد تدرّب شصطى على ركوب الحصان حين يسير خَبَباً وعدْواً، وأن يقفز به، وأن يظلَّ على السّرج حين يُضاعِف برِي سرعته فجأةً أو يميل على غير توقُّع إلى اليسار أو اليمين؛ وهذا، كما قال له برِي، أمرٌ قد تُضطرُّ إلى فعله في أيّة لحظة في ساحة المعركة. وعندئذٍ بالطبع ترجّاه شصطى أن يُخبّره عن المعارك والحروب التي حمل الطّرقانَ فيها. فمضى بري يتحدّث عن الزحف القَسْريّ وخوض الأنهار السريعة، وعن المهمّات والقتال الشرس بين فارسٍ وفارس، حين تحاربت أفراسُ الحرب مثلها مثل الرجال، وهي كلُّها فحولٌ شرسة مُدرّبة على العضّ والرفس، وعلى الانكفاء في اللحظة المناسبة بحيث يهبط ثِقل الحصان وثقل راكبه أيضاً على خوذة عدوٍّ من الأعداء عند ضربة سيف أو فأس حربيّة. ولكنّ برِي لم يُرِد أن يتحدّث عن الحروب كلّما أراد شصطى أن يسمع عنها، فكان يقول: «لا

تتحدَّث عنها، يا صغيري. فهي إنَّما كانت حروب السُّلطان، وقد حاربتُ فيها بصفتي عبداً وحصاناً أخرس. حدِّثني عن حروب نارنيا حيث سأحارب كحصان حُرٍّ بين أهلي! فهذه ستكون حروباً يجدر التحدُّث عنها. نارنيا والشمال! ابرا-ها-ها! ابْرو هُوو!»

وسريعاً تعلَّم شصطى أن يستعدَّ لِعَدوةٍ إذا سمع بري يتكلَّم هكذا.

بعد ذلك واصلا السفَر أسابيعَ وأسابيع، وجاوزا عدداً من الخلجان والرؤوس والقرى أكثر من أن يقوى شصطى على تذكُّره، حتَّى جاءت ليلةٌ نوَّرها البدر فبدأا رحلتهما عند المساء بعدما ناما نهاراً. وخلَّفا التلال وراءهما، وأخذا يعبران سهلاً فسيحاً في طرفه غابةٌ تبعد عنهما أقلَّ من كيلومتر واحد إلى يسارهما. وكان البحر، خلف كثبان الرمل المنخفضة، يبعد عنهما نحو تلك المسافة نفسها إلى يمينهما. فبعدما سارا على مهل قرابة ساعة، خبباً حيناً وسيراً حيناً، توقَّف بري فجأةً، فقال شصطى:

«ماذا هنالك؟»

فقال بري، مُديراً عنقه ورافعاً أُذنيه: «اشْش! هل سمعتَ شيئاً؟ تسمَّعْ!»

وبعدما تسمَّع شصطى نحو دقيقة، قال: «يبدو كأنَّ هنالك حصاناً آخر، بيننا وبين الغابة».

فأجاب بري: «إنَّه فعلاً حصانٌ آخر. وذلك هو ما لا أُحبُّه».

فقال شصطى مُتثائباً: «أليس من الأرجح أن يكون ذلك مجرَّد فلّاح راجع إلى بيته متأخِّراً؟»

أجابه بري: «لا تقل لي هذا. فليس ذلك ركوبَ فلّاح، ولا ذلك حصان فلّاح. ألا تقدر أن تعرف من وقْع الحوافر؟ ذلك فرسٌ أصيل حقّاً، ويمتطيه فارسٌ ماهر أيضاً. سأقول لك ما ذاك، يا شصطى. هنالك طَرقان عند طرف تلك الغابة. وهو لا يركب حصاناً حربيّاً، فالعَدْو أخفُّ من أن يعدوَه حصانٌ من هذا النوع. ينبغي لي أن أقول إنَّ المطيَّة فرس شريفة النسب».

فقال شصطى: «ها هي قد توقَّفت الآن، كائنةً ما كانت».

وقال بري: «أنت على حقّ. ولكنْ لماذا يتوقَّف الفارس تماماً عندما نتوقَّف نحن؟ يا صغيري شصطى، أعتقد أنَّ أحداً يتعقَّبنا خلسةً، أخيراً».

فقال شصطى بهمسٍ أخفَّ من ذي قبل: «ماذا ينبغي أن نفعل؟ أتعتقد أنَّه يقدر أن يرانا وأن يسمعنا أيضاً؟»

أجاب بري: «ليس في هذا الضوء الباهت ما دمنا مُحافِظَين على الهدوء والصمت. ولكنْ تطلَّع! ها هي غيمة طالعة. فسننتظر حتَّى تحجبَ ضوء القمر. ثمَّ نمضي إلى يميننا بأهدإ ما نستطيع، نزولاً إلى الشاطىء. ففي وسعنا أن نختبىء بين كثبان الرمل إذا حصل أسوأُ ما نخشاه».

وانتظرا حتّى حجبت الغيمة القمر، ثمَّ توجَّها نحو الشاطىء، أوَّلاً مشياً عادياً وبعد قليل خَبباً خفيفاً.

كانت الغيمة أكبر وأكثف مّما بدت أوّل الأمر، وسرعان ما صار ظلام الليل شديداً جدّاً. وبينما كان شصطى يقول لنفسه: «لا بدّ أن نكون قد وصلنا الآن إلى تلك الكثبان الرمليّة»، قفز قلبه داخل صدره لأنّ ضجّةً مُنفّرةً تعالت فجأةً من قلب الظلام أمامهما: زمجرة طويلة شديدة، كئيبة، ووحشيّة تماماً. وفي الحال انحرف برِي ودار وبدأ يعدو داخل البرّ من جديد بأسرع ما يمكنه.

فقال شصطى لاهثاً: «ما ذلك؟»

أجاب برِي: «أُسود!» دون أن يُخفّف سرعته أو يلتفت برأسه.

بعد ذلك لم يكن شيء إلّا مجرّدُ العَدْو بعضَ الوقت. وأخيراً شقّا طريقهما عبر ساقية عريضة غير عميقة حيث تطاير الرشاش، وتوقّف برِي على الضفة البعيدة. وقد لاحظ شصطى أنّه يرتجف ويتصبّب عرقاً من كلّ جسمه.

ولّما استجمع برِي أنفاسه قليلاً، قال لاهثاً: «ربما أزالت هذه المياه رائحةَ أثرنا عن هذه الوحوش. فيمكننا أن نسير قليلاً الآن».

وفيما هما يسيران، قال برِي: «شصطى، أنا أستحي بنفسي. فها قد أُصبتُ بالذعر تماماً كأنّني حصان أخرس من عامّة أحصنة كالورمِن. بل أنا فعلاً كذلك! فلستُ أشعر أبداً شعور الحصان الناطق. لا تهمّني السيوف والرماح والسهام، ولكنّني لا أُطيق تلك المخلوقات. أودُّ أن أخبّ قليلاً».

ولكنْ بعد نحو دقيقة، اندفع يعدو من جديد، ولا عجب. فإنّ الزمجرة انطلقت من جديد، وهذه المرّة إلى يسارهما من جهة الغابة.

وقال برِي آناً: «إنّهما اثنان!»

وبعد عدْوٍ دام بضع دقائق بلا أيّ زئير من الأسود، قال شصطى: «انتباهاً! هوذا الحصان الآخر يعدو بقربنا الآن، ولا يبعد عنّا إلّا رمية حجر».

فقال برِي لاهثاً: «وهذا أفضل بكثير. فالطَرقان الراكب عليه لا بدّ أن يكون حاملاً سيفاً، وهو سيحمينا جميعاً».

أجاب شصطى: «ولكنْ، يا برِي، ربّما يُلقى علينا القبض كما يمكن أن تقتلنا الأسود. أو ربّما أنا على الأقلّ سأُعاقَب بالشنْق لسرقة حصان». وقد كان يشعر بخوفٍ من الأسود أقلّ من شعور برِي، لأنّه لم يواجه أسداً قط. أمّا برِي فقد واجه.

ولم يكن من برِي إلّا أن ردّ بشخرة، ولكنّه انعطف مبتعداً بسرعة إلى يمينه. والغريب تماماً أنّ الحصان الآخر بدا أيضاً منعطفاً ومبتعداً نحو اليسار، بحيث لم تمضِ ثوانٍ قليلة حتّى تباعدت المسافة بينهما مقداراً لا بأس به. ولكنْ ما إن حصل ذلك حتّى سُمِعت زمجرتا أسدَين آخرين، إحداهما بُعيدَ الأخرى، وواحدة من جهة اليمين والأخرى من جهة الشمال، فأخذ الحصانان يتقاربان. وبدا أنّ الأسدَين حذَوَا حذوهما. وبات زئير الوحشين، إلى كِلا الجانبين، يقترب قُرباً مرعباً، وبدا أنّهما يلحقان

الحصانين الراكضين بكلّ سهولة. ثمّ توارت الغيمة، فإذا بضوء القمر، الباهر على نحوٍ مدهش، يكشف كلّ شيء كما في وضح النهار. وإذا الحصانان وراكباهما يركضون تقريباً عنقاً بلزق عنق، وركبةً بلزق ركبة، كما لو كانوا في سباق. وبالحقيقة أنّ برِي قال (في ما بعد) إنّه لم يرَ قطُّ سباقاً أحسن من ذلك في كالورمِن.

أنذاك اعتبر شصطى نفسه هالكاً وبدأ يتساءل عن الأسود هل تقتلك بسرعة أم هل تُلاعِبك كما تلاعب القطّة الفأرة، وكم يؤلم ذلك. وفي الوقت ذاته لاحظ كلّ شيء (والمرء أحياناً يفعل ذلك في أشدّ اللحظات ذُعراً). فرأى أنّ الراكب الآخر كان شخصاً نحيلاً وصغيراً جدّاً، يلبس درعاً من الزَرَد يبرق تحت ضوء القمر، ويركب حصانه ببراعة. وقد كان بلا لحية.

وإذا بشيء منبسط وبرّاق ينتشر أمامهما. وقبل أن يتّسع الوقت لشصطى حتّى يحزر فقط ما كان ذلك،



حصلت طرطشة ماءٍ غزيرة، ووجد فمه ملآنَ تقريباً بالماء المالح. فإنّ ذلك الشيء اللمّاع كان لساناً بحرياً طويلاً. وصار الحصانان كلاهما يسبحان حتّى وصل الماء إلى ركبتَي شصطى. وصدرت من خلفهما زمجرة غاضبة، فنظر شصطى وإذا بحيوانٍ مخيف كبير قافّ الشعر رابضٌ عند حافة الماء. لكنّه كان واحداً فقط. ففكّر: «لا بدّ أنّنا نجونا من الأسد الآخر!»

منَ الواضح أن الأسد لم يعتبر فريسته تستحقّ أن يبلّل نفسه لأجلها. وعلى كلّ حال، فهو لم يُجرّب أن يقفز إلى الماء لمطاردتها. ثم بلغ الحصانان، جنباً إلى جنب، منتصفَ اللسان تقريباً، وصار ممكناً أن يُرى الشطُّ المقابل بوضوح. ولم يكنِ الطَّرقان قد قال كلمة واحدة بعد. ولكنّ شصطى فكّر: «إنّما لا بدّ أن ينطق حالما نصل إلى البرّ. فماذا أقول يا تُرى؟ عليّ أن أبدأ بتلفيق قصّةٍ ما».

ثمّ سمع فجأةً صوتين يتكلّمان إلى جانبه.

قال أحدهما: «أوه، كم أنا مُتعَبة!»

وقال الآخر: «اضبطي لسانك، يا هُوين، ولا تكوني غبيّة!»

ففكّر شصطى برأسه: «إنّني في حلم! يمكنني أن أُقسِم على أنّ ذلك الحصان الآخر قد تكلّم!»

وبعد قليلٍ لم يعُدْ الحصانان يسبحان، بل صارا يسيران، وسرعان ما خرجا من الماء عند الشاطىء الآخر

من اللسان، وقد سُمع صوت عظيمٌ صادر عن المياه النازلة عن جوانبهما وذيليهما، فيما صوت تكسُّر الحصى وسحقها ينطلق من تحت ثمانية حوافر. وقد فوجئ شصطى بعدم إبداء الطّرقان أيّة رغبة في طرح أسئلة. حتّى إنّه لم ينظر إلى شصطى، بل بدا متلهّفاً لحثّ حصانه على مواصلة السير حالاً. غير أنّ بِري تنكّب معترضاً سبيل الحصان الآخر في الحال، وقال شاخراً:

«ابْرو-هُو-هاه! قفي عندكِ! لقد سمعتُكِ، نعم سمعتك. فلا نفع في تظاهُركِ بالعكس، يا سيّدتي. إنّي سمعتُك فعلاً. أنت فرس ناطقة، من أحصنة نارنيا، مثلي أنا تماماً».

فقال الفارس الغريب بخشونة، واضعاً يده على مِقبَض السيف: «وما دخلك أنت إن كانت هي كذلك؟» إلّا أنّ الصوت الذي به نُطقت هذه الكلمات بيّن لشصطى شيئاً في الحال. فهتف:

«عجباً، ها هنا مجرّد بنت!»

فردّت الغريبة بحدّة: «وأيُّ شأنٍ لكَ أنت إن كنتُ مجرّد بنت؟ فأنت مجرّد صبيّ: صبيّ صغير وقح من العامّة؛ وربّما كنتَ عبداً سرق حصان سيّده».

فقال شصطى: «أهذا كلّ ما تعرفينه؟»

وقال بِري: «ليس سَرّاقاً، أيتها الطرقانة الصغيرة. وعلى الأقلّ، إن حصلت أية سرقة، فيمكنك أن تقولي أيضاً إنّي أنا سرقتُه، أمّا أنّ الأمر لا يعنيني، فأنتِ لن تتوقّعي منّي

أن أمرّ بسيّدة من بنات جنسي في هذه البلاد الغريبة ولا أتحدّث إليها؟ فإنّما من الطبيعيّ أن أحادثها».

فقالت الفرس: «أعتقد أنّ القيام بهذا أمرٌ طبيعيٌّ جدّاً».

وقالت البنت: «رغبتي أن تضبطي لسانك، يا هُوِين. انظري الورطة التي ورّطتنا فيها!»

فقال شصطى: «لستُ أدري عن أيّة ورطة تتكلّمين. ففي وسعك أن تذهبي سريعاً حالَما ترغبين. ونحن لن نؤخّركِ».

وقالت البنت: «طبعاً، لن تؤخّراني!»

فقال بِري للفرس: «يا لَهذين البشريّين من مخلوقَين مُحِبَّين للخصام! إنّهما رديئان مثل البغال. فلنحاول أن نتحدّث قليلاً في أمور معقولة. أعتقد، يا سيدتي، أنّ قصّتك مثل قصّتي؟ الوقوع في الأسر من زمان الصِّبا الباكر، وقضاء سنين من العبودية بين أهل كالورمِن؟»

فقالت الفرس بأنّةٍ كئيبة: «صحيحٌ تماماً، يا سيّد».

«والآن، تهربين؟»

فقالت البنت: «قولي له أن يهتمّ بشؤونه الخاصة، يا هُوِين».

قالت الفرس، مُرجِعةً أُذنيها إلى الوراء: «لا، لن أقول له هذا، يا آراڤيس. فهذا هروبي كما هو هروبُكِ تماماً. وأنا متأكّدة أنّ حصاناً حربيّاً نبيلاً كهذا لن يخوننا. فنحن نحاول أن نهرب، أن نصل إلى نارنيا».

وقال بِري: «ونحن مثلكما أيضاً بالطبع. ولا شكّ أنّكِ حزرتِ ذلك في الحال. فإنّ صبيّاً صغيراً رثّ

الشباب راكباً (أو محاولاً أن يركب) على حصان حربيّ في ظلام الليل لا يمكن أن يعني شيئاً إلاّ فراراً، من نوع ما. وإن جاز لي القول، فإنّ طرقانة كريمةً تمتطي فرساً في الليل وحدها وهي ترتدي درع أخيها تنكّراً، وحريصةً للغاية على أن تطلب من الجميع أن يهتمّوا بشؤونهم الخاصّة ولا يسألوها أيّة أسئلة، إذا لم تكن هاربة أكونُ أنا جحشاً!»

فقالت أرافيس: «صحيح، لقد حزرتَ! فأنا وهُوِين هاربتان. ونحن نحاول أن نصل إلى نارنيا. والآن، ما شأنك بالأمر؟»

قال بِري: «في هذه الحال، ماذا يمنعنا من الذهاب كلّنا معاً؟ فأنا أثق، يا سيّدةُ هُوِين، أنّك ستقبلين أيّ مساعدة وحماية يمكنني أن أقدّمهما لك في هذه الرحلة!»

فسألتِ الفتاة: «لماذا تُصرّ على التحدّث إلى فرَسي بدلاً من محادثتي أنا؟»

أجاب بِري (وهو يُميل أذنيه إلى الوراء أقلّ إمالة): «عفوكِ، يا طَرْقانة! فهذا حديث أهل كالورمن. أمّا أنا وهُوِين فمن أهل نارنيا الأحرار. وأظنّ أنّكِ إن كنتِ هاربةً إلى نارنيا فلا بُدّ أن تكوني واحدة من الأحرار أيضاً. وفي هذه الحال، لا تكون هُوِين فرسَكِ في ما بعد. بل يمكن القول بحقّ إنّكِ أنتِ إنسانتُها تماماً!»

وفتحت الفتاة فمها لتتكلّم، ثمّ توقّفت. فمن الواضح أنّها لم ترَ الأمر في هذا الضوء من قبل.

وبعد وقفةٍ دامت هُنيهة، قالت: «ومع ذلك، لا يبدو لي أنّ في ذهابنا كلّنا معاً فائدةً كبيرة. أليس من الأرجح أن يُكتشَف أمرُنا؟»

فقال بِري: «بل هذا هو الاحتمال الأضعف!»

وقالت الفرس: «أوه، لنذهبْ معاً. سأشعر بأنّي أكثر بكثير أمناً وراحة. حتّى إنّنا غير متأكّدين من الطريق. أنا متأكّدة أنّ جواد حرب كبيراً كهذا يعرف أكثر بكثير مما نعرف نحن».

ولكنّ شصطى قال: «هيّا يا بِري، ودعهما يذهبا في سبيلهما. ألا ترى أنّهما لا يريداننا».

فقالت هُوِين: «بل نُريد».

وقالت الفتاة: «انظر إليّ! لا يزعجني الذهاب معك، يا جواد الحرب المحترم، ولكنّ ما شأن هذا الصبيّ؟ كيف أدري أنّه ليس جاسوساً؟»

فقال شصطى: «لماذا لا تقولين رأساً وبوضوح إنّك تعتقدين أنّني لا أصلح لمرافقتك؟»

وقال بِري: «سكوتاً، يا شصطى! إنّ سؤال الطَرْقانة في محلّه تماماً. أنا أكفل الصبيّ، يا طَرْقانة. فلطالما كان صادقاً معي وصديقاً لي مخلصاً. وهو يقيناً إمّا من أهل نارنيا وإمّا من بلاد آرخيا».

فقالت: «طيّب إذاً. فلنذهبْ معاً!» غير أنّها لم تقُلْ شيئاً لشصطى، وبدا واضحاً أنّها أرادت صحبة بِري، لا صحبته هو.

وقال بِري: «عظيم! والآن، ما دام الماء يفصل بيننا وبين تلك الحيوانات المخيفة، فلماذا لا تحلّان -أنتما البشريَّين- سَرجَينا، ثُمّ نستريح كلُّنا قليلاً، ونسمع بعضُنا قصص بعض؟»

فأنزل الولدان كلاهما السرجين عن فَرَسيهما، ورعى الفَرَسان شيئاً من العشب، وأخرجت آرافيس من خرج سَرجها أطايبَ للأكل. إلاّ أنّ شصطى عبس وقال: «لا، شكراً! لستُ جائعاً». ثمّ حاول أن يتصرّف بمقتضى آداب السلوك الصارمة حسب اعتقاده، ولكنْ لمّا كان كوخ صيّاد السمك في العادة مكاناً غير جيّد لتعلُّم الآداب الرفيعة، جاءت النتائج مروِّعة. وعرف تقريباً أنّه لم يُحسن التصرُّف، فازداد عبوساً وخشونةً عمّا قبل.

وفي تلك الأثناء كان الفَرَسان على أحسن حال. فقد تذكّرا الأماكن نفسها في نارْنيا - «الأراضي المكسوّة عشباً في الأعالي فوق سدّ السمامير» - وتبيَّن لهما أنّهما كانا نسيبَين بعيدَي القرابة فرّق الدهرُ بينهما. وقد سبَّب ذلك مزيداً من الحَرَج والانزعاج للبشريَّين، إلى أن قال بِري أخيراً:

«والآن، يا طرقانة، خبِّرينا قصّتكِ. ولا تعجّلي فيها، فأنا الآن أشعر بالراحة».

فباشرت آرافيس حكايتها حالاً، وهي قاعدة بلا حراك، مستخدمةً بالأحرى لهجةً وأُسلوباً يختلفان عمّا اعتادته في الحديث. ففي كالورمِن، حكايةُ القصص

(سواءٌ كانت حقيقيّة أو خياليّة) فنٌّ يتعلّمه المرء، كما يتعلّم صبيان العَرَب وبناتهم كتابة الإنشاء. إنّما الفرق هو أنّ النّاس يحبّون سماع القصص، في حين أنّني لم أسمع قطُّ عن شخصٍ يحبُّ قراءة مواضيع الإنشاء.

الفصل الثالث

عند أبواب طَشبان

قالت الفتاة في الحال: «إسمي آراڤيس الطَرقانة، وأنا الابنة الوحيدة لقِدراش الطَرقان ابنِ رِشتي الطَرقان، ابنِ قِدراش الطرقان، ابنِ إلْصُمبرِيه السلطان، ابنِ أرديب السلطان الذي تحدّر مباشرةً من سُلالة الإله طاش. وأبي هو سيّد ولاية كالاڤار، وهو شخص يتمتّع بحقّ الوقوف شخصياً بذاته أمام وجه السُّلطان نفسه (عاش إلى الأبد!). أمّا أُمّي (عليها سلام الآلهة) فقد ماتت، وتزوّج أبي بامرأةٍ غيرها. ولي أخوَان سقط أحدُهما في ساحة المعركة عند محاربة المتمرّدين في أقصى الغرب، أمّا الآخر فما يزال ولداً صغيراً. وقد حدث أنّ زوجة أبي، أي رابّتي* كما يقولون، كرهتني حتّى كانت الحياة سوداء في عينيها ما دمتُ أعيشُ في بيت أبي. وهكذا أقنعت أبي بأن يوافق على تزويجي من آحوشتا الطَرقان. أمّا

* الرابّة: هي زوجة الأب التي تقوم بتربية الأطفال بعد وفاة الأم أو طلاقها من زوجها الذي هو الأب.

آحوشتا هذا فوضيع الأصلِ والمولد، وإن كان في هذه السنين الأخيرة قد كسب حُظوةً لدى السُّلطان (عاش إلى الأبد!) بالتملُّق والمشورةِ الشرّيرة، وهو الآن طَرقان وسيّد على عدّة مدن، ويُرجَّح أن يصير الوزير الأوّل إذا تُوفّي الوزير الأوّل الحاليّ. ثمّ إنّ عمره ستُّون سنة على الأقلّ، وله حَدَبة على ظهره، ووجه مثل وجه القرد. ومع ذلك، فإنّ أبي، بسبب غنى آحوشتا هذا، وبإقناعِ زوجتِهِ له، بعث رسلاً يعرضون عليه الزواج بي. ولقي هذا العرض قبولاً واستحساناً لدى آحوشتا، فردَّ خبراً بأنه سيتزوّج بي هذه السنة بالذات في عزّ الصيف.

«ولمّا بلغني هذا الخبر، اسودّت الحياة في عينيّ، وانطرحتُ في سريري وبكيتُ يوماً بطولِه. إلّا أنّي في اليوم الثاني نهضتُ وغسلت وجهي وطلبت إسراج فرسي هُوِين. وأخذت معي خنجراً حادّاً كان أخي قد حمله في حروب الغرب، وركبتُ على الفرس خارجةً وحدي. حتّى إذا غاب بيت أبي عن نظري، ووصلتُ إلى بقعة منفرجة خضراء في غابة من الغابات ليس فيها مساكن للبشر، ترجّلتُ عن فرسي هُوِين وجرّدت الخنجر. ثمّ كشفتُ ثيابي عن المكان الذي حسبتُه الأقرب إلى قلبي، وصلّيت إلى جميع الآلهة طالبةً أن أجد نفسي بصحبة أخي حال موتي. وبعدئذٍ أطبقتُ عينيّ وأسناني واستعددتُ لطعن قلبي بالخنجر. ولكنْ قبل أن أفعل ذلك، نطقت هذه الفرس بصوتِ واحدةٍ من بنات البشر قائلةً لي: «يا

سيّدتي، لا تُهلكي نفسَكِ مطلَقاً، لأنّكِ إذا بقيتِ حيّةً قد تبقى لديكِ فرصة بأن تظفري بحظٍّ سعيدٍ، أمّا الأموات فجميعهم أموات على السواء».

فتمتمت الفرس قائلةً: «لم يكن ما قلتُه بنصف هذه البلاغة!»

فقال بِري: «صه، يا سيّدة، صه! إنّها تروي الخبر بطريقة أهل كالورمِن الفخمة، وما من راوٍ في بلاطِ حاكمٍ يقدر أن يفعل ذلك أحسن منها. رجاءً، تابعي يا طرقانة!» وقد كان يستمتع بالقصّة تماماً.

وتابعت آراڤيس تقول: «لمّا سمعت لغة البشر تنطق بها فرسي، قلتُ لنفسي إنّ خوف الموت شوّش عقلي وعرّضني للتوهُّم. واعتراني الخجل لأنّ أيّ شخص من سلالتي لا ينبغي أن يخاف من الموت أكثر من خوفه من لسعة بعوضة. ومن ثمّ هممتُ ثانيةً بطعن نفسي، إلّا أنّ هُوِين اقتربت منّي واعترضت برأسها بيني وبين الخنجر، وخاطبتني بأفخر الحجج، وزجرتني كما تزجر الأمُّ ابنتها. إذ ذاك تعاظم عجبي حتّى نسيتُ قتل نفسي وأمر آحوشتا، وقلت: «يا فرسي الطيّبة، كيف تعلّمتِ أن تنطقي كإحدى بنات البشر؟» فأخبرتني هُوِين بما تعرفه جماعتُنا هذه كلُّها، من أنّ في نارنيا حيواناتٍ تنطق، وكيف سُرقت هي نفسُها من هناك لمّا كانت مُهرةً صغيرة. كذلك أيضاً حدّثتني عن غابات نارنيا وأنهارها، وعن قصورها وسُفنها العظيمة، حتّى قلتُ: «باسْم كُلٍّ

مِنْ طاش وأزاروث وزارْديناه، سيّدةِ الليل*، أمنيتي العُظمى لو أذهبُ إلى بلاد نارنيا تلك!» فأجابتني الفرس: «يا سيّدتي، لو كنتِ في نارنيا لكنتِ سعيدة، ففي تلك البلاد لا تُجبَرُ أيّةُ صبيّة على التزوّج خلافاً لإرادتها».

«وبعدما تحادثنا وقتاً طويلاً وممتعاً، رجع إليّ الأمل، وابتهجتُ لأنّي لم أقتل نفسي. ثمّ إنّه تمّ الإتّفاق بيني وبين هُوِين على أن نتسلّل ونهرب معاً، وخطّطنا لذلك على هذا النحو: رجعنا إلى بيت أبي، حيث لبستُ أبهى ثيابي وغنّيتُ ورقصتُ في حضرة أبي، وتظاهرت بأنّي سعيدة بالزواج الذي رتّبه لي. كذلك أيضاً قلت لأبي: «يا أبي، يا قُرّة عيني، اسمحْ لي من فضلك أن أذهب مع إحدى خادماتي وحدنا لثلاثة أيّام إلى الغابات، لأقدّم الذبائح السرّيّة إلى زاردِيناه -سيّدة الليل والعذارى- كما هو لائق ومُعتاد لدى الصبايا عندما ينبغي أن يودّعن خدمة زاردِيناه ويتهيّأن للزواج». فأجابني: «يا ابنتي وقُرّة عيني، ليكُن لكِ ما أردتِ!»

«ولكنْ لمّا خرجتُ من حضرة أبي، ذهبتُ فوراً إلى أكبر خدّامه سنّاً، وكان أمين سرّه الذي دلّلني ورجّحني على ركبتيه لمّا كنتُ طفلة، وكان يحبُّني أكثر من الهواء والنور، وحلّفتُه بأن يكتم سرّي، ورجوتُه أن يكتب لي رسالة خاصّة. فبكى وتوسّل إليّ كي أُغيّرَ قراري، إلّا أنّه

* هذه أسماء لآلهة في كالورمن.

في النهاية قال: «سمعاً وطاعةً!» ونفّذ كل ما رغبتُ فيه. ثمّ ختمتُ الرسالة وخبّأتُها تحت قميصي».

عندئذٍ سألها شصطي: «ولكنْ ماذا في الرسالة؟»

فقال له بري: «سكوتاً يا صغير! أنت تُفسِد القصّة. إنّها ستخبرنا كلّ شيءٍ يخصّ الرسالة في الوقت المناسب. تابعي حديثك يا طَرقانة!»

فمضت تقول: «ثمّ دعوت الخادمة التي ستذهب معي إلى الغابات لتأدية طقوس زارديناه، وطلبتُ منها أن توقظني باكراً جدّاً في الصباح. ومرحتُ معها وسقيتُها نبيذاً، إلّا أنني دسستُ في كأسها مُنوّماً أعرف أنّه سيجعلها تنام ليلةً ونهاراً. وما إن استولى النوم على أهل بيت أبي، حتّى نهضتُ ولبستُ واحدة من دروع أخي كنتُ أحتفظ بها دائماً في غرفتي تذكاراً له. ودسستُ في حزامي كلّ النقود التي عندي، وبعضَ الجواهر الفاخرة، وتزوّدتُ بالطعام أيضاً، وأسرجتُ الفرس بيديّ هاتين، وخرجتُ راكبةً في الربع الثاني من الليل. وقد توجّهتُ لا إلى الغابات، حيث افترض أبي أنّي ذاهبة، بل شمالاً وشرقاً صوب طشبان.

وعلى مدى ثلاثة أيام وأكثر، كنتُ أعرف أنّ أبي لن يطلبني، إذ خدعته الكلمات التي قلتُها له. وفي اليوم الرابع وصلنا إلى مدينة عظيمبلدة. وعظيمبلدة هذه واقعة عند مُلتقى عدّة طُرق، ومنها ينطلق رجال بريد السُّلطان (عاش إلى الأبد!) على خيولٍ سريعة إلى كلّ ناحية من

الإمبراطوريّة؛ ومن امتيازات الطَّراقِنة المتقدّمين وحقوقهم أن يبعثوا رسائلهم بأيدي أولئك الرجال. ولذا ذهبتُ إلى رئيس السُّعاة في دار البريد الإمبراطوريّ، في عظيمبلدة، وقلتُ له: 'يا باعث الرسائل، هذه رسالة من عمّي آحوشتا الطرقان إلى قدراش الطرقان، سيّد كالافار. إليكَ الآن هذه الأهلّة الخمسة، وابعث بالرسالة إليه.' فقال لي رئيس السُّعاة: 'سمعاً وطاعة!'

لُفّقت هذه الرسالة بحيث تبدو مكتوبةً بيد آحوشتا. وهنا فحوى الرسالة: 'من آحوشتا الطرقان إلى قدراش الطرقان، تحيّةٌ وسلام. باسم طاش، الغلّاب البطّاش! ليكُن معلوماً عندك أنه وأنا مسافرٌ نحو بيتك لتنفيذ عهد الزواج بيني وبين ابنتك آراقيس الطرقانة، سُرّ السّعد والآلهة أن ألتقيها صدفةً في الغابة لدى فراغها من تأدية الطقوس وتقديم الذبائح المختصّة بزارديناه كعادة العذارى. ولمّا علمتُ مَن هي، وقد أذهلني جمالها وعقلُها، اشتعلَت في قلبي نيران الحبّ وبدا لي أنّ الدنيا ستسودّ في عينيّ إن لم أتزوّجها حالاً. وعليه، فقد أعددتُ الذبائح الواجبة، وتزوّجت بابنتك في الساعة التي فيها التقيتُها، ورجعتُ معها إلى بيتي. ونحن كلانا نرجو منك ونأمل أن تأتي إلى هنا بأسرع ما يمكنك حتّى نُسرّ برؤية وجهك وسماع كلامك، وأيضاً حتّى تُحضِر معك مَهر زوجتي هذا الذي، بسبب نفقاتي ومصاريفي الكثيرة، أطالب به بلا تأخير. ولأنّنا أنا وأنت أخوان، أطمئن نفسي بألّا



يُغضِبك إسراعي في الزواج الذي يسُره تماماً الحبُّ الكبير الذي أكنُّه في قلبي لابنتك. والآن، أستودعك لعناية الآلهة أجمعين.'

وما إن فعلتُ ذلك حتّى تابعتُ رحلتي، خارجةً من عظيمبلدة بكلّ سرعة، وأنا لا أخشى أيّة مطاردة وأتوقّع من أبي، حين يتلقّى تلك الرسالة، أن يبعث برسائل إلى آحوشتا أو يذهب إليه بنفسه، وأن أكون قد ابتعدتُ كثيراً عن طشبان قبل اكتشاف أمري. ذلك هو جوهر قصّتي حتّى هذه الليلة بالذات، لمّا طاردتني الأسود والتقيتُكم ونحنُ نسبحُ في المياه المالحة».

وسألها شصطى: «وماذا جرى للفتاة التي سقيتِها المنوِّم؟»

فقالت آرافيس ببرودة: «لا شكّ أنّها ضُربت لتأخُّرها في النوم. ولكنّها كانت أداةً وجاسوسة لزوجة أبي. ويسرُّني كثيراً أن يضربوها».

فقال شصطى: «أعتقد أنّ ذلك ظُلم على الأرجح».

قالت آرافيس: «ما عملتُ شيئاً من تلك الأمور كي أسرّ خاطرك».

وقال شصطى: «وفي القصّة أيضاً شيء آخر لم أفهمه.



فأنت لست راشدة بعد. ولا أظنّ أنّك أكبر منّي سنّاً، كما لا أظنّ أنّك في مثل عمري. فكيف يمكن أن تتزوّجي في سنّك هذه؟»

فلم تقل آرافيس كلمة واحدة، إلّا أنّ بِري قال فوراً: «يا شصطى، لا تكشفْ جهلك. فالبنات دائماً يُزوَّجن في هذه السنّ في عائلات الطراقنة الكبيرة».

احمرّ خدًّا شصطى كثيراً (وإن كان الضوء باهتاً بحيث لا يكاد الآخرون يرون ذلك) وشعر بالإهانة. وطلبت آرافيس من بِري أن يحكي قصّته، فحكاها، واعتقد شصطى أنّه بالغ أكثر من اللازم في وصف السقطات والركوب السيّئ. وكان واضحاً أنّ بِري حسب ذلك أمراً مضحكاً جدّاً. إلّا أنّ آرافيس لم تضحك. ولمّا أنهى بِري قصّته، ناموا كلّهم.

وفي اليوم التالي، انطلق الأربعة جميعاً، الحصانان والبشريّان، مُواصِلين ارتحالهم معاً. وخُيِّل إلى شصطى أنّ الأمور كانت أكثر إمتاعاً لمّا كان هو وبِري وحدهما. فإنّ بِري وآرافيس الآن كانا مَن يتحدّثان دائماً تقريباً. وكان بِري قد عاش زمناً طويلاً في كالورمِن وأمضى معظم

أوقاته بين الطراقنة وأحصنتهم، ولذلك كان بالطبع يعرف الكثير الكثير من الناس والأماكن التي تعرفها آراڤيس. فكانت دائماً تقول أقوالاً مثل: «ولكنّك لو كنتَ في معركة زولينديريه لقابلت ابنَ عمّي، آليماش»، فيجيب بري: «أوه، أعرف آليماش! فقد كان قائد مركباتٍ. وأنا لا أرافق كثيراً المركبات ولا تلك الأحصنة التي تجرّ المركبات. فليست هذه هي الفروسيّة الحقيقيّة. غير أنّه نبيلٌ محترم. فقد ملأ مخلاتي* بالسُكّر بعد الاستيلاء على مدينة طيبيث». أو قد يقول بري: «كنتُ عند بحيرة مِزريل ذلك الصيف»، فتقول آراڤيس: «أوه، مِزريل! كانت لي هناك صديقة اسمُها لاسارالين الطرقانة. يا له من مكان بهيج! ما أجمل بساتينه ووادي الألف عطر فيه!» ولم يكن بري، ولو بالحدّ الأدنى، يحاول استثناء شصطى من الأحاديث، مع أنّ شصطى كاد يشعر بذلك أحياناً. فالذين يعرفون الكثير عن الأمور نفسها لا يكادون يقدرون على عدم التحدُّث عنها، ولو كنتَ هناك لم يكن يمكنك تقريباً ألّا تشعر بأنّك مُستثنىً منها.

وقد كانت هُوين بالحريّ خَجِلة قدّام جوادٍ حربيّ مثل بري، فلم تقل إلّا كلاماً قليلاً جداً. ولم تكن آراڤيس لتتحدّث إلى شصطى قطّ لو قدرت.

على أنّهم سرعان ما واجهوا أموراً أهمّ ينبغي التفكير

*المخلاة: كيس يوضع فيه العلف ويعلّق في عُنق الدابّة.

فيها. فقد كانوا يقتربون من طشبان. وصار هنالك قُرىً أكثرُ وأكبر، وناسٌ على الطرقات أكثر. فباتوا الآن يقومون بمعظم ارتحالهم في الليل، ويختبئون كأفضل ما يستطيعون في النهار. وعند كلّ محطّة كانوا يتجادلون كثيراً بشأن ما يجب أن يفعلوه عندما يصلون إلى طشبان. فكان كلّ واحدٍ منهم يؤجّل مواجهة هذه الصعوبة، إلّا أنّهم الآن باتوا غير قادرين على مزيدٍ من التأجيل بعد. وفي أثناء تلك المجادلات أصبحت آراڤيس تُبدي لشصطى شيئاً قليلاً جداً من المودّة. والمرء عادةً تتحسّن علاقته بالآخرين عند رسم الخطط أفضل ممّا يكون عند التحدُّث في أُمور كثيرة دون موضوع محدّد.

وقال بري إنّ أوّل شيء عليهم أن يعملوه الآن هو تعيين مكان يتواعدون جميعاً على التلاقي فيه عند الطرف الأقصى من طشبان، لو فرّقهم سوء الحظّ وهم يجتازون المدينة. كما قال لهم إنّ أفضل مكان للتلاقي سيكون مقابر الملوك القدامى على حافة الصحراء تماماً. وأضاف: «هنالك أشياءُ مثل خلايا النحل الحجريّة الكبيرة لا يمكن إلّا أن تجدوها. وأفضل ما في الأمر أنّ أيّ واحد من أهل كالورمِن لن يقترب إليها لأنّهم يعتقدون أن ذلك المكان تسكنه الغِيلان، ويخافون منه». وسألت آراڤيس عن كونه بالحقيقة مسكوناً بالغيلان. غير أنّ بري قال إنّه حصان حرٌّ من نارنيا ولا يؤمن بخرافات كالورمِن. ثمّ قال شصطى إنّه هو أيضاً ليس من كالورمِن ولا تهمّه أبداً تلك الحكايات

القديمة عن الغيلان. إلّا أنّ هذا لم يكن صحيحاً تماماً. ولكنّه بالأحرى ترك انطباعاً حسناً عند آرافيس (مع أنّه أزعجها أيضاً في ذلك الحين)، فقالت بالطبع إنّها لا تهتمّ هي بالغِيلان مهما كان عددها. وهكذا قرّ الرأيُ على أن تكون تلك القبور مكان تلاقيهم عند طرف طشبان الآخر، وشعر الجميع بأنّ الأمور تسير على خير ما يريدون، إلى أن قالت هُوِين بتواضع إنّ المشكلة الحقيقيّة ليست في المكان الذي يجب أن يذهبوا إليه بعد اجتيازهم طشبان بل في كيفيّة اجتيازهم لها.

فأجاب بِري: «سنرتّب هذا الأمر غداً. فقد حان الآن وقت قليلٍ من النوم».

ولكنّ ترتيب الأمر لم يكن سهلاً. فقد اقترحت آرافيس أوّلاً أنّ عليهم أن يسبحوا عبر النهر تحت المدينة ليلاً ولا يدخلوا طشبان أبداً. غير أنّ بِري عرض سببين ضدّ هذا الاقتراح. أمّا السبب الأوّل فهو أنّ مصبّ النهر عريض جداً بحيث تكون المسافة أطول بكثير من أن تعبرها هُوِين سباحةً وعلى ظهرها آرافيس. (وقد حسب أنّها أطول أيضاً من أن يعبرها هو، إلّا أنّه لم يأتِ على ذِكر ذلك.) وأمّا السبب الثاني فهو أنّ النهر يكون زاخراً بالسُفن، وأنّ أيّ واحدٍ على متن إحدى السفن يرى حصانين يعبران المصبّ سباحةً لا بدّ أن يثور فضوله على الأرجح.

وفكّر شصطى أنّ عليهم أن يصعدوا إلى النهر فوق طشبان ويعبروه حيث يكون أضيق. ولكنّ بِري شرح له

أنّ على ضفّتي النهر كلتيهما بساتين وقصوراً فاخرة على مسافة كيلومترات، وأنّ كثيراً من الطّراقنة والطّرقانات يسكنون هناك ويجتازون الطرقات راكبين، ويُقيمون حفلاتِ لهوٍ وسباحة على النهر وفيه. وبالحقيقة أنّ ذلك المكان سيكون أرجح مكان في الدنيا لالتقاء شخصٍ يعرف آرافيس أو يتعرّف به هو أيضاً.

فقال شصطى: «سنُضطرّ إلى التنكّر إذاً».

وقالت هُوِين إنّه يبدو لها أنّ السبيل الأكثر أمناً وسلامةً هو عبورهم المدينة مباشرةً من البوّابة إلى البوّابة، لأنّ فُرَص ملاحظة المرء وسط الزحام ضئيلة جداً. إلّا أنّها أيضاً استحسنت فكرة التنكّر. وقالت: «على البشريّين كليهما أن يلبسا ثياباً رثّة حتّى يظهرا بمظهر الفلّاحين أو العبيد. أمّا سلاح آرافيس وسَرجانا وعُدّتنا كلّها فيجب أن تُصرّ وتُحزم وتُحمّل على ظهرَينا، فيما يتظاهر الولدان أنّهما إنّما يسوقاننا، فيظنّ الناس أنّنا مجرّد دابّتين للتحميل».

فقالت آرافيس بلهجة أقرب إلى الاستهزاء: «يا عزيزتي هُوِين! هل يمكن أن يُخطئ أحد بأن يحسب بِري شيء غير جواد حرب، مهما نكّرناه؟»

فقال بِري: «أظنّ أن ذلك غير ممكن»، وهو يشخر ويُرجع أُذنيه إلى الوراء بكلّ بطء.

وقالت هُوِين: «أعرف أنّ هذه الخطّة ليست جيّدة جداً. ولكنّني أعتقد أنّها فرصتنا الوحيدة. ثُمّ إنّنا لم نعتنِ بهندامنا من زمان طويل، ونحن لسنا على طبيعتنا وشكلنا

المعتادين (أنا على الأقل بكلّ تأكيد). وإنّي لأعتقد أنّنا إذا تلطّخنا بالوحل جيّداً وسرنا في المدينة مُدلّيين رأسينا وكأنّنا مُتعَبان أو كسولان، ولم نرفعْ حوافرنا بشدّةٍ بتاتاً، فرُبّما لا يلاحظنا أحد. وينبغي أن يُقصَّ ذيلانا أقصر ممّا هما، لا بترتيبٍ كما تعلمون، بل كيفما كان».

فقال بِري: «يا سيّدتي العزيزة، هل تصوّرت كم يكون كريهاً أن نصل إلى نارنيا ونحن في هذه الحالة المُزرية؟»

وقالت هُوِين بتواضع (إذ كانت فرساً عاقلةً جدّاً): «حسناً، إنّ الأمر المهم هو أن نصل إلى هناك!»

أخيراً، تمّ اعتماد خُطّة هُوِين، وإن لم تعجبهم كلّهم كثيراً. وقد كانت خطّة مُتعِبة، وتضمّنت مقداراً ممّا دعاه شصطى «سرقة»، فيما دعاه بِري «غنيمة حرب». في ذلك المساء فقدت إحدى المزارع بضعة أكياس خيش، وفي مساء اليوم التالي فقدت مزرعةٌ أخرى لفّة حبال. إنّما كان لا بدّ من شراء بعض الثياب الصبيانيّة العتيقة من إحدى القُرى، كي تلبسها أرافيس. فعاد بها شصطى ظافراً عند العِشاء، قُبيل حلول المساء. وقد انتظره الآخرون بين الأشجار عند سفح سلسلة منخفضة من التلال ذات الغابات على مقربة من الطريق. وشعر الجميع بالتأثّر لأنّ تلك كانت آخِر تلّة، فحين يصلون إلى القمّة يُشرِفون على طشبان من فوق.

وغمغم شصطى لِهُوِين: «أتمنّى حقّاً لو نتجاوزها بأمان!»

فقالت هِوين بحماسة: «أوه، أتمنّى هذا فعلاً!»

وفي تلك الليلة شقّوا طريقهم بتعرّج بين الغابات نحو أعلى السلسلة سالكين درب حطّابين. ولمّا خرجوا من الغابة عند القمّة، استطاعوا أن يروا آلاف الأنوار في الوادي تحتهم. ولم يكن عند شصطى أيّ فكرة عن هيئة المدينة الكبيرة، فروّعَهُ المنظر. ثمّ تناولوا عشاءهم ونام الولدان قليلاً. غير أنّ الحصانين أيقظاهما في الصباح باكراً جدّاً.

كانت النجوم ما تزال طالعة، والعشب باردٌ ورطب إلى أقصى حدّ، ولكنّ الفجر كان قد بدأ يبزغ في البعيد إلى اليمين ما وراء البحر. فابتعدت أرافيس بضع خطوات إلى الغابة، ورجعت غريبة المنظر بثيابها الرثّة الجديدة، حاملةً ثيابها الأصليّة في صُرّة. ثمّ وُضعت هذه في الأكياس، مع درعها وخوذتها وسيفها المعقوف، وسرجَي الحصانين وباقي عُدّتهما الجميلة. وكان بِري وهُوِين قد مرّغا أنفسهما بالوحل واتّسخا بقدر ما استطاعا، فبقي أن يُقَصَّر ذيلاهما. وبما أنّ الأداة الوحيدة للقيام بذلك كانت سيف أرافيس الأحدب، وجب فكّ إحدى الحُزَم لإخراجه، وكان ذلك عملاً استغرق طويلاً بعض الشيء، وقد آلم الحصانَين فعلاً.

وقال بِري: «أُقسِم أني لو لم أكن حصاناً ناطقاً، لرفستُكِ في وجهكِ رفسةً لا تُنسى! ظننتُ أنّكِ ستقصّين شعر ذيلي، لا تقلعينه قلعاً. فهذا ما شعرتُ به حقّاً!»

ولكن على الرغم من الظلام الجزئيّ والأصابع الباردة، تمّ العمل كلّه أخيراً، إذ حُزّمت الأكياس الكبيرة على الحصانين، وأمسك الولدان بأيديهما رَسَني الحبال (اللذين شُدّا على الحصانين بدلاً من الزّمامَين واللجامَين)، وابتدأت الرحلة.

ثمّ قال بري: «تذكّروا أن نبقى بعضنا مع بعض بقَدر الإمكان. وإلّا، فلنتلاقَ عند مقابر الملوك القدامى. ومَن يصل إلى هناك أوّلاً، ينتظر الباقين».

وقال شصطى: «وتذكّرا أنتما، أيُّها الحصانان، ألّا تنسيا نفسَيكما وتبدأا تتكلّمان، مهما حدث!»

الفصل الرابع

شصطى يُصادِف أهل نارنيا ويرافقهم

لم يقدر شصطى أوّلاً أن يرى في الوادي تحته سوى بحرٍ من الضباب تطلع منه بعضُ القُبَب والأبراج. ولكنْ كلّما تزايد النور وانقشع الضباب، رأى أكثر فأكثر. فإذا هنالك نهرٌ عريض ينقسم في مجريَين، وعلى الجزيرة بينهما قامت مدينة طشبان، إحدى عجائب الدنيا. وحول حافة الجزيرة بالذات، بحيث تُلاطِم المياه الحجارة، قامت أسوارٌ عالية معزّزة بقلاع كثيرة سرعان ما يكلّ المرء من عدّها. وداخل الأسوار ترتفع الجزيرة في تلّة كلّ جزءٍ منها صعوداً حتّى قصر السُّلطان ومعبد طاش الكبير على القمّة، مُغطّىً بالمباني: سطيحة فوق سطيحة، وشارع بعد شارع، وطرق متعرّجة أو أدراج طويلة، تحفُّ بها أشجار البرتقال والليمون، والحدائق المعلّقة، وشرفات الرماية، والممرّات المقنطرة المنخفضة، وصفوف الأعمدة، والأبراج المستدقّة، والشرفات المُفرَّجة، والمنائر، والأبراج العادية. وعندما

طلعت الشمس أخيراً من البحر، وعكست قبّةُ المعبد الكبيرة المغشّاة بالفضّة نورَها المتألّق، كاد شصطى ينبهر.

وظلّ بِري يقول: «هيّا، يا شصطى!»

وقد كان على ضفاف النهر، إلى كِلا جانبي الوادي، كثيرٌ من البساتين الكثيفة بحيث تبدو أوّل وهلة مثل الغابة، حتّى تقترب إليها أكثر فترى الحيطان البيضاء للبيوت التي لا تُحصى تُوصوِص من وراء الأشجار. وبعد ذلك بقليل، تنبّه شصطى إلى رائحة طيّبة فائحة من الأزهار والأثمار. ثمّ بعد نحو رُبع ساعة وصلوا إلى وسطها، وأخذوا يمشون على مهل في طريقٍ مستوية، على كِلا جانبَيها حيطانٌ بيضاء وأشجار تنحني أغصانها من فوق الحيطان.



وقال شصطى: «عجباً، هذا المكان رائع!»

فقال بِري: «صحيح، ولكنّي أتمنّى لو اجتزناه بأمان وعبرناه إلى الناحية الأخرى، حيث نارنيا والشمال!»

تلك اللحظة انطلق صوتٌ خافتٌ نابض أخذ يتعالى

شيئاً فشيئاً، حتّى بدا أنّ الوادي كلّه يتمايل معه. كان صوتاً موسيقيّاً لكنْ كثيرَ القوّة والفخامة، بحيث بدا مخيفاً بعض الشيء.

وقال بِري: «ذلك صوت نفخ الأبواق لفتح أبواب المدينة. سنصل إلى هناك بعد دقيقة. فالآن، يا آراڤيس، هلا تخفضين كتفيكِ قليلاً وتجعلين خطواتك أثقل وتحاولين ألاّ تظهري بمظهر أميرة. حاولي أن تتصوّري أنّك تعرّضتِ للرفس والصفع والشتم طول عمرك».

فقالت آراڤيس: «إن كان هكذا، فلماذا لا تخفض أنت رأسك قليلاً بعد، وتُخفّف من تقويس رقبتك أيضاً، محاولاً ألا تظهر بمظهر جواد حربيّ؟»

أجاب بِري: «صه! ها قد وصلنا».

وكانوا قد وصلوا فعلاً. إذ بلغوا حافة النهر وقد امتدّت الطريق قدّامهم على جسر طويل تحمله قناطر كثيرة، وتراقصت المياه متلألئةً تحت ضوء الشمس الباكر. وإلى اليمين في البعيد، على مقربة من مصبّ النهر، لاحت لهم صواري السفن. وكان قد سبقهم إلى الجسر بضعة مسافرين آخرين، معظمهم فلاّحون يسوقون حميراً وبغالاً محمّلة، أو يحملون سلالاً على رؤوسهم.

وهكذا انضمّ الولدان والحصانان إلى ذلك الجمع.

وبدت على وجه آراڤيس نظرات استغراب، فهمس شصطى يسألها: «هل من مشكلة؟»

فهمست آراڤيس همساً تغلب عليه الشراسة: «كلّ

شيءٍ بخير بالنسبةِ إليك أنت. فماذا يعنيك من أمر طشبان؟ أمّا أنا فكان ينبغي أن أعبرها محمولةً على محفّةٍ*، يتقدّمني جنود ويلحقني عبيد، ربّما في طريقي إلى وليمة في قصر السُلطان (عاش إلى الأبد!)، لا متسلّلةً هكذا. إنّما الأمر يختلف بالنسبة إليك».

وحسب شصطى ذلك كلّه تافهاً جدّاً.

ثمّ عند نهاية الجسر الأخرى ارتفعت فوقهما أسوار المدينة عاليةً جدّاً، وانفتحت الأبواب النحاسيّة على وسعها في المدخل الذي كان واسعاً فعلاً لكنّه بدا ضيّقاً لأنّ سقفه كان عالياً جدّاً. وقد وقف ستّة جنود إلى كلٍّ من الجانبين، متّكئين على رماحهم. فلم تقدر آراڤيس منع نفسها عن التفكير: «لو عرفوا ابنةَ مَن أنا، لتأهّبوا وحيّوني!» أمّا الآخرون فإنّما كانوا يفكّرون في كيفيّة عبور المدينة، آملين ألّا يسألهم الجنود أيّة أسئلة. ومن الخير أنّهم لم يسألوا. ولكنّ واحداً منهم التقط جزرة من سلّ فلّاح ورماها على شصطى قائلاً بضحكة خشنة:

«هاي! يا صبيَّ الخيل! سوف تلقى عقابك إذا عرف سيّدك أنّك استخدمتَ جواد ركوبه في تحميل البضاعة».

فخوّفه ذلك كثيراً، لأنّه بيّن بالطبع أنّ أيَّ شخص يعرف شيئاً عن الأحصنة لن يحسب بِري أيَّ شيءٍ آخر غير فرس قتال. لكنّه قال:

* المحفّة: نقالة يُحمَل عليها شخصٌ مهم على أكتاف العبيد.

«هذه أوامر سيّدي، فما شأنك بي؟»

إنّما كان خيراً له لو ضبط لسانه، لأنّ الجنديّ لكمه على جانب وجهه لكمةً كادت توقعه أرضاً، وقال له: «خُذ هذه، أيّها القذِر الصغير، حتّى تتعلّم كيف تُكلّم رجلاً حرّاً!» إلّا أنّهم جميعاً انسلّوا داخل المدينة دون أن يوقفهم أحد. ولم يبْكِ شصطى إلّا قليلاً جدّاً، إذ كان معتاداً الضربات العنيفة.

ولم تبدُ طشبان من داخل الأبواب في بادئ الأمر فاخرةً كما بدت من بُعد. فقد كان أوّل شارع ضيّقاً، ولم يكن يظهر في الحيطان إلى كِلا جانبيه شبّاك واحد. وكانت المدينة أكثر ازدحاماً ممّا توقّع شصطى، إذ ازدحمت بعض الشيء بالفلّاحين الذين دخلوا المدينةَ معَهُم (في طريقهم إلى السوق)، إنّما أيضاً ببيّاعي الماء والحلوى، والعتّالين والشحّاذين، والأولاد المُهمَلين، والدجاج، والكلاب الشاردة، والعبيد الحُفاة. وما كنتَ تلاحظه خصوصاً، لو كنتَ هناك، كان الروائح المنبعثة من الناس غير المستحمّين والكلاب غير المغسّلة، والعرَق، والثوم والبصل، وأكوام النفايات المطروحة في كلّ مكان.

وكان شصطى يتظاهر بأنّه القائد، ولكنّ القائد كان في الحقيقة بري، فإنّه كان يعرف الطريق وظلّ يوجّه شصطى بوكزات خفيفة من أنفه. وسرعان ما انعطفوا يساراً وأخذوا يصعدون تلاً شديد الانحدار. فغدا الجوّ أكثر إنعاشاً وإبهاجاً، إذ ارتفعت الأشجار على حافتي الطريق

ولم يكن من بيوت إلّا إلى الجانب الأيمن. ومن الجانب الآخر أشرفوا على سطوح البيوت في الجزء السفلي من المدينة، واستطاعوا أن يروا طريقاً ما صاعداً بمحاذاة النهر. ثمّ انعطفوا على مُنعطَفٍ حادٍّ إلى يمينهم وتابعوا الصعود. وأخذوا يصعدون على طريق متعرّج إلى وسط طشبان. وبعد قليل وصلوا إلى شوارع أحسن، حيث نُصِبت على قواعد متألّقة تماثيل كبيرة لآلهة كالورمِن وأبطالها الذين كان النظر إليهم مثيراً للإعجاب على الأغلب أكثر من كونه ممتعاً. وقد ألقت أشجار النخيل والممرّاتُ المُقنطرة فوق الأعمدة ظلالاً لطيفة على الأرصفة اللاهبة. ومن خلال المداخل المُقنطرة المؤدّية إلى قصور عديدة، لمح شصطى أغصاناً خضراء وعيونَ ماء باردةً ومروجاً ناعمة. ففكّر أنّ الحياة في الداخل لا بدّ أن تكون ممتعة.

وكان شصطى يأمل عند كلّ منعطف أن يخرجوا من بين الجموع، ولكنّهم لم يخرجوا قطّ، ممّا جعل تقدّمهم بطيئاً جدّاً، واضطرّهم إلى التوقّف تماماً من حينٍ إلى آخر. وقد حدث ذلك عادةً لأنّ صوتاً عالياً كان ينادي: «طريق، طريق، طريق، لأجل الطرقان»، أو «لأجل الطرقانة»، أو «للوزير الخامس عشر»، أو «للسفير»، فيندفع كلّ من في الجمع متراجعاً نحو الحيطان. وكان شصطى أحياناً يرى فوق الرؤوس السيّدة العظيمة أو السيّد العظيم الذي من أجله يحدث كلّ ذلك الهرج والمرج، متراخياً فوق محفّةٍ يحملها أربعةٌ –أو ستّةٌ– من العبيد الضخام على أكتافهم

العارية. ذلك أنّ في طشبان قانونَ سير واحداً فقط، ألا وهو أنّ كلّ من هو أقلُّ أهميّةً عليه أن يزيح من الطريق لأيّ شخصٍ أكثر أهميّة؛ إلّا إذا شئت أن تتلقّى ضربة سوط جارحة أو ضربة عنيفةً بكعب رمح!

وقد صدف في شارعٍ فاخر قريب جدّاً من أعلى المدينة (لم يكن فوقه شيءٌ إلّا قصر السُلطان) أن حصل أكثر تلك التوقّفات شؤماً.

انطلق الصوت ينادي: «طريق! طريق! طريق! طريق للملك البربري الأبيض، ضيفِ السلطان (عاش إلى الأبد!) طريقٌ لسادة نارنيا!»

وحاول شصطى أن يبتعد من الطريق وأن يجعل بِري يتراجع. ولكنّ ما من حصان، ولو حصاناً ناطقاً من نارنيا، يتراجع بسهولة. وإذا بامرأة تحمل بيديها سلاً نافر الجوانب كثيراً، وقد كانت وراء شصطى تماماً، تدفع السلّ بقوّة على كتفيه قائلةً: «هاي، أنتَ! مَن تدفع؟» ثمّ صدمه شخص آخر في جنبه، وفي ارتباك تلك اللحظة أفلت بِري من يده. وعندئذٍ صار الحشد كلّه من خلفه جامداً ومحشوراً جدّاً بحيث لم يعد يقدر أن يتحرّك. وهكذا وجد نفسه، على غير قصدٍ منه، في الصفّ الأماميّ، واستطاع أن يرى جيّداً الموكبَ النازل في الشارع.

كان ذلك الموكب يختلف عن أيّ موكب آخر شاهدوه ذلك اليوم. فالمنادي الذي تقدّمه صائحاً: «طريق! طريق!» كان وحده من أهل كالورمِن. ولم تكن هناك أيّة محفّة،

بل كان الجميع يسيرون على الأقدام. وكان هنالك نحو ستّة رجال لم يرَ شصطى مثلهم من قبل. فقد كانوا كلُّهم بيض البشرة مثله، وأغلبهم شُقر الشعر. ولم يكونوا لابسين مثل لباس أهل كالورمِن. وكانت أرجل معظمهم مكشوفة حتّى الركبتين، وقمصانهم ذات ألوان صارخة جميلة برّاقة: أخضر حشيشيّ، أو أصفر وهّاج، أو أزرق سماويّ. وبدل العمائم، كانوا معتمرين قُبّعات فولاذيّة أو فضيّة، بعضها مرصّعة بالجواهر، وإحداها ذات أجنحة صغيرة إلى الجانبين. وكان بعضهم مكشوفي الرؤوس. أما السيوف المُدلاة عند خصورهم فكانت طويلة ومستقيمة، لا معقوفة كسيوف كالورمِن الحدباء. وبدل أن يكونوا ذوي وقار وغموض كمعظم أهل كالورمِن، كانوا يمشون متمايلين وهم يُراوِحون بأذرعهم ويحرّكون أكتافهم، ويتحادثون ويضحكون، وكان أحدهم يُصفّر. وكنتَ تقدر أن ترى أنّهم مستعدّون لمصادقة أيّ مَن يصادقهم، وتجاهُل مَن لا يُبدي لهم المودّة. وفكّر شصطى أنّه لم يرَ في حياته قطّ منظراً ممتعاً مثل ذلك.

ولكنْ لم يتّسع الوقت للتمتّع بذلك، لأنّ أمراً مروّعاً بالفعل حدث في الحال. فإنّ قائد الرجال الشُقر أشار بيده فجأةً نحو شصطى وصاح: «ها هو هناك! ها هو الهارب الذي نبحث عنه!» ثمّ تقدّم وأمسك به من كتفه. وفي اللحظة التالية صفعه صفعةً قويّة (لا صفعةً قاسية تجعلك تبكي، بل صفعة حادّة تجعلك تشعر بالعار) ثمّ أضاف وهو يهزّه هزّاً:

«عليك العار، يا سيّدي! يا لخزيك وعارك! إنّ عيني الملكة سوزان محمرّتان من البكاء بسببك. عجباً! أتغيب الليل كلّه؟ أين كنت؟»

كان من شأن شصطى أن يمر من تحت جسم بري ويحاول أن يختفي بين الجموع، لو أُتيحت له أدنى فرصة. ولكنّ جميع الرجال الشقر كانوا قد أحاطوا به وأمسكوا به بإحكام.

وبالطبع، كانت ردّة فعله الأولى أن يقول لهم إنّه ليس إلّا ابن الصيّاد الفقير أرشيش، وإنّ السيّد الأجنبيّ لا بدّ أن يكون قد حسبه شخصاً آخر بالغلط. ولكن آخر شيء أراد أن يفعله في ذلك المكان المزدحم هو أن يبدأ يشرح مَن هو وماذا كان يفعل. فلو بدأ ذلك، لسُئل سريعاً من أين جلب حصانه، ومَن هي آراڤيس، وعندئذٍ وداعاً لأيّة فرصة بالخروج من طشبان. ثمّ كانت ردّة فعله الثانية أن يطلب المساعدة من بري. ولكنْ لم يكن بري ناوياً أن يدع الجموع تعرف أنّه يقدر أن يتكلّم، فظلّ واقفاً وهو يظهر بمظهر أيّ حصانٍ غبيّ. أمّا آراڤيس، فلم يستجرىء شصطى حتّى أن ينظر صوبها، خوفاً من لفت الانتباه إليها. ولم يكن هنالك متّسع من الوقت للتفكير، لأنّ قائد أهل نارنيا أولئك قال في الحال:

«أمسِك بإحدى يَدَي سيّدنا الصغير، يا بريدان، لو سمحتَ، وأنا أُمسِك بيده الأخرى. والآن، هيّا بنا! إنّ

خاطر أُختنا الملوكيّ سيهدأ كثيراً عندما ترى نَذْلنا الصغير آمِناً في محلّ إقامتنا».

وهكذا، فقبل أن يقطع المسافرون المتنكّرون نصف الطريق داخل طشبان، تبدّدت كلُّ خططهم، وبغير أن تُتاح لشصطى حتّى فرصةٌ لتوديع الآخرين وجد نفسه مُكرهاً على السير بين غرباء وعاجزاً تماماً عن أن يحزر ماذا يمكن أن يحدث تالياً. أمّا ملك نارنيا (وقد عرف شصطى من طريقة مخاطبة الآخرين له أنّه لا بدّ أن يكون الملك)، فقد ظلّ يطرح عليه الأسئلة: أين كان، وكيف خرج، وماذا فعل بثيابه، وهل فاته أن يعرف أنّه كان رديئاً للغاية؟ وكان الملك وحده يقول «رديئاً» بدل «رديّاً».

ولكنّ شصطى لم يُجب بشيء، لأنّه لم يقدِر أن يفكّر بأيّ شيء يقوله ولا يكون خَطِراً.

ثمّ عاد الملك يقول: «ماذا؟ لا شيء سوى السكوت! عليّ أن أقول لك بصراحة، يا أمير، إنّ سكوت المُذنِب هذا يليق بواحدٍ من سلالتك أقلّ مما يليق الهرب نفسه. فالهروب قد يجوز من صبيٍّ يمرح، ويكون فيه شيء من المتعة. ولكنّ ابن ملك بلاد آرخيا يجب أن يُقِرّ بفعلته، لا أن يُدلّي رأسه كعبدٍ في كالورمن».

وقد كان ذلك مُزعِجاً ومربكاً جدّاً، لأنّ شصطى شعر طوال الوقت أنّ هذا الملك الشابّ هو أحسن صنفٍ من الراشدين حقّاً، وكان يتمنّى لو يقدر أن يترك لديه انطباعاً حسناً.

ومضى به أولئك الغرباء، مُمسكاً بإحكام بكلتا يديه، على طول شارع ضيّق، فنزولاً على دَرَج قصير، ثمّ صعوداً على دَرَج آخر، إلى مدخلٍ واسع في حائط أبيض، على كِلا جانبيه شجرة سرو غبراء. وما إن عبروا القنطرة، حتّى وجد شصطى نفسه في ساحةٍ كانت حديقةً أيضاً؛ وفي وسطها بِركة رخاميّة فيها ماءٌ صافٍ يتموّج باستمرار إذ تصبُّ فيه عينٌ متدفّقة. وكان حواليها أشجار برتقال تحتها عشبٌ ناعم، كما كانت الحيطان البيضاء الأربعة المحيطة بالمرجة مغطّاة بالورد المُعترِش. وفجأةً بدا ضجيج الشوارع، وغبارها وزحامها، بعيداً جدّاً. وقد مضَوا به بسرعة عبر الحديقة ثمّ إلى مدخل مظلم، حيث بقي المُنادي في الخارج. وبعد ذلك مضوا به إلى ممرّ أراحت أرضه الحجريّة الباردة قدميه الساخنتين، ثم صعدوا بعض الأدراج. وما هي إلّا لحظة حتّى وجد نفسه، وعيناه تطرفان، في ضوء غرفة كبيرة يملأُها النسيم، ذات نوافذ مفتوحة على وسعها وكلّها باتّجاه الشمال بحيث لا يدخل نور الشمس. وكان على الأرض سجّادة ذات ألوان عجيبة لم يرَ مثلها قبلاً، غارت فيها قدماه كما لو كانتا تدوسان عشباً ناعماً كثيفاً. وبلِزْقِ حيطان الغرفة الأربعة كانت أرائك خفيضة عليها وسائد فاخرة، وبدت الغرفة مليئة بالناس؛ وبعضهم غريبو المنظر للغاية، كما تصوّر شصطى. ولكنْ لم يتّسع له الوقت كي يفكّر في ذلك قبل أن تقوم من مقعدها أجمل سيّدة رآها في حياته، وتطوّقه بذراعيها، وتعانقه قائلة:

«آه يا كورين، كيف قدرتَ أن تفعل ذلك؟ مع أنّنا أنا وأنت صديقان ودودان منذ توفّيت أمّك! وماذا كان يسعُني أن أقول لجلالة أبيك لو رجعتُ إلى الديار بلاك؟ ألم يكن ممكناً أن ينشأ تقريباً سببٌ للحرب بين بلاد آرخيا ونارنيا الصديقتين من قديم الزمان؟ كان رديئاً منك، يا رفيق اللعب، رديئاً جداً أن تشغل بالنا هكذا».

وفكّر شصطى: «الظاهر أنّهم يحسبونني بالغلط واحداً من أمراء بلاد آرخيا، كائنةً أينما كانت. ولا بدّ أن يكون هؤلاء من أهل نارنيا. تُرى، أين كورين الحقيقيّ؟» غير أنّ هذه الأفكار لم تسعفه بأن يقول أيّ شيء بصوتٍ عالٍ.

ثمّ قالت السيّدة ويداها ما تزالان على كتفي شصطى: «أين كنتَ، يا كورين؟»

فقال شصطى متلعثماً: «لا ... لا أعرف».

وقال الملك: «هذا هو الواقع، يا سوزان. ما قدرتُ أن أحصل منه على أي خبر، صحيحاً كان أو كاذباً».

عندئذٍ سُمع صوت يقول: «يا صاحبَي الجلالة، الملكة سوزان، والملك إدمون». ولمّا التفت شصطى لينظر المتكلّم، كاد قلبه يقفز خارج صدره من المفاجأة. فقد كان هذا واحداً من أولئك الأشخاص الغريبي المنظر الذين لاحظهم من طرف عينه لمّا دخل الغرفة أوّلاً. كان طوله بطول شصطى نفسه تقريباً. ومن الخصر فما فوق، كان مثل الإنسان؛ ولكنّ رجليه كانتا مكسوّتين بالشعر

الكثيف كأرجل المعزاة، وشكلهما كشكل تلك، وله ظِلفا معزاة وذنب. وكان جلده مائلاً إلى اللون الأحمر، وله شعر جعْد، ولحيةٌ قصيرة مُدبّبة، وقرنان صغيران. وقد كان ذلك بالحقيقة فُوناً، وهو مخلوق لم يكن شصطى قطّ قد رأى صورة له، ولا سمع به أيضاً. وإن كنتَ قد قرأتَ الكتاب المسمّى «الأسد والساحرة وخزانة الملابس» فربّما رغبتَ في أن تعرف أنّ هذا هو الفون نفسُه المدعوُّ طمنوس، والذي قابلته لوسي أختُ الملكة سوزان في أوّل يوم ذهبت فيه إلى نارنيا. ولكنّه قد صار الآن أكبر سنّاً بمقدارٍ لا بأس به، لأنّه في ذلك الحين كان بطرس وسوزان وإدمون ولوسي ما يزالون مَلكين وملكتين في نارنيا منذ عدّة سنين.

وقد سُمع الفون يقول: «يا صاحبَي الجلالة، إنّ سموّ الأمير الصغير مصاب بضربة شمس. انظرا إليه! إنّه دائخ، ولا يعرف أين هو».

عندئذٍ كفّ الجميع طبعاً عن توبيخ شصطى وطرح الأسئلة عليه. واهتمّوا به اهتماماً فائقاً، فمدّدوه على أريكة، ووضعوا مخدّة تحت رأسه، وسقَوه شراباً مثلّجاً في كأسٍ من ذهب، وطلبوا إليه أن يبقى هادئاً.

لم يسبق أن حدث لشصطى في حياته أيُّ شيء مثل هذا. حتّى إنّه ما حلم قطُّ بأن ينام على أيّ شيء مريح كتلك الأريكة، ولا بأن يشرب شيئاً لذيذاً كذلك الشراب. وكان ما يزال يتساءل عمّا حدث للباقين، وكيف

يمكنه أن يهرب ليُلاقيهم عند القبور، وماذا سيجري عندما يظهر كورين الحقيقيُّ من جديد. ولكنَّ أيّاً من هذه الهموم لم يبدُ مُلحاً الآن ما دام متمتّعاً بالراحة. ثمّ إنّه ربّما قُدّمت إليه في ما بعد أطايبُ يأكلها!

وفي تلك الأثناء أثار اهتمامَه كثيراً الموجودون في تلك الغرفة الباردة المُهوّاة. ففضلاً عن الفون، كان هنالك قزمان (مخلوقان لم يرَ قطُّ من نوعهما قبلاً)، وغرابٌ كبير جداً. أمّا الباقون فكانوا كلُّهم من البشر، وهم راشدون لكنْ بحيوية الشباب، وكلُّهم -رجالاً ونساءً على السواء- ذوو وجوه وأصوات أجمل من وجوه معظم أهل كالورمِن وأصواتهم. وسرعان ما وجد شصطى نفسه مهتمّاً بحديثهم.

فقد كان الملك يقول لسوزان الملكة (السيّدة التي عانقت شصطى وقبّلتْهُ): «والآن، يا سيّدتي ماذا تعتقدين؟ قد مضى على وجودنا في هذه المدينة ثلاثة أسابيع تماماً. فهل قرّرتِ أن تتزوّجي من حبيبك هذا القاتم الوجه، هذا الأمير راباداش، أم لا؟»



فهزّت السيّدة رأسها قائلة: «لا، يا أخي، ولو أعطاني كلَّ ما في طشبان من جواهر». (وهُنا فكّر شصطى برأسه: «عجباً، مع أنّهما ملك وملكة، فهما أخٌ وأُخت، وليس زوجين!»)

وقال الملك: «بالحقيقة، يا أُختي، لو تزوّجتِه لقلَّ تقديري لك. وأقول لك إنّني عند قدوم مندوبي السلطان أوّل مرّة إلى نارنيا للبحث في هذا الزواج، ولاحقاً حين حلَّ الأمير علينا ضيفاً في كيرپراڤيل، عجبتُ جدّاً من أن تجدي في قلبك ولو زاويةً صغيرة لتُبدي له ذلك المقدار من المودّة».

فقالت الملكة سوزان: «كان ذلك حماقةً منّي، يا إدمون، أرجو منك الصفح عنها، إلّا أنَّ هذا الأمير، لمّا كان عندنا في نارنيا، تصرّف على نحوٍ يختلف تماماً عمّا يفعله الآن في طشبان. فأنت شاهدَ أيّةَ مآثر مدهشة حقّق في المباريات والمبارزات الكبرى التي أقامها له أخونا الملك الأكبر، وكيف رافقنا بمنتهى اللطف واللياقة على مدى الأيّام السبعة. غير أنّه، هنا في مدينته، ظهرتْ له طبيعة أخرى».

وقال الغُراب ناعباً: «آه! هناك مَثَل قديم يقول: راقِب الدُبَّ في جُبّه الخاصّ قبل أن تحكم على أحواله».

فقال أحد القزمين: «صحيح تماماً يا غُليمان! ويقول مثل آخر: تعال وعِش معي فتعرفَني».

وقال الملك: «نعم، وقد رأيناه الآن على حقيقته، فإذا

هو طاغية كثير الكبرياء، ومحبٌّ لسفك الدماء، ومُتنعِّم بإفراط، وقاسٍ وأناني».

فقالت سوزان: «إذاً، باسمِ أصلان، لنغادر طشبان اليومَ بالذات!»

فقال إدمون: «هنا المشكلة يا أُختاه! فالآن عليَّ أن أكشف لكِ كلَّ ما دار في رأسي من أفكار طيلة آخر يومين أو أكثر. يا بريدان، من فضلك، انظر إلى الباب وتأكَّدْ من عدم وجود جواسيس يراقبوننا. أكلُّ شيء على ما يُرام؟ إذ ينبغي لنا الآن أن نتكلَّم سرّاً».

وكان الجدُّ قد بدأ يبدو على ملامح الجميع. فهبَّت الملكة سوزان واقفةً وأسرعت إلى أخيها، وقالت بأسى:

«آه، يا إدمون، ما حقيقة الأمر؟ على وجهك مسحة حُزنٍ مخيفة!»

الفصل الخامس

الأمير كورين

قال الملك إدمون: «يا أُختي العزيزة والسيِّدة الطيِّبة، عليكِ الآن أن تُبدي شجاعتك. فإنّي أقول لكِ بصراحة إننا نواجه بعض الخطر».

فسألت الملكة: «وما هو، يا إدمون؟»

قال إدمون: «هو هذا: لا أعتقد أنَّ مغادرتنا طشبان أمرٌ سهلٌ. فبينما كان لدى الأمير أمل بأن تتزوَّجي منه، كنّا ضيوفاً مكرَّمين. ولكنْ قسماً برأس الأسد، أعتقد أنّه حالما يتبلَّغ رفضَكِ القاطع لن تكونَ حالتنا أفضل من حالة الأسرى».

فصفر أحد القزمَين صفرةً خفيفة.

وقال عُلَيمان الغُراب: «لقد حذَّرت جلالتكم. فالدخول سهل لكنَّ الخروج صعب، كما قالت جرادةُ البحر داخل شبكة الصيّاد!»

ثمَّ تابع إدمون قائلاً: «كنتُ بصحبة الأمير هذا الصباح. وهو قلَّما تعوَّد أن يتخطّى أحدٌ إرادته (وهو ما يزيد الأمر تعقيداً). فهو مُغتاظ جدّاً من تكرار تأخُّرِك طويلاً، ومن

أجوبتك المحيّرة وقد ألحّ كثيراً جدّاً هذا الصباح على معرفة قرارِكِ. فحاولتُ تجنُّب الموضوع، قاصداً في الوقت عينه إضعاف آماله، بإطلاق بعض النكات الشائعة الخفيفة عن توهُّمات النساء، بل لَمحتُ أيضاً إلى أنّ طلبَه ليدكِ قد يكون مسعىً خائباً. وإذا به يغضب ويصير خَطِراً. وقد كمن شيءٌ من التهديد - وإن كان ما يزال مختبئاً وراء لباقة مصطنعة - في كلّ كلمة قالها».

وقال طمنوس: «نعم، ولمّا تعشّيتُ مع الوزير الأوّل البارحة، كانت الحال على هذا المنوال. فقد سألني هل أعجبتني طشبان. ولأني لم أقدر أن أقول له إني كرهت كلّ حجر فيها، ولا أريد أن أكذب، فقد قلتُ له إنه لكوننا في عزّ الصيف الآن حنّ قلبي إلى الغابات الباردة والسفوح النديّة في نارنيا. فابتسم ابتسامةً لا تنطوي على أيّ خير وقال: 'لن يُعيقك شيء عن الرقص هنالك من جديد، يا أخا المِعزاة الصغير، إنمّا بشرطٍ واحد وهو أن تترك لنا بالمقابل عروساً لأميرنا.'»

فقالت سوزان متعجّبة: «هل تعني أنّه قد يجعلني زوجةً له بالقوّة؟»

أجاب إدمون: «ذلك هو ما أخشاه، يا سوزان. زوجةً، أو جارية: وهذا أسوأ!»

«ولكنْ كيف يمكن أن يفعل هذا؟ أيظنُّ السّلطان أنّ أخانا، الملك الأعلى، يسكت عن هذه الإهانة؟»

عندئذٍ قال بريدان للملك: «مولاي، لن يكونوا بهذا

الجنون. فهل يحسبون أنْ ليس في نارنيا سيوفٌ ورماح؟»

فقال إدمون: «واحسرتاه! أعتقد أنّ السّلطان يخاف من نارنيا خوفاً قليلاً جدّاً. فنحن بلد صغير. والبلدان الصغيرة الواقعة على حدود إمبراطوريّةٍ عظيمة طالما كانت مكروهةً عند سادة الإمبراطوريّة العظيمة. إنّه يتوق إلى محوها من الوجود، إلى التهامها التهاماً، ولمّا سمح أوّلاً للأمير بأن يذهب إلى كيرپراڤيل بصفته خطيبك، يا أُختي، فربّما كان فقط يسعى إلى فرصة لمهاجمتنا. والأرجح جدّاً أنّه يطمع بأن يلتهم نارنيا وبلاد آرخيا كلتيهما بلقمة واحدة».

إذ ذاك قال القزم الآخر: «فليُحاول! فنحن في البحر نعادِلُه في القوّةِ. وإذا هاجمَنا برّاً، فعليه عبور الصحراء».

فقال إدمون: «صحيحٌ، يا صاحِب؛ ولكنْ هل تشكّل الصحراء دفاعاً أكيداً؟ ما قولك يا عُلَيمان؟»

أجاب الغراب: «أنا أعرف الصحراء جيّداً. إذ قد طرتُ فوق كلّ مكانٍ فيها في أيّام حداثتي (ويمكنك أن تتأكّد أن شصطى أصغى بانتباه شديدٍ عند هذه النقطة). فمن المؤكّد أنه إذا نوى السلطان أن يمرّ بقرب الواحة الكبرى، فلن يمكنه أبداً أن يقود جيشاً كبيراً جدّاً عبرَها إلى داخل بلاد آرخيا. حتّى لو وصلوا إلى الواحة في آخر مسيرة النهار الأوّل، فإنّ الينابيع هناك لن تكفي لإرواء عطش أولئك الجنود كلّهم مع خيولهم. غير أنّ هنالك طريقاً آخر».

وهنا أصغى شصطى إصغاءً أشدّ، فيما مضى الغراب

يقول: «ومَن أراد أن يهتدي إلى ذلك الطريق، يجب أن ينطلق من قبور الملوك القدامى ويسير على الخيل نحو الشمال الغربيّ بحيث تظلُّ القمّة المزدوجة فوق جبل باير قدّامه دائماً. وهكذا، فبعد سيرِ نهارٍ واحد أو أكثر قليلاً على الخيل، يصل إلى رأس وادٍ صخري ضيّق جدّاً بحيث إنَّ المرء قد يقترب إليه ألف مرّة مسافةً تقلُّ عن مئتي متر ولا يلاحظ وجوده هناك. وإذا نظر إلى أسفل ذلك الوادي، فلا يرى عشباً ولا ماءً ولا أيَّ شيءٍ آخر نافع. ولكنْ إذا هبط إليه، يصل إلى نهر، ويمكنه أن يسير على طول مجرى النهر حتّى يبلغ بلاد أرخيا».

فسألتِ الملكة: «وهل يعرف أهل كالورمِن هذا الطريق الغربيّ؟»

فقال إدمون: «يا أصحاب، ما نفع هذا الحديث كلّه؟ نحن لسنا نسأل مَن يربح، نارنيا أو كالورمن، إذا قامت بينهما حرب! إنّنا نسأل كيف نصون شرف الملكة وننجو بأرواحنا من هذه المدينة اللعينة. لنفترض أنَّ أخي، بطرس الملك الأعلى، سيهزم السّلطان عشر مرّاتٍ وأكثر، فقبل ذلك اليوم بزمان طويل تكونُ أعناقُنا قد حُزّت، وتكون جلالة الملكة قد صارت زوجةً -أو عبدةً على الأرجح- لهذا الأمير الشرّير!»

وقال القزم الأوّل: «لدينا سلاحُنا، أيّها الملك، ويسهُل الدفاع عن هذا البيت جيّداً!»

فقال الملك: «بخصوص هذا، لا شكَّ عندي أنَّ كلَّ

واحد منّا يبذل حياته بطيبة خاطر عند البوّابة، ولن يصلوا إلى الملكة إلّا فوق جُثثِنا. إلّا أنّنا سنكون كمجرّد فئران تُحارب في فخٍّ علقت فيه».

وقال الغراب ناعباً: «صحيحٌ تماماً. فالقتال حتّى الرّمَق الأخير في بيت مُحاصَر موضوعُ قصصٍ تُروى، ولكنْ لا فائدة. فبعد ردّ الأعداء على أعقابهم بضع مرّات، دائماً يحرقون البيت بالنار».

فقالت سوزان وقد انفجرت باكيةً: «أنا السبب في هذا كلّه. يا ليتني لم أترُك كيرپاڤيل قطّ! لقد كان آخر يوم سعيد لنا قبل وصول أولئك المبعوثِين عندنا من كالورمِن. وقد كانت حيوانات الخُلد تزرع لنا بستاناً... آه... آه!» ثمّ غطّت وجهها بكفّيها وراحت تبكي.

وقال إدمون: «قليلاً من الشجاعة، يا سُو، قليلاً! تذكّري... ولكنْ ما بكَ أنت، يا سيّد طمنوس؟» ذلك أنَّ الفُون أمسك كِلا قرنَيه بيدَيه وكأنّه يحاول أن يحافظ على رأسه بواسطتهما، متلوّياً ذهاباً وإياباً كمن يُعاني ألماً في أحشائه.

فقال طمنوس: «لا تُكلّموني، لا تكلّموني. أنا أُفكّر، أنا أُفكّر، حتّى أكاد أواجهُ صعوبةً في التنفُّس. مهلاً، مهلاً، مهلاً عليّ!»

ثمّ مرّت لحظةٌ من الصمت المحيّر، بعدها رفع الفون رأسه وسحب نفَساً طويلاً، وحكَّ جبينه وقال:

«المشكلة الوحيدة هي كيف ننزل إلى سفينتنا، ومعنا

بعض المؤونة أيضاً، بغير أن يرانا أو يُوقِفنا أحد».

فقال أحد القزمَين بجفاف: «نعم، مثلما أنَّ المشكلة الوحيدة التي يواجهها الشحّاذ بشأن ركوب الخيل هي أنْ لا حصانَ عنده!»

وقال السيّد طمنوس وقد نَفِد صبرُه: «مهلاً، مهلاً! كلُّ ما نحتاج إليه هو حجّةٌ للنزول إلى سفينتنا اليوم ونقل بعض الأغراض إليها».

فقال الملك إدمون بارتياب: «نعم».

وقال الفون: «طيّب! ما رأيُ جلالتكم لو تدعون الأمير إلى حفلة كبيرة تُقام على متن سفينتنا الشراعيّة 'البِلّورة الفاخرة' مساءَ غدٍ؟ ولتُصَغ الدعوة بأرقّ عبارات يمكن أن تبتكرها الملكة بغير أن ترهن شرفها، بحيث تُعطي الأمير أملاً بأنها تلين».

فنعب الغراب قائلاً: «هذه نصيحة صالحة جدّاً، يا مولاي».

ثمّ تابع طمنوس متحمّساً: «وعندئذٍ سيتوقّع الجميع منّا أن نتردّد إلى السفينة طول النهار لنقوم بالتحضيرات اللازمة لاستقبال ضيوفنا. ولينزل بعض منّا إلى الأسواق ويُنفِقوا كلَّ فلسٍ عندنا لدى بيّاعي الفواكه والحلوى وتُجّار النبيذ، مثلما نفعل لو كُنّا نُقيم وليمةً فعلاً. ولنطلب سَحَرةً ولاعبي خفة وراقصات وعازفي ناي، يحضرون كلُّهم مساءَ غدٍ إلى السفينة».

فقال إدمون وهو يفرك يديه: «أحسنتَ، أحسنت!»

وقال طمنوس: «ثم نصعَدُ إلى متنِ السفينة الليلة، وحين تظلم الدنيا ...»

أكمَل الملكُ: «نرفعُ الأشرِعةَ ونُخرِج المجاذيف!»

وتابع طمنوس: «وننطلق مُبحِرين!» بعدما هبَّ واقفاً وبدأ يرقص.

وقال القزم الأوّل: «وإلى الشمال متّجهين!»

فردّ الآخر: «ما أحلى الفرار إلى الديار! ألفُ سلامٍ على نارنيا والشمال!»

وقال بريدان مصفّقاً بيديه: «وما أحسنَ الأميرَ مستيقظاً صباح الغدِ ليجد أنَّ عصافيره قد أفلتت من يده!»

وقالت الملكة، وهي تُمسِك بيده وتتمايَل معه وهو يرقص: «عشتَ يا معلّمُ طمنوس، أيُّها المعلّم العزيز طمنوس، لقد أنقذتنا جميعاً!»

وقال سيّد آخر، لم يسمع شصطى اسمه: «سوف يطاردنا الأمير».

فقال إدمون: «هذا أقلُّ شيءٍ أخشاه. فقد رأيت



جميع السفن في النهر، وليس بينها سفينةٌ حربية طويلة ولا سفينةٌ شراعيّة سريعة. أتمنّى لو يطاردنا! فإنّ 'البلّورة الفاخرة' تقدر أن تُغرِق أيَّ سفينة يُرسلها وراءَها، إذا استطاعت أن تلحق بنا أصلاً».

وقال الغراب: «مولاي، لم تكنْ لتسمع خُطّةً أفضل من خُطّة الفون، ولو جلسنا نتشاور سبعة أيّام. والآن، كما نقول نحن الطيورَ، فالأعشاش قبل البيض. ومعنى هذا أنّ علينا أن نأخذ مُونتنا جميعاً، وبعد ذلك نباشر شغلنا حالاً».

عندئذٍ هبَّ الجميع واقفين، وانفتحت الأبواب، وتنحّى السادة وسائرُ المخلوقات جانباً إفساحاً للملك والملكة حتّى يخرجا أوّلاً. وتساءل شصطى عمّا يفعل، ولكنَّ السيّد طمنوس قال: «ابقَ مُستلقياً هناك، يا سموَّ الأمير، وسآتيك بوليمةٍ صغيرة بعد لحظات. لا داعي لأن تتحرّك حتّى نصير جاهزين لركوب متن السفينة». فأسند شصطى رأسه من جديد على المخدّة، وسرعان ما صار وحده في الغرفة.

وفكّر شصطى برأسه: «هذا أمرٌ مُروِّع جدّاً!» ولم يخطر على باله قطُّ أن يقول الحقيقة كلّها لأهل نارنيا أولئك ويطلب مساعدتهم. فإذ قد تربّى تحت يد رجل قاسٍ لا يتوانى دائماً عن ضربه، تعوّد عادةً ثابتة ألّا يقول للكبار شيئاً لو قدر، إذ حسب أنّهم دائماً يُفسِدون أو يوقِفون أيَّ شيء ينوي المرءُ القيام به. وقد فكّر أنّه وإن أبدى ملك

نارنيا مودّةً للحصانَين، لأنّهما حيوانان ناطقان من نارنيا، فلا بدّ أن يكره آراڤيس، لأنّها من كالورمن، فإمّا يبيعها عبدةً وإمّا يُرجعها إلى أبيها. أما بشأن نفسه، فقد فكّر: «لا أستجرىءُ أن أقول لهم الآن إنّني لستُ الأميرَ كورين. فقد سمعت جميع خُطَطهم. ولن يدَعوني أخرج من هذا البيت حيّاً، خوفاً من أن أخونهم فأُبلّغ السُّلطان عنهم. فإنّهم سيقتلونني. وإذا ظهر كورين الحقيقيُّ، يُفضَح أمري فيقتلونني حتماً!» فكما ترى، لم تكُن له أيّة فكرة كيف يتصرّف الأشراف والأحرار. وظلَّ يقول لنفسه:

«ماذا أفعل يا تُرى؟ ماذ أفعل يا تُرى؟ ماذا... هُه! هوذا المخلوق العنزيُّ الحافر يعود!»

ثمّ دخل الفون مُهروِلاً، شِبهَ راقص، وفي يديه صينيّة تكاد تُساويه في حجمها. وقد وضعها على طاولة مرصّعة بقرب أريكة شصطى، وقعد هو على الأرض المغطّاة بالسجاد متربّعاً برجليه العنزيّتين. ثمّ قال:

«والآن، أيّها الأمير الصغير، كُل هنيئاً. فهذه آخِر وجبة لك في طشبان».

كانت تلك مأدبة فاخرة على طراز كالورمن. ولا أدري أكُنتَ أنت تحبُّها أم لا، إلّا أنَّ شصطى أحبّها. فقد كان فيها جرادُ البحر وسَلَطة وشُكّب محشوٌّ بالكمأ واللوز، وطبَق معقَّد مصنوع من كبد الدجاج والرُّزّ والزبيب والجوز، وأيضاً بطّيخ بارد وحلوى كِشْمش وتوت، وكلُّ ما لذَّ وطاب من المُثلّجات. وكان هنالك أيضاً إبريق صغير

من النبيذ المسمّى «أبيض» مع أنّه بالحقيقة أصفر.

وبينما شصطى يأكل، ظلّ الفون الصغير الطيّب، وهو يظنّ أنّه ما زال دائخاً من ضربة الشمس، يحدّثه عن الأوقات السعيدة التي ستكون له عندما يرجعون جميعاً إلى الديار، وعن أبيه الشيخ الصالح لُون ملك بلاد آرخيا، والقصر الصغير الذي يقيم فيه على السفوح الجنوبيّة من



الشِّعب الجبليّ. وقال له طمنوس: «ولا تنسَ أنّك موعود بأوّل طقم سلاح لك، وبجوادك الحربيّ الأوّل، في عيد ميلادك التالي. وعندئذٍ ستبدأ سموّك تتعلّم كيف تركب الخيل وتُنازِل الفرسان وتصرعهم. وبعد سنين قليلة، إذا سار كلّ شيء على ما يُرام، سيُنفّذ الملك بطرس ما وعد به جلالة أبيك من أنّه هو بذاته سيجعلك فارساً في قصر كيرپراڤيل. وفي أثناء ذلك سيتمّ كثير من الذهاب والإياب بين نارنيا وبلاد آرخيا عبر المضيق العالي بين الجبال. وأنت تذكر بالطبع أنّك قد وعدتني بالمجيء لقضاء أُسبوع كامل عندي في مهرجان الصيف، حيث تُشعَل نيران في الهواء الطلق ويَرقص الفونات وحوريّات

الغابات طوال الليالي في أعماق الغابة. ومَن يدري؟... فقد نرى أصلان نفسه!»

ولمّا انتهت المأدبة، طلب الفون إلى شصطى أن يظلّ هادئاً حيث كان، وأضاف: «ولن يؤذيَك أن تنام قليلاً. فإنّي سأدعوك في الوقت المناسب لركوب متن السفينة، ومن ثَمّ نتوجّه إلى الديار... إلى نارنيا والشمال!»

وكان شصطى قد استمتع كثيراً بغدائه وبكلّ ما حدّثه به طمنوس، حتّى إنّه حينَ تُرِك وحده تحوّلت أفكاره إلى خطٍّ مختلف. فقد تمنّى الآن لو أنّ الأمير كورين الحقيقيّ لا يظهر حتّى يكونَ الوقتُ قد فات، ويكونَ هو قد أُخِذ إلى نارنيا بعيداً بالسفينة. وأنا متأسّف لأنّه لم يفكّر قطّ في ما قد يحصل لكورين الحقيقيّ إذا تُرِك وحده في طشبان. وكان قَلِقاً بعض الشيء من احتمال كون آراڤيس وبري ينتظرانه عند المقابر. غير أنّه قال لنفسه: «حسناً، ماذا يمكن أن أفعل بشأن ذلك؟ وعلى كلّ حال، فما دامت آراڤيس تعتقد أنّها أرفع من أن تصحبني، ففي وسعها تماماً أن تذهب وحدها». وفي الوقت نفسه لم يمنع نفسه أن يشعر بأنّ السفر إلى نارنيا بالبحر سيكون أمتع بكثير من الارتحال المُتعِب في الصحراء.

وبعدما فكّر في ذلك كلّه، فعل ما أتوقّع أن تفعله أنت إن كنتَ قد استيقظت باكراً جدّاً، ومشيتَ مسافةً طويلة، وحصلت على مقدار كبير من التشويق، ثمّ تناولت وجبةً فاخرة، وكنتَ مستلقياً على أريكة في غرفة باردة لا ضجّة

فيها سوى طنين ذبابة تدخل بين حينٍ وآخر من الشبابيك المفتوحة على وسعها. أعني أنّه غطّ في النوم.

أمّا ما أيقظه فكان صوتُ تحطّم عالياً. فقفز عن الأريكة، وأخذ يحدّق. وفي الحال عرف من مجرّد هيئة الغرفة -حيث بدَت الأضواء والأفياء كلّها مختلفة- أنّه لا بدّ أن يكون قد نام عدّة ساعات. وتبيّن له أيضاً ما الذي أحدث صوت التحطّم، إذ إنّ زهريّة ثمينةً من الخزف الصينيّ كانت موضوعة على حافّة الشبّاك تناثرت حطاماً على الأرض في نحو ثلاثين شقفة. ولكنّه لم يكَد يلاحظ ذلك كلّه. بل إنّ ما لاحظه فعلاً كان يدين صغيرتين تمسكان بحافة الشبّاك من الخارج. وقد شدّدتا الإمساك أكثر فأكثر (مُبيضّتَين عند مفاصل الأصابع). ثمّ برز رأس وكتفان. وبعد هُنيهَة ظهر صبيٌّ بعمر شصطى يجلس مُنفرجَ الساقين على الحافة وإحدى رجليه مُدلاّة إلى داخل الغرفة.

لم يكن شصطى قد شاهد وجهه في مرآةٍ قطّ. ولو كان قد فعل ذلك، لربّما فاته أن يُلاحظ أن الصبيّ الآخر كان (في الأوقات العاديّة) يشبهه تماماً. ولكنْ في ذلك الحين كان هذا الصبيّ لا يشبه أحداً بصورة خاصّة، إذ كانت حول عينيه أسوأ كدمة يمكن أن تراها في حياتك، وكانت إحدى أسنانه ناقصة. أما ثيابه (ولا بدّ أنّها كانت فاخرة لمّا لبسها) فكانت ممزّقة وموسّخة، وعلى وجهه دمٌ ووحل معاً.

وقال الصبيُّ هامساً: «مَن أنت؟»

فقال شصطى: «أأنت الأمير كورين؟»

أجابه الآخر: «طبعاً، أنا هو، ولكنْ من أنت؟»

فقال شصطى: «أنا لا أحد؛ أعني لا أحد مخصوصاً. لقد قبض عليّ الملك إدمون في الشارع، إذ حسبني إيّاك بالغلط. أظنّ أننا نشبه أحدنا الآخر. فهل أقدر أن أخرج من هنا مثلما دخلتَ أنت؟»

«نعم، إن كنت تُحسِن التسلّق. ولكنْ لماذا أنت مستعجل هكذا؟ أعتقد أنّ علينا الاستمتاع بشيءٍ من المَرَح من جرّاء هذا الغلط في حسبان أحدنا الآخر».

فقال شصطى: «لا، لا! إنّما علينا أن نتبادل الدور حالاً. فسيكون الأمر مروّعاً بالفعل إذا رجع السيّد طمنوس ووجدنا كلَينا هنا. لقد كان عليّ أن أتظاهر بأنّني أنت. وسوف تُسافرون الليلة... سِرّاً. ثمّ أين كنت طيلة هذا الوقت؟»

قال الأمير كورين: «لقد أطلق صبيٌّ في الشارع نكتةً بذيئة عن الملكة سوزان، فضربتُه، فأسرع مُولولاً إلى داخل أحد البيوت، وخرج إليّ أخوه الكبير. فضربت

الأخ الكبير وغلبتُه، ثم لحقا بي كلاهما حتّى صادفنا ثلاثة رجال كبار حاملين رماحاً، يُسمّون حُرّاساً. فقاتلتُ الحُرّاس، فغلبوني. وكان المساء يقترب، فأخذني الحرّاس معهم كي يحبسوني في مكانٍ ما. فسألتهم هل يريدون شيئاً من النبيذ، فقالوا إنّه لا بأس في ذلك. ثمّ اصطحبتهم إلى دُكّان نبيذ، وأحضرتُ لهم قليلاً، فقعدوا كلُّهم وشربوا حتّى ناموا. وفكّرتُ أنّه الوقت المناسب لي حتّى أهرب، فخرجت مُتسلّلاً بهدوء. ثمّ وجدت الصبيَّ الأوّل - ذاك الذي بدأ هذه الورطة كلّها - ما يزال يتمشّى. فما كان منّي إلّا أن ضربته وطرحتُه أرضاً مرّةً أخرى. وبعد ذلك تسلّقتُ أنبوباً إلى سطح بيت، ولبدتُ هناك حتّى بدأ فجر هذا الصباح يطلع. ومنذ ذلك الحين وأنا أُحاول أن أهتدي إلى الطريق للعودة إلى هنا. تُرى، هل من شيء أشربُه؟»

فقال شصطى: «لا، لقد شربتُ كلَّ شيء. والآن، دُلّني كيف دخلتَ إلى هنا. لا يمكننا تضييع دقيقة واحدة. خيرٌ لك أن تتمدّد الآن على الأريكة وتتظاهر... أوه، نسيت! لن ينفع ذلك بوجود هذه الرضوض والكدمات كلّها حول عينيك. فما عليك إلّا أن تقول لهم الحقّ حالما أمضي أنا بأمان».

فسأل الأمير بنظرةٍ غاضبةٍ بالأحرى: «وماذا غير ذلك تظنُّ أنّني سأقول لهم؟ ثُمّ مَن أنت؟»

أجاب شصطى بهمسٍ مذعور: «لا وقتَ لهذا! أنا من نارنيا كما أعتقد؛ من الشمال على كلّ حال. ولكنّني

تربّيت كلَّ حياتي في كالورمِن. وأنا الآن هارب عبر الصحراء، مع حصان ناطق اسمه بِري. والآن، هيّا! كيف أخرج من هنا؟»

فقال كورين: «اسمع! انزل من هذا الشبّاك إلى سطح الشرفة. ولكنْ يجب أن تنزل بخفةٍ على رؤوس أصابع قدميك، وإلّا سمعك أحدهم. ثمّ تتوجّه مباشرةً إلى يسارك، ويمكنك أن تصل إلى أعلى ذلك الحائط إذا كنت تُتقِن التسلُّق فعلاً. ثُمّ تمشي على أعلى الحائط حتّى تصل إلى الزاوية. وإذا قفزت إلى كومة النفايات تجد نفسك خارجاً، فتمضي في سبيلك».

«شكراً!» قالها شصطى وهو ما يزال جالساً على حافة الشبّاك. وبينما الصبيّان ينظران أحدُهما إلى وجه الآخر، تبيّن لهما فجأةً أنّهما صارا صديقين.

ثمّ قال كورين: «وداعاً، وبالتوفيق! أرجو فعلاً أن تفرَّ سالماً».

فقال شصطى: «وداعاً، الظاهر أنّك غامرتَ بعض المغامرات!»

وقال الأمير: «مغامراتي لا شيء - بالنسبة إلى مغامراتك. والآن انزلْ، إنّما بخفّةٍ وهدوء كما قلتُ لك».

وإذ نزل شصطى، أضاف قائلاً: «أرجو أن نتلاقى في بلاد آرخيا. اذهب إلى أبي الملك لُون وقُل له إنّك صديقي. انتبه! إنّي أسمعُ أحدَهم قادماً».

الفصل السادس

شَصطى بين القبور

ركض شصطى على طول السطح برشاقة على رؤوس أصابع قدميه، وأحسَّت قدماه الحافيتان الحرارة. وبعد ثوانٍ قليلة فقط أخذ يتسلّق على الحائط عند الطرف الأقصى. ولمّا وصل إلى الزاوية، وجد نفسه مُطِلّاً على شارع ضيّق كريه الرائحة، وكانت خارج الحائط كومة نفايات، مثلما قال له كُورين تماماً. وقبل أن يقفز نزولاً، نظر نظرةً خاطفة حواليه ليتحقّق من طريقه، فبدا له أنّه واقف على رأس تلّة الجزيرة التي بُنِيَت طشبان عليها. ورأى كلّ شيء ينحدر أمامه نحو البعيد، سطوح طوابق تحت سطوح طوابق، وصولاً حتّى الأبراج ونوافذ الدفاع في سور المدينة الشماليّ. ووراء ذلك كان النهر، ووراء النهر سفحٌ صغير مُغطّىً بالبساتين. ولكنّ ما وراء ذلك أيضاً كان شيءٌ لم يرَ مثله قبلاً: شيءٌ رماديٌّ مائل إلى الصُّفرة، منبسط كبحر هادئ، وممتدٌّ كيلومتراتٍ كثيرة. وفي الطرف الأقصى منه أشياءُ ضخمة زرقاء، مُكتّلة لكنّ خشنة الأطراف، ولبعضها قِمَمٌ بيضاء.

ففكّر: «إنّها الصحراء! إنّها الجبال!»

ثمّ قفز على القُمامة، وبدأ يُهرول هابطاً التلّ بأسرع ما يمكنه في الشارع الضيّق الذي أدّى به سريعاً إلى شارع أوسع كان فيه ناسٌ أكثر. وما كلّف أحد نفسه أن ينظر إلى صبيٍّ صغير رثّ الثياب يركض حافياً. لكنّه بقي قلقاً ومضطرباً حتّى انعطف حول زاوية، حيث رأى باب المدينة قدّامه. وهنا تعرّض لقليلٍ من الزّحم والحشر، لأنّ عدداً كبيراً من الناس كانوا أيضاً خارجين. وعلى الجسر بعد الباب صارت الجموع موكباً بطيئاً بعض الشيء، أقربَ إلى صفٍّ منه إلى حشد. وفي الخارج هناك، حيث المياه الصافية تجري إلى كلّ جانب، كان الهواء طيّباً ومنعشاً بعد روائح طشبان وحرارتها وضجيجها.

وما إن وصل شصطى إلى طرف الجسر الأقصى، حتّى رأى الجموع تتفرّق وتتلاشى، إذ بدا أنّ كلّ واحد يذهب إمّا إلى اليسار وإمّا إلى اليمين على طول ضفّة النهر. فمضى إلى الأمام حالاً على طريق لم تبدُ مطروقةً كثيراً، بين البساتين. وبعد بضع خطوات صار وحده، ثمّ بعد بضع خطوات غيرها بلغ أعلى السفح، حيث وقف وحدّق. وكان ذلك مثل الوصول إلى نهاية الدنيا، لأنّ العشب كلّه انتهى فجأةً قدّامه ببضعة أمتار وابتدأ الرمل: رملٌ بلا نهاية، منبسِط كما على شاطىء البحر، إنّما أخشن قليلاً لأنّه لم يكنْ رطباً على الإطلاق. ولاحت أمامه في

الأفق الجبالُ التي بدتِ الآن أبعد كثيراً من ذي قبل. ثمَّ أراحَهُ كثيراً أنْ يرى، على مسيرة خمس دقائق تقريباً إلى يساره، ما لا بدَّ أن يكون المقابر حتماً، كما وصفها بري تماماً: كُتَل كبيرة من الحجارة المقلوبة بشكل خلايا نحل ضخمة، لكنْ أضيق قليلاً. وقد بدت له شديدة السواد والعبوس، إذ كانت الشمس آنذاك تغيب من خلفها تماماً.

ثمَّ أدار وجهه نحو الغرب، وأسرع صوب المقابر. ولم يقدر إلَّا أن يتطلَّع بكلِّ تدقيق لرؤية أيِّ أثر لأصدقائه، مع أنَّ الشمس الغاربة كانت ترمي ضوءها على وجهه بحيث لم يقدر أن يرى أيَّ شيءٍ تقريباً. وفكَّر: «على كلِّ حال، سيكونون بالطبع في الجانب الأقصى وراء أبعد قبر، لا في هذا الجانب حيث قد يراهم أيُّ شخص من المدينة».

كان هنالك نحو اثني عشر قبراً، لكلٍّ منها مدخل



منخفض مُقنطَر ينفتح على سواد كليّ. وكانت منتشرة كيفما اتَّفق، بلا ترتيب معيَّن، بحيث تُضطَرّ إلى قضاء وقت طويل في الدوران حول هذا القبر ثمَّ حول ذاك، قبل أن تتيقَّن بأنَّك تطلَّعت حول كلٍّ منها. ذلك ما اضطرَّ شصطى إلى فعله. إلَّا أنَّه لم يجد أحداً هناك.

وكان الهدوء الكثير مُخيِّماً عند طرف الصحراء في العراء، وقد غابت الشمس فعلاً آنذاك.

وفجأةً، من مكانٍ ما وراء شصطى، صدر صوتٌ مُخيف. فقفز قلبه قفزةً عظيمة، وكان عليه أن يعضَّ على لسانه حتَّى لا يصرخ. ثمَّ ما لبث أن أدرك ما كان ذلك، إذ إنَّ أبواق طشبان كان يُنفَخ فيها إيذاناً بإغلاق الأبواب.

فقال لنفسه: «لا تكن جباناً صغيراً غبيّاً! فما هذا إلَّا الصَّوت الذي سمعتَه هذا الصباح بالذات». ولكنَّ هناك فرقاً شاسعاً بين صوتٍ سمعتَهُ لإدخالك مع أصدقائك عند الصباح وصوتٍ تسمعه وحدك عند هبوط الليل لإبقائك خارجاً. وإذ أُقفلت أبواب المدينة الآن، عرف أنْ ليس من فرصة لانضمام الآخرين إليه في ذلك المساء. وفكَّر: «إمَّا أن يكونوا قد حُبِسوا داخل طشبان هذه الليلة، وإمَّا أن يكونوا قد ذهبوا من دوني. وهذا أمرٌ قد تفعله آراڤيس. أمَّا بري فلا يمكن أن يفعل هذا. أوه، طبعاً لن يفعل هذا... والآن، هل يفعله؟»

وفي هذه الفكرة عن آراڤيس كان شصطى مخطئاً تماماً مرّةً أخرى، فإنّها كانت متكبّرة، ويمكنها أن تكون قاسية للغاية، غير أنّها كانت مُخلِصة تماماً ولم تكن قطّ لتتخلّى عن رفيق، سواءً أحبّته أم لم تحبّه.

وإذ علم شصطى الآن أنّه سيقضي الليل وحيداً (وكان الظلام يشتدُّ كلّ دقيقة)، بدأ يكره منظر ذلك المكان أكثر فأكثر. فقد كان في تلك الأشكال الحجريّة الكبيرة الصامتة ما يُزعج جدّاً. وكان قد بذل أقصى جهده وقتاً طويلاً وهو يحاول ألّا يفكّر بالغيلان، إلّا أنّه لم يعُدْ يقدر على ذلك الآن.

وفجأةً صرخ: «أُو، أُو، النجدة!» إذ شعر في تلك اللحظة عينها بشيءٍ يمسُّ رجله. ولستُ أظنُّ أنّ أحداً يمكن أن يُلام على الصراخ إن أقبل عليه شيء من ورائه ولامسه، ولا سيّما في مثل ذلك المكان وفي مثل ذلك الوقت، حين يكون مذعوراً أصلاً. وعلى كلّ حال، فقد أقعد الخوف الشديد شصطى عن الحركة والركض. وأيُّ شيء لا بدّ أن يكون أفضل من التعرُّض للمطاردة جولةً بعد جولة بين مدافن الملوك الأقدمين من قِبَل شيء خلفه لم يجرؤ أن ينظر إليه. غير أنّه فعل ما كان بالحقيقة أعقل شيء يمكن عمله. إذ أدار بصره فكاد قلبه ينشقُّ من الارتياح: إنّ الشيء الذي مسّه لم يكن إلّا هرّاً.

وكان الضوء عندئذٍ أسوأ من أن يمكّنه من رؤية ملامح الهرّ بوضوح، ما عدا كونه كبيراً وكثير المهابة. وقد بدا كأنّه

يعيش بين المقابر وحيداً منذ سنين طويلة جدّاً، وكان من شأن عينيه أن توحيا لك أنّه يعرف أسراراً كثيرة لا يريد أن يبوح بها. ثمّ ما لبث شصطى أن قال له:

«بِيس، بيس! لا أعتقد أنّك هرٌّ ناطق!»

فحدّق إليه الهرّ تحديقاً أشدَّ من ذي قبل. ثمّ انطلق يمشي مبتعداً، وقد لحق به شصطى طبعاً. فتقدّمه بين المقابر إلى خارجها من جهة الصحراء. وهنالك جلس منتصباً تماماً، وذيلُه ملفوفٌ حول أقدامه، ووجهُه نحو الصحراء ونحو نارنيا والشمال، بلا حراكٍ كما لو كان يترقّب عدوّاً ما. واستلقى شصطى بقربه، مُديراً ظهره إليه ووجهه نحو القبور، لأنّه إذا كنت متوتّراً فلا شيء أفضل من أن تُدير وجهك نحو مصدر الخطر وتُسنِد ظهرك إلى شيء دافىء وجامد خلفك. ولم تكن الرمال لتبدو لك مريحةً جدّاً، غير أنّ شصطى بالكاد لاحظ ذلك بعدما مضت عليه أسابيع وهو ينام على الأرض. وسرعان ما سطا عليه النوم، مع أنه حتّى في أحلامه ظلّ يتساءل عمّا حصل لبري وآراڤيس وهُوِين.

وفجأةً أيقظته ضجّةٌ لم يسمع مثلها من قبل. فقال لنفسه: «ربّما كان هذا مجرّد كابوس». وفي اللحظة نفسها لاحظ أنّ الهرّ كان قد ذهب من ورائه، وتمنّى لو كان قد بقي. لكنّه ظلّ مستلقياً بلا حراك، بغير أن يفتح حتّى عينيه، إذ تأكّد له أنّه سيخاف أكثر بكثير إذا جلس يتلفّت إلى المقابر ووحشة الصحراء، مثلما قد نتمدّد أنا أو أنت بلا

حراك والأغطية على رأسينا. إلّا أنّ الضجّة عادت تُسمَع من جديد، وكانت صراخاً حاداً خشناً منطلقاً من الصحراء وراءه. وعندئذٍ اضطُرَّ طبعاً أن يفتح عينيه ويجلس.

كان القمر مُشرِقاً بضوئه الصافي. وبدت المقابر رماديّةً تحت ضوئه، وقد ظهرت أكبر وأقرب جداً ممّا تصوّر. وفي الحقيقة أنّها ظهرت مُروِّعةً كأشخاصٍ ضِخام متسربلين بأرواب رماديّة تُغطّي رؤوسهم ووجوههم. ولم تكن قطّ أشياء تُحَبُّ أن تكون بقربك وأنت تُمضي الليل وحدك في مكان غريب. إلّا أنّ الضجّة كانت قد صدرت من قلب الصحراء، من الجهة المقابلة. فاضطُرَّ شصطى أن يُدير ظهره نحو القبور (الأمرُ الذي لم يحبّه كثيراً) ويُحدِّق إلى البعيد عبر الرمال المستوية. وإذا بالصراخ الهائل يتعالى من جديد.

وتمنّى شصطى ألّا يعني ذلك مزيداً من الأسود. ولم يكن الصراخ بالحقيقة يُشبِه كثيراً زئير الأسود الذي سمعه ليلة التقى هُوين وأراڤيس، بل كان في الواقع عواء ابن آوى. غير أن شصطى لم يعرف ذلك طبعاً. حتّى لو عرف، لم يكن ليرغب كثيراً في لقاء ابن آوى.

ثمّ تردّدت أصداء الصراخ مراراً وتكراراً. ففكّر شصطى: «هنالك أكثر من واحد من هذه... مهما كانت. وهي تقترب إليّ!»

وأظنُّ أنّه لو كان ولداً عاقلاً جداً لسارَ رجوعاً بين المقابر واقترب من النهر، حيث انتشرت البيوت وقلّ

احتمال مجيء الوحوش. ولكنْ عندئذٍ تبقى الغيلان (أو هكذا توهّم). فالرجوع مسروراً بين المقابر يعني المرور قُرْبَ تلك الفتحات المظلمة في القبور؛ وماذا يمكن أن يخرج منها؟ ومع أنّ الأمر ربّما كان تصرُّفاً غبيّاً، فقد شعر شصطى أنّ الأفضل هو المخاطرة بمواجهة الوحوش البريّة. ثمّ لمّا بدأت الصرخات تقترب أكثر فأكثر، بدأ يغيِّر رأيه.

وما إن همّ بأن يركض هارباً، حتّى رأى فجأةً، بينه وبين الصحراء، حيواناً ضخماً يقفز قفزةً هائلة. وإذْ كان القمر وراءه، بدا كثير السواد، ولم يدرِ شصطى ما هو، سوى أنّ له رأساً أشعث كبيراً وأنّه يمشي على أربع قوائم. ولم يبدُ أنّه لاحظ شصطى، لأنّه توقّف فجأةً، وأدار رأسه نحو الصحراء، وأطلق زمجرةً تردّدت أصداؤها بين المقابر وبدا أنّها تهزّ الأرض هزّاً تحت قدمَي شصطى. وتوقّفت صرخات المخلوقات الأخرى فجأةً، وخُيِّل إليه أنّه سمع وقع أقدامٍ هاربة. ثمّ التفت الحيوان الضخم ليتفحّص شصطى.

إذ ذاك فكّر شصطى: «إنّه أسد؛ أنا أعرف أنّه أسد. لقد انتهى أمري! تُرى، هل يؤلمني الأمر كثيراً؟ يا ليته ينتهي حالاً. تُرى، هل يحدث شيء للناس بعد موتهم؟ أووووه! ها قد أتى!» ثم أطبق عينيه وأسنانه إطباقاً شديداً.

ولكنّه بدل الأنياب والمخالب شعر فقط بشيء دافىء يتمدّد عند قدميه. ولمّا فتح عينيه قال: «عجباً، إنّه ليس

كبيراً كما تصوّرتُ تقريباً! إنّه بنصف ذلك الحجم فقط. لا، حتّى إنّه ليس بربع الحجم. إنّي أقول حقاً إنّه ما هو سوى الهر الذي رأيته أول الليل! لا شكّ أنّني حلمتُ بكلّ ذلك عن كونه بحجم حصان».

وسواءٌ كان يحلم أم لا، فما كان مستلقياً الآن عند قدميه ويحدّق إليه تحديقاً مُربكاً بعينين خضراوين كبيرتين لا ترمشان إنّما كان الهرّ، وإن كان بالتأكيد واحداً من أكبر الهررة التي رآها طيلةَ حياتِه.

فقال لاهثاً: «أُوه، يا بيس! يسرُّني جداً أن أراكَ من جديد. لقد كنتُ أحلم أحلاماً مروِّعة جداً». فتسرَّب إليه الدفءُ من الهرّ وغمر جسده كلَّه.

وقال شصطى، لنفسه وللهرّ على السواء: «لَن أعمل شيئاً مؤذياً لهرّةٍ ما دمتُ حيّاً. لقد فعلت أمراً كهذا مرّةً، كما تعرف. فقد رجمتُ بالحجارة هرّاً كبيراً شارداً أجربَ يكاد يموت جوعاً. هاي! كُفَّ عن هذا». إذ إنّ الهرّ كان قد التفت وخمشه خمْشةً. ثمّ مضى يقول: «كفى! لا يبدو أنّك تقدر أن تفهم ما أقول». ثمّ غلبه النعاس.

ولمّا استيقظ صباحَ الغد، كان الهرُّ قد ذهب والشمس قد طلعت والرمال قد حَميت. فجلس شصطى يفرك عينيه، وهو عطشان جدّاً. وكانت الصحراء بيضاء بياضاً يكاد يُعمي العيون؛ ومع أنّ ضجيجاً مختلطاً كان يُسمَع من المدينة وراءه، فقد كان المكان الذي هو فيه هادئاً إلى التمام. ولمّا تلفّت قليلاً إلى الشمال والغرب، بحيث لا

يبهر ضوء الشمس عينيه، استطاع أن يرى الجبال في طرف الصحراء الأقصى، واضحةً جلياً بحيث بدت على مسافة رمية حجر فقط. وقد لفت نظره خصوصاً جبلٌ مرتفع ينقسم في قمّتين عند الأعلى، فرجّح أن يكون جبل باير. وفكّر: «تلك هي وجهتنا، على أساس ما قاله الغراب. فعليّ أن أتحقّق من هذا بحيث لا نضيّع أيّ وقتٍ عندما يظهر الآخرون». فشقّ بقدمه تلماً عميقاً مستقيماً واضحاً يدلّ تماماً إلى جبل باير.

وكان العمل التالي طبعاً أن يحصل على شيء من الطعام والماء. فأسرع راجعاً بين المقابر، وبدت له عاديةً تماماً الآن، حتّى تساءل كيف يمكن أن يكون قد خاف منها. ثمّ نزل مسرعاً إلى الأراضي المزروعة عند ضفّة النهر. وكان قليل من الناس متفرّقين هناك، لكنّ عددهم كان ضئيلاً جداً، لأنّ أبواب المدينة كانت مفتوحة منذ بضع ساعات وقد دخلتها الجموع التي كانت محتشدة في الصباح الباكر. وعليه، لم يلقَ أيّة صعوبة في القيام بشيء من «نهب الغنيمة» (كما سمّى بري ذلك). وقد اشتمل الأمر على تسلّق سور بستان، فكانت الحصيلة ثلاث برتقالات وبطّيخة وتينة أو تينتين ورمّانة. بعد ذلك نزل إلى ضفّة النهر، ولكنّه لم يقترب من الجسر كثيراً، وشرب شربة ماء. وقد كانت المياه لذيذة جداً، حتّى إنّه خلع ثيابه الساخنة الوسخة وغطس غطسة. فلأنّه كان قد عاش على شاطىء البحر طول حياته، فقد تعلّم السباحة

تقريباً بمثل سرعة تعلُّمه المشي. وعند خروجه من الماء
استلقى على العشب ناظراً إلى طشبان، بكلّ فخامتها
وقوّتها وعظمتها. ولكنّ ذلك ذكّره بأخطارها أيضاً. وفجأةً
تذكّر أنّ الآخرين ربّما وصلوا إلى المقابر فيما كان هو
يستحمّ («وربّما تابعوا طريقهم من دوني، كما قد يُرجّح»)،
فلبس ثيابه على عجل واندفع عائداً بسرعة جعلته يصل
شاعراً بالحرارة والعطش، حتّى لم تَعُدْ لحمّامِه فائدةٌ.

وكمعظم الأيّام التي تكون فيها وحيداً ومنتظراً شيئاً
ما، بدا ذلك اليوم بطول مئة ساعة تقريباً. كان لديه
بالطبع أمورٌ كثيرة يفكّر فيها، ولكنّ جلوسك وحدك بلا
شيء سوى التفكير أمرٌ بطيء جدّاً. وقد فكّر كثيراً في
أهل نارنيا، وخصوصاً كورين. وتساءل عمّا حدث عندما
اكتشفوا أنّ الصبيّ الذي كان مستلقياً على الأريكة
وسمع بكلّ خططهم السريّة لم يكن كورين بتاتاً. وقد
ساءه جدّاً أن يفكّر بجميع أولئك الأشخاص الطيّبين
وهم يتصوّرون أنّه خائن.

ولكنّ قلقه أخذ يتزايد بشدّة لمّا راحت الشمس ترتفع
شيئاً فشيئاً إلى أعلى الفضاء ثمّ بدأت تنزل قليلاً قليلاً
نحو الغرب، ولم يأتِ أحد ولا حصل شيء. وتبيّن له
إذ ذاك بطبيعة الحال أنّهم لمّا رتّبوا أن ينتظروا بعضهم
بعضاً عند المقابر لم يقُلْ أيٌّ منهم شيئاً عن طول مدّة
الانتظار. فلا يُعقَل أن يظلّ منتظراً هناك طول عمره!
وبعد قليلٍ يهبط الظلام من جديد، وتكون له ليلةٌ أخرى

مثل البارحة تماماً. وقد تقاطعت في رأسه نحو عشر خطط
متضاربة، كلُّها سيّئة، حتّى قرّ قراره أخيراً على أسوإ تلك
الخطط. ذلك أنّه نوى أن يلبث هناك حتّى حلول الظلام
وعندئذٍ يرجع إلى النهر ويسرق من البطّيخ ما يمكنه أن
يحمل ثمّ ينطلق إلى جبل باير وحده، معتمداً في وجهته
على الخطّ الغائر الذي رسمه في الرمل ذلك الصباح.
كانت تلك فكرة سخيفة، ولو كان قد قرأ عن الرحلات
في الصحراء كتباً يساوي عددها ما قرأته أنت ما كان
ليحلم بتلك الفكرة حلماً. غير أنّه لم يكُن قد قرأ أيّة
كُتب على الإطلاق.

ولكنّ قبلَ غياب الشمس حصل بالفعل أمرٌ ما. فقد
كان شصطى قاعداً في ظلّ أحد القبور إذ رفع نظره فرأى
حصانَين مُقبِلَين نحوه. عندئذٍ قفز قلبه قفزةً كبيرة، لأنّه
عرف أنّهما بري وهُوين. ولكنّ في اللحظة التالية غاص
قلبه داخل صدره من جديد. فلم يكن لآرافيس أيّ
أثر. إذ كان يسوق الحصانَين رجلٌ غريب، رجلٌ مُسلّح
لابسٌ ثياباً أنيقة كثياب عبد متقدّم في عائلة شريفة. ولم
يكن منظر بري وهُوين بعدُ مثلَ أحصنة التحميل، بل
كانا مُسرَجَين ومُلجَمين. ففكّر: «تُرى، ماذا يمكن أن يعني
هذا؟ إنّه فخ! لقد قبض بعضهم على آرافيس وعذّبوها
فباحت بالأمر كُلّه. وهم يريدون منّي أن أهبّ واقفاً
وأركض وأتكلّم إلى بري فيُلقوا القبض عليّ أنا أيضاً!
إلّا أنّني إن لم أفعل هذا أفقد فرصتي الوحيدة لملاقاة

الآخرين. آه، يا ليتني أعرف ماذا جرى!» ثُمَّ توارى خلف المقبرة، مُختلِساً النظر كلَّ بضع دقائق، وسائلاً نفسه عن الأمر الأقلّ خطراً والذي يجب أن يفعله.

الفصل السابع

آرافيس في طشبان

إليكَ خبرَ ما جرى فعلاً. لَمّا رأت آرافيس أهل نارنيا يأخذون شصطى على عجل، ووجدت نفسها وحدها مع حصانين تصرَّفا بحكمة فلم يقولا كلمة واحدة، لم تفقد صوابها ولو لحظةً واحدة. فأمسكت برسن بِري ووقفت ساكنة، ممسكةً بكِلا الحصانين. ومع أنَّ قلبها كان يدقُّ دقّات قويّةً كضربات المطرقة، لم تفعل شيئاً يُبدي ذلك. وما إن ذهب سادةُ نارنيا، حتّى حاولت أن تتقدّم من جديد. ولكنْ قبل أن تتمكّن من التقدُّم خطوةً واحدة، سُمع مُنادٍ آخر (ففكّرتْ: «تعساً لهؤلاء القوم جميعاً!») قائلاً: «طريق، طريق، طريق! طريقٌ لأجل الطرقانة لاسارالين!» وفي الحال أقبل وراء المنادي أربعةُ عبيد مُسلّحين، ثمّ أربعة حمّالين حاملين محفّةً تُرفرِف كلُّها بستائر من حرير وتُجلجِل بأجراسٍ من فضّة، مُعطِّرةً الشارع كلَّه برائحة الطيوب والزهور. وكان وراء المحفّةِ بِضعُ جوارٍ لابساتٍ ثياباً جميلة، ثُمّ نفرٌ قليل بين ساعٍ وسائسٍ ووصيفٍ وخادم وما شابه. وعندئذٍ ارتكبت آرافيس غلطتها الأولى.



كانت تعرف لاسارالين جيّداً، تقريباً منذ كانتا تلميذتَي مدرسة معاً، لأنّهما غالباً ما مكثتا في البيوت نفسها وحضرتا الحفلات ذاتها. ولم تستطع آراڤيس منع نفسها عن الالتفات لتنظر هيئة لاسارالين بعدما تزوّجت من رجُلٍ عظيم الشأنِ حقّاً.

فكان ذلك مشؤوماً. إذ تلاقت أعينُ الفتاتين. وفي الحال جلست لاسارالين منتصبةً في المحفّة ونادت بأعلى صوتها:

«آراڤيس! ماذا تفعلين هنا يا تُرى؟ أبوكِ...»

إنّما لم يكن ممكناً تضييعُ لحظة واحدة. فبغير تأخُّرِ ثانيةً واحدة أفلتت آراڤيس الحصانين، وأمسكت بحافة المحفّة، وقفزت لتقعد إلى جانب لاسارالين، هامسةً في أذنها بغضب:

«سكوتاً! هل سمعتِ؟ إخرسي! عليكِ أن تُخبّئيني. قولي لُمرافقيك...»

فقاطعتها لاسارالين بصوتٍ عالٍ مماثل: «ولكنْ يا عزيزتي...» (ولم تكن تمانع بأن تجعل الناس يُحدّقون إليها، بل كانت بالأحرى تحبُّ ذلك.)

وهمست آراڤيس: «افعلي ما أقوله لكِ، وإلّا خاصمتُكِ إلى الأبد. رجاءً، رجاءً، أسرعي يا لاسا. إنّ الأمر مهم كلّ الأهميّة. قولي لُمرافقيكِ أن يأتوا أيضاً بهذين الحصانين. واسدِلي ستائر المحفّة كلّها، واذهبي حالاً إلى أيّ مكان لا يعثرون عليّ فيه. عجّلي، عجّلي!»

فقالت لاسارالين بصوتها الفاتر الكسول: «طيّب، يا عزيزتي. هيّا، ليأخذِ اثنانِ منكم حصانَي الطرقانة (مُخاطبةً الخَدَم.) والآن، إلى المنزل! ما قولك، يا عزيزتي، أمن الضروريّ حقّاً أن نُسدِل الستائر في نهارٍ كهذا؟ أعني أن أقول...»

ولكنْ كانت آراڤيس قد أسدلت الستائر فعلاً، حابسةً لاسارالين ونفسها في شبه خيمة مُعطَّرة وفاخرة، لكنْ مُزعجة، وقالت:

«يجب ألّا يراني أحد. أبي لا يعلم أنّني هنا. فأنا هاربة».

فقالت لاسارالين: «كم هذا مُثير، يا عزيزتي! أنا متلهّفة جدّاً لسماع الخبر كلّه. عزيزتي، إنّك قاعدة على فستاني. هلاّ تسمحين! هذا أفضل. إنّه فستان جديد. هل يعجبك؟ لقد اشتريته من عند...»

قالت آراڤيس: «أُوه، يا لاسا، كوني جادّةً فعلاً! أين أبي؟»

فأجابت لاسارالين: «ألا تعرفين؟ إنّه هُنا بالطبع. لقد جاء إلى المدينة أمس، وهو يسأل عنكِ في كلّ مكان. وما أحسن التفكير بأنّك أنتِ هُنا معي وهو لا يعرف عن الأمر شيئاً! هذا أطرف شيءٍ سمعتُه في حياتي». ثمّ أخذت تقهقه. ولطالما كانت تقهقه قهقهةً مزعجة، كما تذكّرت آراڤيس الآن.

فقالت لها آراڤيس: «ليس في الأمر ما يُضحِك أبداً. الأمرُ جدّي جدّاً. أين يمكنك أن تخبّئيني؟»

قالت لاسارالين: «لا صعوبة أبداً، يا صديقتي العزيزة. سآخذك معي إلى البيت. زوجي مسافر، ولن يراكِ أحد. أفّ! ليس ممتعاً أن تكون الستائر مُسدَلة. أريد أن أرى الناس. لا فائدة إذا كنتِ تلبسين فستاناً جديداً وأنت محبوسةٌ هكذا!»

وقالت آراڤيس: «أرجو ألّا يكون أحد قد سمعكِ لمّا ناديتِني بصوتك العالي».

فأجابت لاسارالين شاردةَ الذهن: «لا، لا، طبعاً يا عزيزتي. ولكنّكِ لم تقولي لي بعدُ ما رأيُكِ في هذا الفستان؟»

وقالت آراڤيس: «أمرٌ آخر بعد: عليك أن تقولي لمُرافقيكِ أن يعاملوا هذين الحصانين بكلّ احترام. وهذا جزءٌ من السرّ. فهما بالحقيقة حصانان ناطقان من نارنيا».

فقالت لاسارالين: «يا له من أمر خيالي رائع! ثُمّ هل رأيتِ، يا عزيزتي، تلك الملكة الأجنبيّة من نارنيا؟ إنّها نازلةٌ في طشبان حالياً. يقولون إنّ الأمير راباداش مفتونٌ بحبّها. وقد أُقيمت في الأسبوعين الأخيرين أروع الحفلات وأعجب مطاردات الصيد. أنا لا أرى أنّها جميلة مثلي. ولكنّ بعضاً من رجال نارنيا جذّابون. فقد خرجتُ قبل أمس إلى حفلةٍ على النهر، وكنتُ لابسةً...»

«كيف نمنع خدمَكِ من نشرِ خبرِ استقبالك لزائرة -لابسةٍ لباس شحّاذٍ كريه- في بيتك؟ فقد يصل الخبر بسهولة إلى مسمع أبي».

فقالت لاسارالين: «لا تقلقي، ولا تضطربي. فهناك حلّ. سنُحضِر لكِ ثياباً لائقة بعد هُنيهة. ها قد وصلنا!»

وكان الحمّالون قد توقّفوا وأخذوا يُنزِلون المحفّة. ولمّا أُزيحت الستائر وجدت آراڤيس نفسها في حديقة داخليّة تُشبِه كثيراً تلك التي أُخِذ إليها شصطى قبل دقائق قليلة في ناحية أخرى من المدينة. وهمّت لاسارالين بدخول البيت حالاً، إلّا أنّ آراڤيس ذكّرتها في همسٍ مذعور بأن تخبرِ العبيد ألا يقولوا لأحدٍ عن ضيفة سيّدتهم الغريبة.

فقالت لاسارالين: «آسفة يا عزيزتي. لقد سهوتُ عن هذا تماماً. انتبهوا، كلُّكم. وأنت أيُّها البوّابُ أيضاً. لَن يخرج أحد منكم من البيت اليوم. وأيُّ مَن أقبض عليه متحدّثاً عن هذه السيّدة الشابّة، فسيُضرب حتّى

الموت ثمَّ يُحرَق حيّاً، وبعد ذلك يعيش على الخبز والماء فقط مُدّة ستة أسابيع. أفهمتم؟»

ومع أنَّ لاسارالين قالت إنّها متلهّفة لسماع قصّة أرافيس، فهي لم تُبدِ أيّة علامة على رغبتها في سماعها قطعاً. وقد كانت في الواقع أبرع بكثير في التكلّم منه في الإصغاء. وألحّت على أرافيس أن تأخذ حمّاماً طويلاً وفاخراً (وقد كانت حمّامات كالورمِن مشهورة)، ثمّ على إلباسها أفخرَ الثياب، قبل أن تدعها تُفسّر أيّ شيء. وكاد الهرج والمرج اللذان أحدثتهما عند اختيار الفساتين أن يُجنّنا أرافيس. وقد تذكّرت إذ ذاك أنَّ لاسارالين طالما كانت كذلك، مشغوفة بالملابس والحفلات والثرثرة. أمّا أرافيس فكانت دائماً أكثر شغفاً بالأقواس والسهام والأفراس والكلاب والسباحة. ولا بدّ لكَ من أن تحزر أنَّ كلتيهما حسبت الأخرى غريبة الأطوار. ولكنْ لمّا جلستا كلتاهما أخيراً بعد تناول وجبة طعام (كانت في معظمها من الكريما المخفوقة والهُلام والفاكهة والمثلّجات) في غرفة جميلة يستقرُّ سقفُها على أعمدة (كان يمكن لأرافيس أن تُعجَب بها أكثر لولا إنَّ سعدان لاسارالين الأليف المدلّل ظلَّ يلعَب ويتسلّق فيها طيلة الوقت)، سألت لاسارالين أرافيس أخيراً عن سبب فرارها من البيت.

ولمّا فرغت أرافيس من حكاية قصّتها، قالت لاسارالين: «ولكنْ، يا عزيزتي، لماذا لا تتزوّجين من الطّرقان أحوشتا؟ إنَّ الجميع معجبون به. ويقول زوجي أنّه بدأ يصير واحداً

من أعظم الرجال في كالورمِن. بل إنّه الآن قد عُيّن وزيراً أوّلَ بعد وفاة أكزارثا الشيخ. أما علمتِ بذلك؟»

فقالت أرافيس: «لا يهمُّني ذلك! لستُ أُطيق رؤيته».

«ولكنْ، يا عزيزتي، فكّري في هذا فقط: ثلاثةُ قصور، أحدها ذلك القصر الجميل تحتَ عند البُحيرة في إلكين، وحبالٌ من الجواهر فعلاً كما قيل لي، وحمّاماتٌ بحليب الأُتُن. ثمّ إنّك تستطيعين أن تقابليني كثيراً!»

أجابت أرافيس: «ليحتفظْ بجواهره وقصوره!»

وقالت لاسارالين: «لطالما كُنتِ بنتاً غريبة الأطوار، يا أرافيس! فماذا تريدين أكثر من هذا؟»

ولكنْ في الأخير استطاعت أرافيس أن تُقنع صديقتها بأنّها جادّة، بل أيضاً أن تجعلها تُناقِشها في الخُطَط. فلا صعوبة الآن في إخراج الحصانَين من البوّابة الشمالية، ومن ثمّ إلى المقابر. إذ إنَّ أحداً لن يُوقِفَ أو يُسائلَ سائساً أنيق الثياب يسوق إلى النهر حصاناً حربيّاً وفرس ركوبٍ لسيّدة، وعند لاسارالين ساسةٌ كثيرون يمكنُها أن ترسِل أحدهم. إنّما لم يكن سهلاً هكذا التقريرُ بشأن ما ينبغي أن يُفعَل بأرافيس نفسها. فاقترحت أنّه يمكن حملها في المحفّة والستائر مُسدَلة. ولكنَّ لاسارالين قالت لها إنَّ المحفّات كانت تُستعمَل داخل المدينة فقط وإنَّ رؤية إحداها خارجةً من البوّابة لا بُدَّ أن تُثير الريبة والأسئلة.

وبعدما تحادثتا وقتاً طويلاً -وقد طال أكثر لأنَّ أرافيس استصعبت أن تُبقيَ صديقتها ضمن الموضوع- صفقت

لاسارالين بكفّيها وقالت: «أوه، عندي فكرة! هنالك طريق واحد للخروج من المدينة بغير استخدام البوّابة. إنَّ بستان السلطان (عاش إلى الأبد!) يصل إلى النهر في الأسفل، وهناك بابُ ماءٍ صغير. إنّه طبعاً مُخصّص لأهل القصر، ولكنّك تعرفين، يا عزيزتي (وهنا تلعثمت قليلاً) أنّنا من أهل القصر تقريباً. وأقول لكِ إنَّ حظّك عظيم لأنّك جئتِ إليّ. فالسلطان العزيز (عاش إلى الأبد!) لطيفٌ جداً. ونحن نُدعى إلى القصر كلَّ يوم تقريباً، وهو لنا كأنّه بيتٌ ثانٍ. وأنا أحبُّ جميع الأمراء والأميرات الأعزّاء، وأهيم بالأمير راباداش فعلاً. ولي أن أندفع إلى الداخل لمقابلة أيّة واحدة من سيّدات القصر في أيّة ساعة من النهار أو الليل. فلماذا لا نتسلّلُ معاً، أنا وأنتِ، بعد حلول الظلام، فأُخرِجَكِ من باب الماء؟ وهنالك دائماً بضعة قوارب صغيرة وأشياء أخرى مربوطة خارجه. حتّى لو وقعنا في يد أحدهم...»

فقالت آرافيس: «يضيع كلُّ شيء!»

وقالت لاسارالين: «يا عزيزتي، لا تقلقي وتضطربي كثيراً! كنتُ أقول: حتّى إن وقعنا في يد أحدهم فإن الجميع سيقولون إنَّ تلك واحدةٌ من مزحاتي الثقيلة. فأنا صرت معروفة جيّداً عند أكثرهم، والأمر سائرٌ على ما يُرام. إنّما منذ بضعة أيّام... أصغي إليّ يا عزيزتي فعلاً، فالأمر طريفٌ جداً...»

فقاطعتها آرافيس قائلةً بشيء من الحدّة: «قصدتُ أنَّ

كلَّ شيء سيضيع بالنسبة إليَّ أنا!»

«أوه، آهٍ، نعم! فهمتُ فعلاً ما قصدتِ، يا عزيزتي. طيّب! هل يمكنكِ أن تفكّري بأيّة خطّة أفضل؟»

ولم يكن يمكن لآرافيس أن تفعل ذلك، فأجابت: «لا! فعلينا أن نخاطر إذاً. متى يمكن أن ننطلق؟»

فقالت لاسارالين: «أوه، ليس الليلة. طبعاً، ليس الليلة. فهناك وليمة كبيرة الليلة (عليَّ البدء بترتيب شعري لأجلها في غضون دقائق)، وسيكون المكان كلّه مشعشعاً بالأنوار، وغاصّاً أيضاً بحشدٍ من الناس كبير! فسنُضطرّ إلى الانطلاق ليلة غد».

كان ذلك خبراً سيّئاً لآرافيس، ولكنْ وجب عليها أن تستغلَّ الحال أحسن استغلال. ومرَّ عصر النهار ببطء شديد، إلّا أنَّ آرافيس استراحت قليلاً لمّا ذهبت



لاسارالين لحضور الوليمة، لأنَّها ملَّت كثيراً قهقهتها وأحاديثها عن الفساتين والحفلات والأعراس وحفلات الخطبة والفضائح. ثمَّ أوت إلى الفراش باكراً، ممَّا أمتعها كثيراً، إذ كان لذيذاً جدّاً أن تنام على ملاءة ومخدَّة من جديد.

غير أنَّ اليوم التالي مرَّ ببطءٍ شديد جدّاً. وقد أرادت لاسارالين أن تُعيد النظر في الخطَّة كلِّها، وظلَّت تقول لآراڤيس إنَّ نارنيا بلاد ثلجٍ دائم وجليد جامد، تسكنها العفاريت والسحرة، وإنَّها مجنونة لإصرارها على الذهاب إلى هناك، ومع صبي فلاّح أيضاً! عزيزتي، فكِّري في هذا! إنَّها بلاد غير جميلة. وفكَّرت آراڤيس في الأمر بمقدارٍ لا بأس به، لكنَّها كانت الآن قد سئمت جدّاً سخف لاسارالين حتَّى بدأت - أوَّلَ مرَّة - تُفكِّر أنَّ السفر مع شصطى كان بالحريِّ أكثر إمتاعاً ومرحاً من العيشة الرتيبة المرفَّهة في طشبان. ومن ثَمَّ أجابت: «لقد نسيتِ أنَّني سأكون نكرة، مثله تماماً، عندما نصل إلى نارنيا. وعلى كلِّ حال، فقد وعدتُ!»

فقالت لاسارالين بصوتٍ يشبه الصراخ: «وهلاَّ تفكرين بأنَّك لو تعقَّلتِ لأصبحتِ على الأرجح زوجة وزيرٍ أوَّل!» ولكنَّ آراڤيس مضت لتقول للحصانَين كلمةً في السرِّ. فقالت لهما:

«عليكما أن تذهبا مع سائسٍ قُبيل الغروب إلى المقابر. لقد تحرَّرتما من تلك الحُزَم والصُّرَر. فسوف تُسرَجان

وتُلجمان من جديد. ولكن سيكون في عِدلَي سرج هُوين بعضُ الطعام، ووراءَ سرجك أنت، يا بِري، قربة ماء ملآنة. وقد تلقَّى الرجل أوامر بأن يسقيكما شربة ماء طويلة وهنيئة عند الطرف الأقصى من الجسر».

فهمس بِري: «ومن ثَمَّ إلى نارنيا والشمال! ولكنْ ماذا لو لم يكن شصطى عند المقابر؟»

قالت آراڤيس: «انتظراه طبعاً! آمل أن تكونا قد استرحتُما جيِّداً».

فقال بِري: «ما حظيتُ في حياتي قبلاً بإيواءٍ أحسن. ولكنْ إذا كان زوج صديقتك الطرقانة، تلك المقهقهة، يدفع لكبير ساسته كي يشتري أفضل الشوفان، فإنِّي أعتقد أن السائس الكبير يغشُّه!»

وتناولت آراڤيس ولاسارالين العشاء في الغرفة المرفوع سقفُها على أعمدة.

ثمَّ بعد نحو ساعتين، استعدَّتا للانطلاق. وقد أُلبِست آراڤيس بحيث تبدو شبيهة بخادمة رفيعة في بيت كبير، ولبست على وجهها حجاباً. واتَّفقتا على أنَّه إذا طُرحت أيَّة أسئلة، تقول لاسارالين تظاهُراً إنَّ آراڤيس عبدةٌ تأخذها هديَّةً إلى واحدٍ من الأُمراء.

خرجت الفتاتان ماشيتين، وبعد دقائق قليلة جدّاً وصلتا إلى أبواب القصر. وكان هنالك بالطبع بعضُ الحُرّاس، لكنَّ قائدهم كان يعرف لاسارالين جيِّداً فدعا رجاله إلى التأهُّب وأدَّى التحيَّة. وفي الحال اجتازتا قاعة

الرخام الأسود. وكان نَفَرٌ لا بأس به من أفراد حاشية السلطان والعبيد وغيرهم ما زالوا يروحون ويجيئون، ولكنّ هذا إنّما قلّل احتمال الاشتباه بأمر الفتاتين. ثم عبرتا إلى قاعة الأعمدة، ثمّ إلى قاعة التماثيل، فنزولاً إلى القناطر، متجاوزَتين الأبواب الكبيرة المصنوعة من النحاس المُطرّق والمؤدّية إلى غرفة العرش. وكان كلّ ما استطاعتا رؤيته هو بمساعدة ضوء المصابيح الباهت كليّ الروعة بصورة تفوق الوصف.

وبعد قليل خرجتا إلى ساحة الحديقة المنحدرة على التلّ في عددٍ من المصاطِب المنبسطة. وعند طرفها الأقصى، وصلتا إلى القصر القديم. وكان الظلام قد حلّ تقريباً، فوجدتا أنفسهما الآن في متاهة من الممرّات لا تُضيئها إلّا مشاعل متفرّقة مُثبّتةٌ على رفوف في الحيطان. ثمّ توقّفت لاسارالين في مكانٍ عليك فيه الذهاب إمّا يميناً وإمّا يساراً.

فهمست آراڤيس: «تابعي السير، تابعي!» وقلبُها يخفق بشدّة وهي ما تزال تحسّ أنّ أباها قد يصادفهما عند أيّة زاوية.

وقالت لاسارالين: «إنّني أتساءل فقط... لستُ متأكّدة في أيّ طريق نذهب من هنا. أعتقد إلى اليسار. نعم، أنا متأكّدة تقريباً، إلى اليسار. كم هذا مُسلٍّ!»

ثمّ سلكتا الطريق الأيسر، فوجدتا أنفسهما في ممرٍّ يكاد يخلو من أيّ ضوء وسرعان ما بدأ ينحدر في أدراج.

فقالت لاسارالين: «كلّ شيء بخير. أنا متأكّدة أنّنا على حقٍّ الآن. فأنا أتذكّر هذه الدرجات». ولكنْ في تلك اللحظة تماماً ظهر أمامهما ضوء متحرّك. وبعد ذلك بثانية واحدة ظهر من وراء زاوية بعيدة شكلٌ قاتم لرجلين يتراجعان إلى الوراء حاملَين شمعتين طويلتين. وبالطبع، لا يمشي الناس متراجعين إلى الوراء إلّا قدّام أفراد الأسرة المالِكة. وقد شعرت آراڤيس بلاسارالين تمسك بذراعها مسكةً مفاجئة تكاد تكون قرصة، من ذلك النوع الذي يعني أن المُمسِك بك مرتعب حقّاً. واستغربت آراڤيس أن تخاف لاسارالين هكذا من السلطان إذا كان بالحقيقة صديقاً ودوداً لها، ولكنْ لم يكن الوقت يتّسع للإمعان في التفكير. إذ كانت لاسارالين تتراجع مسرعةً إلى أعلى الدرج، ماشيةً إلى الوراء على رؤوس أصابع قدميها، ومتلمّسة الحائط بارتباك. ثمّ همست:

«ها هُنا باب. هيّا بسرعة!»

فدخلتا، وردّتا الباب خلفهما بكلّ هدوء، فوجدتا أنفسهما وسط ظلام حالك. وكان في وسع آراڤيس أن تعرف من تنفُّس لاسارالين المتقطّع أنّها مرتعبة.

وهمست لاسارالين: «ليَحمِنا طاش! ماذا نفعل إذا دخل إلى هنا؟ أيمكننا أن نختبئ؟»

كانت تحت أقدامهما سجّادة ناعمة، فتلمّستا طريقهما إلى داخل الغرفة وصادفتا أريكة.

فدمدمت لاسارالين: «لنتمدّدْ خلفها! آه، يا ليتنا لم نجيء!»

وكان بين الأريكة والحائط ذي الستائر مجالٌ كافٍ، فلبدت الفتاتان هناك. ودبّرت لاسارالين أمرها باتّخاذ الوضع الأفضل، فحصلت على تغطية كاملة. ولكنّ الجزء الأعلى من وجه آراڤيس ظلّ بارزاً من وراء الأريكة، بحيث إذا دخل أحدٌ الغرفة وبيده ضوء واتّفق أنّه نظر تماماً إلى حيث هي، فلا بدّ أن يراها. ولكنْ بالطبع لأنّها كانت لابسةً حجاباً لن يكون ما يراه الداخل حالاً بهيئةِ جبين وعينين. ثمّ دفعت آراڤيس لاسارالين يائسةً لعلّها تُفسِح لها في المجالِ قليلاً بعد. ولكنّ لاسارالين، وقد باتت الآن أنانيةً للغاية بسبب ذُعرها، ردّتِ الدفعة وثبّتت قدميها. فتخلّتا عن ذلك وتمدّدتا ساكنتين، تلهثان قليلاً. وقد بدا تنفّسهما ضاجّاً على نحوٍ رهيب، ولكنْ لم يكُن أيُّ صوت آخر مسموعاً.

أخيراً سألت آراڤيس بأخفّ همسٍ ممكن: «أنحنُ في أمان؟»

فشرعت لاسارالين تقول: «أع-أعتقد ذلك. ولكنْ يا لأعصابي الضعيفة...» وعندئذٍ سُمِع أرهب صوتٍ يمكن أن تسمعاه في تلك اللحظة: ضجّةُ فتح الباب! ثمّ جاء ضوء. ولأنّ آراڤيس لم تتمكّن من إدخال رأسها بعد إلى ما وراء الأريكة، فقد رأت كلّ شيء.

أوّلاً دخل العبدان يمشيان إلى الوراء حاملَين الشمعتين (وكانا أطرشين وأخرسين كما حزرت آراڤيس بحقّ، ولذلك كانا يُستخدمان في أكثر المشاورات

سريّة). ووقفا، كلٌّ عند أحد طرفي الأريكة. وقد كان هذا أمراً جيّداً، إذ صار بالطبع أصعب على أيّ شخص أن يرى آراڤيس ما دام قدّامها عبد وهي تنظر من بين عقبَي قدميه. ثمّ دخل رجل كبير السنّ ومُفرِط السمنة، يعتمر قُبّعة غريبة مُدبّبة عرفَت منها في الحال أنّه السلطان. وكانت أقلّ جوهرة من الجواهر التي تحلّى بها بكثرة تُساوي أكثر بكثير من جميع ألبسة سادة نارنيا وأسلحتهم إذا جُمعت معاً. غير أنّه كان بديناً جدّاً، وكُتلةً عجيبة من الريش والطيّات والأربطة والأزرار والشُرّابات والطلاسم، حتّى إنّ آراڤيس لم تقدِر أن تمنع نفسها عن التفكير بأنّ الأزياء النارنيانيّة (للرجال خصوصاً) تبدو أجمل. وبعد السلطان دخل شاب طويل القامة على رأسه عمامة فيها ريش وجواهر، يتدلّى على جنبه سيفٌ معقوف ذو غمدٍ عاجيّ. وقد بدا بالغ التأثّر، وعيناه وأسنانه تبرق بشراسة في ضوء الشمعتين. وآخِر الكلّ دخل رجلٌ كبير السنّ ذابلٌ ذو حدبة خفيفة، ارتعدت إذ عرفت أنّه الوزير الأوّل الجديد والرجل الذي خُطِبَتْ له: آحوشتا الطرقان بذاته!

وما إن دخل الثلاثة الغرفة وأُغلق الباب، حتّى استوى السلطان على الأريكة متنهّداً تنهُّدة اطمئنان، واتّخذ الشاب موقعه أمامه واقفاً. أمّا الوزير الأوّل فجثا على ركبتيه وكوعيه وألصق وجهه بالسجّادة.

الفصل الثامن

في دار السُّلطان

بدأ الشاب يقول: «يا-أبي-ويا-قرّةَ-عيني، » متمتماً الكلمات بكلِّ سرعةٍ وتجهُّم، وليس أبداً كما لو كان السلطان قرّة عينه فعلاً. ثمّ أضاف:

«عشتَ إلى الأبد! ولكنّك أهلكتني تماماً! فلو أعطيتني أسرع السفن عند شروق الشمس، لمّا رأيت أن سفينة هؤلاء الأجنبيّين الملاعين غادرت مَرساها، لرُبّما أدركتُهم ونلتُ منهم. إلّا أنّك أقنعتني بأن أُرسِل أوّلاً من يتحقّق لي هل كان انتقالهم من هناك إلى مَرسىً أفضل. وها قد ضاع الآن النهارُ بطوله، وهم قد مضَوا -قد مضَوا- إلى حيثُ لا تنالهم يدي! يا لها من فتاةٍ مغناج كاذبة، تلك الـ...!» وهُنا أضاف أوصافاً ونعوتاً للملكة سوزان كثيرةً جدّاً لا يليق ذكرها مطبوعةً أبداً. ذلك أنّ هذا الشابَّ كان بالطبع هو الأمير راباداش، كما أنّ المغناج الكاذبة كانت بالطبع هي سوزان الملكة النارْنيانيّة.

فردَّ السلطان: «هدِّىء من روعك، يا بُنيّ! فإنّ رحيل الضيوف يُخلّف لدى المُضيِّف الحكيم جرحاً سريع الالتئام».

وصاح الأمير: «ولكنّني أُريدها فعلاً. يجب أن تكون لي. وسأموت إن لم أحصل عليها، على بنت الكلب تلك السوداء القلب الكذّابة المتكبِّرة! آه، إنّي لا أقدر أن أنام، وقد صار طعامي بلا طعمٍ طيّب واسودّت الدُّنيا في عينيّ، من جرّاء جمالها. يجب أن أحصل على الملكة الأجنبيّة!»

فقال الوزير معلّقاً، وقد رفع وجهه عن السجّادة (مُغبرّاً بعض الشيء): «لقد أحسن الشاعر المُلهَم إذ قال إنّ المرء يحتاج إلى جَرَعاتٍ مُروية من ينبوع العقل لإطفاء هوى الشباب!»

وبدا أنّ ذلك أغضب الأمير، فصاح وهو يركل مؤخّرة الوزير ركلاتٍ جيّدةَ التصويب: «يا كلب، لا تجرؤْ أن تقتبس لي من أقوال الشعراء. فما زالت تنهال عليّ طولَ النهار الأمثالُ والأبياتُ ولست أُطيق سماعها بعد».

ويُخيَّل إليّ أنّ أراڤيس لم ترثِ لحال الوزير ولا رقَّ قلبُها له.



وبدا أنّ السلطان كان غارقاً في التفكير. ولكنْ لمّا لاحظ بعد وقتٍ طويل ما كان جارياً، قال بهدوء:

«يا بُنيّ، هلاّ تكفُّ عن ركل وزيرنا الموقّر والمُنوّر، لأنَّ الجوهرة الثمينة تبقى على قيمتها حتّى لو خُبّئت في كومةٍ من الزِّبل، فهكذا الشيخوخةُ والحكمة يجب أن تُحترَما ولو عند الأدنياء والأردياء من رعايانا. فكُفَّ إذاً عن هذا، وقُل لنا ما ترغبُ وتطلب».

فقال راباداش: «إنّني أرغبُ وأطلب، يا أبتِ، أن تدعوَ في الحال جيشك الذي لا يُقهَر وتغزوَ بلاد نارْنيا الملعونة ثلاثاً، وتُخرِبها بالنار وحدِّ السيف، وتضمّها إلى إمبراطوريتك المُترامية الأطراف، مُعدِماً مَلِكها الأعلى وكلَّ مَن يسري الدم الملوكيُّ في عروقه، ما عدا الملكة سوزان، إذ ينبغي أن آخذَها زوجةً لي، وإن كانت ستتلقّن درساً قاسياً أوّلَ الأمر!»

وأجاب السلطان: «افهم، يا بُنيّ، أنّه ما من كلامٍ تقوله يمكن أن يدفعني إلى شنّ الحرب على نارنيا».

فقال الأمير وهو يصرُّ بأسنانه: «لو لم تكن أبي، أيُّها السلطان الطويل العمر، لقُلتُ إنَّ ذلك كلامُ جَبان!»

وردَّ أبوه: «ولو لم تكُن ابني، يا راباداش شديد الاهتياج والغضب، لطال عذابُك وقصُرت حياتك عقاباً على قولك هذا». (وقد قال ذلك بمنتهى البرودة والجفاف على نحوٍ ملأَ قلب أراڤيس بالرُّعب.)

فقال الأمير، بصوتٍ أكثر احتراماً بكثير هذه المرّة: «ولكنْ لماذا، يا أبتاه، ينبغي لنا أن نتروّى في التفكير بمعاقبة نارْنيا أكثر ممّا نفعل عند شنق عبدٍ كسول أو إرسال

حصانٍ عديمِ النفع إلى مَن يجعله طعاماً للكلاب؟ إنّها ليست بِرُبع مساحةِ واحدةٍ من أصغر ولاياتك. فألفٌ من حاملي الرماح يستطيعون أن يستولوا عليها في غضون خمسة أسابيع. إنّها لطخةٌ دَنِسة على أطراف إمبراطوريّتك!»

وردَّ السلطان: «بلا أدنى شكٍّ هذه البلدان الصغيرة التي تدعو نفسها حُرّة (ممّا يُساوي القول إنّها قومٌ من الكسالى الفوضويّين العديمي النفع) مكروهةٌ عند الآلهة وعند كلّ ذي بصيرة نيّرة».

«فلماذا سمحنا إذاً لبلاد نارنيا، هذه الكريهة، أن تبقى غير خاضعةٍ لنا طوال هذه الفترة؟»

عندئذٍ قال الوزير الأوّل: «اعلَمْ أيُّها الأمير الحكيم الحليم، أنّه حتّى السنة التي فيها باشر أبوك المُعظَّم مُلكه الخيِّر الخالد كانت أرض نارنيا مُغطّاة بالجليد والثلج، كما أنّها كانت تحت حُكم ساحرةٍ قديرة جدّاً».

فأجاب الأمير: «أعرفُ هذا جيّداً، أيُّها الوزير الثرثار المِهذار، ولكنّني أعرف أيضاً أنَّ الساحرة قد ماتت. ثمّ إنَّ الجليد والثلج قد زالا، حتّى باتت نارْنيا الآن مُعافاةً ومُثمِرةً وطيّبة».

«وهذا التغيير، أيُّها الأمير العلاّمة، قد حدث دون شكٍّ بفضل الرُّقى والتعزيمات الفعّالة التي تفوّه بها أولئك الأشخاص الأشرار الذين يدعون أنفُسهم الآن ملوك نارنيا وملكاتها».

فقال له راباداش: «يغلب عندي الرأيُ القائل بأنَّ كلَّ ذلك قد حدث من جرّاء تحوُّل مسارات النجوم وتفاعُل الأسباب الطبيعيّة».

وقال السلطان: «هذا كلُّه مسألةٌ متروكة لمناقشات العُلَماء. ولن أُصدِّق يوماً أنَّ تغييراً عظيماً بهذا المقدار، مع القضاء على الساحرة المعمَّرة، قد جرى بغير استعمال سحر قويّ. وأمورٌ كهذه متوقَّعةٌ في تلك البلاد التي تسكنها بشكلٍ رئيسي أرواحٌ شرّيرة في أشكال حيوانات ناطقة كالبشر ووحوشٌ نصفُ الواحد منها إنسان ونصفه الآخر حيوان. ويقولون عموماً إنَّ ملك نارنيا الأعلى (لعنته الآلهة ورذلته!) يؤازره شيطانٌ بغيض الشكل، ذو شرٍّ لا يُقاوَم، يظهر بهيئة أسد. وعليه، فإنَّ مهاجمة نارنيا مشروعٌ سيّىء ومشكوكٌ بنتائجه، وأنا عاقدُ العزم على عدم الخوض في أيّة مغامرة غير مأمونة العواقب».

عندئذٍ رفع الوزير وجهه من جديد، قائلاً: «تباركت كالورمِن التي سَرَّ الآلهة أن تمنح حاكمها الحكمة والإنصاف وحُسن التمييز! ولكنْ كما قال السلطان الحكيم الذي لا يُدحَض رأيُه، فإنّه لأمرٌ مُرهِقٌ ومؤلم جداً أن نُضطرَّ إلى رفع أيدينا عن نارنيا، هذا الطبق الشهيّ جداً. ولقد كان موهوباً الشاعر الذي قال...» ولكنْ عند هذا الحدّ لاحظ أحوشتا تحريك الأمير إبهام قدمه تعبيراً عن المَلَل، فصمت فجأةً.

ثمَّ قال السلطان بصوته الهادىء العميق: «كم هو مُؤلمٌ لي أن تسودَّ الشمس في عينيَّ كلَّ صباح، وأن يطير

النوم من عينيَّ كلَّ ليلة، إذ أتذكَّر أنَّ نارْنيا تلك ما زالت حُرَّة!»

فقال راباداش: «يا أبتِ، ماذا لو أريتُك طريقةً بها يمكنك أن تمدَّ يدك لأخذ نارْنيا ثمَّ تردَّها سليمةً من الأذى إن لم يُحالفِ الحظُّ مسعاك؟»

«إنِ استطعتَ أن تُريَني تلك الطريقة، يا راباداش، تكونُ خيرَ ابنٍ لي».

«إذاً، اسمعْ يا أبتِ. هذه الليلة وهذه الساعة، سآخذ مئتي حصان فقط، وأعبر الصحراء ركوباً. وسيبدو للجميع أنّك لا تعرف شيئاً عن حملتي هذه. وفي الصباح التالي سأكون عند أبواب قصر الملك لُون في آنفارْد ببلاد أرخيا. فهؤلاء القوم مُسالِمون لنا وغير متأهّبين للقتال، وسأستولي على آنفارْد قبل أن يُستَنفروا. ومن ثمَّ أعبر بخيولي المضيق الواقع فوق آنفارْد، ثُمَّ أنزل إلى كيرپراڤيل عبر نارْنيا. لن يكون الملك الأعلى هناك؛ فلمّا غادرتُهم كان يستعدُّ لغارةٍ على المَرَدة عند حدوده الشماليّة. وسأجد كَيرپراڤيل، على الأرجح، مفتوحة الأبواب، فأدخلها. وسوف أبذل كلَّ جهدي بحرصٍ ولباقة حتّى أسفك أقلَّ قدرٍ ممكن من دماء أهل نارْنيا. عندئذٍ لا يبقى عليَّ إلّا أن أجلس هناك منتظراً دخولِ 'البلّورة الفاخرة' المرفأ وعلى متنها الملكة سوزان، فأقبض على عصفورتي التائهة حالما تترجّل على الشاطىء، وأرفعها إلى السَّرج بسرعة، ثمَّ أعود راكباً راكباً راكباً إلى آنفارْد».

فقال السلطان: «ولكنْ، ألا يُحتمَل، يا بُنيّ، أنّه عند اختطافك للمرأة قد تفقد أنت حياتك، أو يفقد الملك إدمون حياته؟»

أجاب راباداش: «سيكونون جماعة صغيرة. وسوف آمر عشرة من رجالي بنزع سلاحه وتقييده، كابحاً تعطُّشي الشديد إلى دمه، حتّى لا يكون سببٌ رهيب للحرب بينك وبين الملك الأعلى».

«وماذا يكون لو سبقتك 'البلّورة الفاخرة' في الوصول إلى كَيرپراڤيل؟»

«لا أتوقّع حصول ذلك، يا أبتِ، بوجود هذه الرياح!»

«وأخيراً، يا بُنيّ الذكيّ، لقد بيّنت كيف يمكن أن يُعطيك هذا كلّه تلك المرأة الأجنبيّة البربرية، ولكنْ لم توضّح كيف يُيسّر هذا لي إطاحة نارْنيا!»

«يا أبتاه، أيُعقل أن يكون قد سها عن بالك أنّه إن كنتُ أنا وخيّالتي سندخل نارنيا ونخرج دون عائق، كسهم يُطلَق من القوس، فسنستولي على أنفارْد إلى الأبد؟ وعندما تُسيطر على أنفارْد، تقعد عند بوّابة نارنيا تماماً، ويصير ممكناً أن تزيد حامِيَتك في أنفارد قليلاً قليلاً حتّى تصير جيشاً كبيراً».

«كلامُك هذا صادرٌ عن فهمٍ وتبصُّر. ولكنْ كيف أسحب يدي إذا أخفق هذا كلّه؟»

«عندئذٍ تقول إنّي فعلت ذلك بغير علمك، وعكس إرادتك، ودون مُباركتك، إذ سيطر عليّ هوى حُبّي وطيشُ الشباب».

«وماذا يكون إذا طالب الملك الأعلى بإرجاع الأجنبيّة البربرية، أختِه؟»

«يا أبتاه، كُن على ثقةٍ بأنّه لن يُطالِب بذلك. فإن قامت امرأةٌ بدافع من خيالها وأوهامها برفض هذا الزواج، فإنّ الملك الأعلَى بطرس رجلُ حكمةٍ وفطنة، ولن يرغب بأيّ حالٍ من الأحوال في تضييع الشرف الرفيع والامتياز السامي الكامِنَين في التحالُف مع أُسرتنا، وفي رؤية حفيده وابن حفيده على عرش كالورمِن».

وهنا قال السلطان بصوتٍ أكثر جفافاً من المعتاد: «لن يرى ذلك حتماً إن عشتُ إلى الأبد كما تتمنّيان لي بلا شكّ!»

فأجاب الأمير بعد هُنَيهة من الصمت الرهيب: «وأيضاً يا أبي ويا قُرّة عيني، سنكتب رسائل تبدو من الملكة تقول فيها إنّها تحبُّني ولا ترغب أبداً في الرجوع إلى نارْنيا. فمن المعلوم جيّداً أنّ النساء متقلّبات مثل ديك اتّجاه الرياح. حتّى لو لم يصدّقوا الرسائل بجملتها، فلن يجرؤوا على القدوم إلى طشبان حاملين السلاح لإرجاعها».

وقال السلطان: «أيها الوزير الخبير، تكرّم علينا بنصيحتك في شأن هذا المشروع الغريب!»

فأجاب آحوشتا: «أيها السلطان الخالد، إنّ حدّة العاطفة الأبويّة ليست مجهولةً عندي، وغالباً ما سمعتُ أنّ الأبناء أثمن في عيون آبائهم من الجواهر. فكيف

أتجاسر إذاً على أن أبوح لك بما في داخلي في مسألةٍ قد تُعرِّض للخطر حياة هذا الأمير المعظَّم؟»

وردَّ السلطان: «ستتجاسر بلا شكَّ! لأنك ستجد أنَّ أخطار عدم القيام بهذا هي على الأقلّ كبيرةٌ بالمِثل».

فأنَّ الوزير التَعِس قائلاً: «سمعاً وطاعة! فاعلمْ إذاً، أيُّها السلطان الكلِّيُّ الفطنة، أنَّ الخطر الذي يتعرَّض له الأمير ليس بجملته عظيماً كما قد يبدو. فإنَّ الآلهة قد حجبت عن الأجنبيِّين البرابرة نور الحكمة، حيث إنَّ شِعرهم ليس مثل شعرنا حافلاً بالحِكَم الممتازة والأمثال المفيدة، بل هو كلُّه عن الحبِّ والحربْ. وعليه، فلن يبدوَ لهم أيُّ شيءٍ أشرفَ وأدعى للإعجاب من مثل هذا المشروع المتهوِّر... اي!» إذ إنَّ الأمير ما إن سمع كلمة «المتهوِّر»، حتَّى ركله من جديد.

عندئذٍ قال السُّلطان: «كُفَّ عن هذا، يا بُنيَّ. وأنت، أيُّها الوزير المحترم، سواءٌ كفَّ أم لم يكفَّ، فلا تسمحْ أبداً بمقاطعة تدفُّق فصاحتك! فليس من شيء أنسب لأهل الوقار واللياقة من احتمال الإزعاجات اليسيرة بثبات».

فأجاب الوزير، مُزيحاً مؤخَّرته قليلاً لإبعادها عن رأس قدَمِ راباداش: «سمعاً وطاعة! أقول إنَّه لن يبدو هذا المسعى ... المحفوف بالخطر شيئاً يتطلَّب غفراناً، بل أمراً يستحق التقدير، ولاسيَّما لأنَّه يتمُّ في سبيل حُبِّ امرأة. وعليه، فإذا وقع الأمير في أيديهم من نكد الحظّ، فلن يقتلوه،

بكلِّ تأكيد. لا بل إنَّه وإن أخفق في اختطاف الملكة فرؤية بسالته الفائقة وشدَّة شغفه قد تُميل قلبَها إليه».

وهنا قال راباداش: «أحسنت بهذا، أيُّها الثرثار المِهذار! جيِّدٌ جداً، بغض النظر عن الطريقة التي بها خطر هذا في رأسك البشع».

فردَّ آحوشتا: «إنَّ مُنية قلبي هي إسداءُ مشورةٍ تسرُّ سيِّديّ. ثمَّ إنِّي أعتقد، أيُّها السُّلطان الذي لن يكون لملكه نهاية، أنَّه بعون الآلهة يُرجَّح جداً أن تسقط آنفارد بيد الأمير. وعندئذٍ نمسك بخناق نارْنيا!»

ثمَّ سادت فترة صمت طويلة وعمَّ السكون الغرفة حتَّى لم تكد البنتان تستجرئان أن تتنفَّسا. وأخيراً تكلَّم السلطان قائلاً:

«اذهبْ، يا بُنيّ، واعمل كما قُلت. ولكنْ لا تتوقَّع مساعدةً أو مساندة منّي. فلن أثأر لك إذا قُتلت، ولن أُنقذك إذا زجَّ بك البرابرة في السجن. وسواءٌ نجحت أم أخفقت، فإنْ سفكتَ نقطة دم واحدة فوق ما ينبغي من الدم النارْنيانيِّ النبيل، ونشبت حربٌ سافرة من جرّاء ذلك، فلَن تنعم من جديد برضاي، وسيتولَّى أخوك التالي مقامك في كالورمِن. والآن اذهبْ، وكُن سريعاً ومتخفِّياً وموفَّقاً. ولتُرافِق سيفَك ورمحَك قوَّة طاش، الغلّابِ البطّاش!»

فهتف راباداش: «سمعاً وطاعةً!» وبعدما ركع هُنيهةً وقبَّل يدَي أبيه، اندفع خارجاً من الغرفة. وخيبة آراڤيس

الشديدة -وقد باتت الآن متشنّجة بشكلٍ رهيب- بقي السلطان والوزير.

ثمّ قال السلطان: «أيّها الوزير، مؤكّدٌ أنّه ما من نفسٍ حيّة قد علمت بهذه المُشاورات التي عقدناها الليلة هنا».

فأجاب آحوشتا: «نعم يا مولاي، لا يمكن أن يعرف أحد. فلذلك السبب بعينه اقترحتُ عليك، وأنت بحكمتك وافقت، أن نجتمع هُنا في القصر العتيق، حيث لا تُقام أيّة جلسة مشاورة أبداً، ولا فرصةَ بأن يأتي أيُّ شخصٍ من أهل القصر».

قال السلطان: «حسناً، إن عرف أيُّ إنسان، فسآمر بقتله قبل أن تمضيَ ساعة واحدة. وأنت أيضاً، أيّها الوزير العاقل، انسَ الأمرَ كُلّه، فإنّي أمحو من قلبي ومن قلبك أيَّ علم بخُطط الأمير. لقد ذهب بغير علمي أو موافقتي، ولستُ أدري إلى أين مضى، باندفاعه العنيف وطيش الشباب الذي لا يلين .ولن يكون أيُّ إنسانٍ أكثر ذهولاً منك ومنّي عند السماع بوقوع أنقارْد في يده!»

فقال آحوشتا: «سمعاً وطاعةً، يا مولاي!»

وأضاف السلطان:

«ولذلك لن تُفكّر، ولو داخل قرارة قلبك، أنّني أقسى الآباء قلباً بحيث أبعث ابني البكر في مسعًى قد يكون عِلّةَ موته، مهما كان ذلك سارّاً لك لكونك لا تحبُّ الأمير. فإنّني أستطيع أن أقرأ أفكارك!»

فأجاب الوزير: «أيّها الملك المعصوم، بالقياس بمحبّتي لك لستُ مُحبّاً للأمير ولا لحياتي بالذات، ولا للخبز والماء، ولا لنور الشمس».

وقال السلطان: «إنّ مشاعرك سامية وصادقة. وأنا أيضاً لا أُحبُّ شيئاً من ذلك كلّه بقدر محبّتي لمجد عرشي وعزّته. فإن نجح الأمير، كانت لنا بلاد أرخيا، وربما نازْنيا من بعدها. وإن أخفق، فلي ثمانية عشر ابناً غيره. ثمّ إنّ راباداش، كعادة أكبر أبناء الملوك، كان قد بدأ يصير خَطِراً. فأكثر من خمسة سلاطين في طشبان قد ماتوا قبل أوانهم لأنّ أبناءهم الأبكار، وهم أُمراء مستنيرون، سئموا انتظار تسلُّمهم الملك. وخيرٌ له أن يُبرّد دمه في الخارج من أن يغليَ هنا بسبب الانتظار المُملّ. والآن، أيّها الوزير الفاضل، فإنّ فرط قلقي الأبويّ يدفعني إلى النعاس. فأصدر الأمر بأن يأتي العازفون إلى غرفتي. ولكنْ قبل أن تضطجع، ألغِ العفو الذي كتبناه للطبّاخ الثالث. فإنّني أُحِسُّ في داخل أحشائي أعراضَ سوء الهضم الأكيدة!»

فردَّ الوزير الأوّل قائلاً: «سمعاً وطاعة!» وزحف إلى الوراء على يديه ورجليه نحو الباب، ثمّ نهض وانحنى



ومضى. ولكنْ عندئذٍ أيضاً بقي السلطان قاعداً بصمتٍ على الأريكة، حتّى كادت آرافيس تتوهّم أنّه نام فعلاً. إلّا أنّه في الأخير نهض بجسمه الضخم، في صريرٍ كثير وتنهُّدٍ شديد، وأومأ إلى العبدَين أن يتقدَّماه بالنور، ثمّ خرج. وما إن أُغلِق البابُ خلفه، وعمَّ الظلام الحالك الغرفة من جديد، حتّى تنفّست الفتاتان الصُّعَداء وبدأ روعُهما يهدأ.

الفصل التاسع

عبرَ الصحراء

قالت لاسارالين شاكيةً: «كم هذا كريه! إنّه بغيضٌ جدّاً! آه يا عزيزتي، أنا خائفة كثيراً، إنّني أرتجف. جسّيني!»

فأجابتها آرافيس، وهي ترتجف أيضاً: «هدوءاً! لقد رجعوا إلى القصر الجديد. فما إن نخرج من هذه الغرفة، حتّى نغدوَ في أمانٍ تامّ. ولكنّ هذا ضيّع كثيراً من وقتنا الثمين. فانزلي بي إلى باب الماء ذاك بأسرع ما يمكنك».

وزعقت لاسارالين: «كيف يمكننا ذلك يا عزيزتي؟ لا أقدر أن أفعل شيئاً، على الأقلّ الآن. يا لأعصابي الضعيفة! لا، ما علينا إلّا أن نتمدّد قليلاً بعدُ بلا حراك ثمّ نرجع؟»

فسألتها آرافيس: «ولماذا نرجع؟»

قالت لاسارالين، وقد شرعت تبكي: «آه، أنتِ لا تفهمين. إنّكِ قاسية القلب جدّاً!» ولكنّ آرافيس رأت أنّ الوقتَ ليس وقت شفقة. فأمسكت بلاسارالين وهزّتها هزّاً، وهي تقول:

«انظري إليَّ! إن تُلتِ كلمةً أخرى بشأن الرجوع، وإن لم تنطلقي بي في الحال إلى باب الماء ذاك، فهل تعرفين ما سأفعله؟ سأندفع إلى الممرّ خارجاً وأُصرّخ. وعندئذٍ يُلقى القبض علينا معاً».

فردَّت لاساراليِن: «ولكننّا كِلتينا سَ-سَ-سنُقتَل! أما سمعتِ ما قاله السُّلطان (عاش إلى الأبد!)؟»

«نعم، وأنا أُفضّل الموت على الزواج من آحوشتا. فهيّا بنا!»

فقالت لاساراليِن: «آه، أنتِ غير لطيفة، وأنا في حالةٍ مزريةٍ!»

إلّا أنّها اضطُرّت في النهاية إلى الإذعان لأرافيس. فتقدَّمتها نزولاً على الدرج الذي سبق أن نزلتا عليه، ثمّ على طول ممرّ آخر، وأخيراً إلى الهواء الطلق. وقد خرجتا إلى حديقة القصر المنحدرة نحو سور المدينة في مصاطب منبسطة. وكان القمر مشرقاً بضوئه القويّ. وأنت تعرف أنّ أحد العوائق في المغامرات هو أنك حين تصل إلى أجمل الأماكن تكون في الغالب كثير التوتّر والعجلة بحيث يفوتك أن تتمتّع بجمالها. وعليه، فإنّ أرافيس (وإن كانت قد ظلّت تتذكّر تلك الأماكن طوال سنين لاحقة) لم تحصل إلّا على انطباع مُبهَم عن مروج باهتة، وعيونِ ماء تُبقبِق بهدوء، وظلالٍ سوداء طويلة تُلقيها أشجار السرو.

ولمّا وصلتا إلى القعر وبدا السور العالي شاهقاً فوقهما، كانت لاساراليِن ترتجف كثيراً حتّى عجزت عن سحب

مزلاج الباب، فقامت أرافيس بذلك. فإذا أمامهما النهرُ أخيراً وضوء القمر ينعكس على مياهه، ومنصّةُ نزولٍ صغيرة، وبضعة قوارب تنزُّه.

وقالت أرافيس: «وداعاً! شُكراً لكِ. آسِفةٌ إن قَسَوتُ عليكِ قليلاً، ولكنْ لا تنسَي ممّا أنا هاربة!»

فقالت لاساراليِن: «أوه يا عزيزتي أرافيس! ألن تُغيّري رأيكِ؟ فأنتِ الآن قد رأيتِ أيُّ رجُل عظيم هو آحوشتا!»

أجابت أرافيس: «رجُل عظيم! إنّه عبدٌ بغيضٌ ينبطح أمام سادته، ويسترضيهم إذا ركلوه، ولكنّه يدّخر ذلك كلّه ويأمل أن يحصل على مُبتغاه بتحريض السلطان الكريه على التآمر لقتل ابنه. كلّا! اتفّوا! أُفضّل أن أتزوّج خادمَ طبّاخ أبي على التزوّج من مثل هذا المخلوق الدنيء».

«أوه، يا أرافيس، أوه! كيف يمكنك أن تقولي مثل هذه الأمور الرهيبة، وعنِ السلطان أيضاً (عاش إلى الأبد)؟ لا بدَّ أن يكون الأمر صائباً إن كان هو ينوي أن يفعله!»

فقالت أرافيس: «وداعاً! وعلى فكرة، أعتقد أنّ فساتينك جميلة. كما أعتقد أنّ بيتكِ ظريف أيضاً. فأنا واثقة بأنّك ستعيشين حياةً حلوة، وإن كانت لا تناسبني أنا. أغلِقي الباب ورائي بهدوء».

ثمّ انسلخت عن معانقة صديقتها الوديّة، ونزلت إلى قاربٍ صغير خفيف، وانطلقت به غارزةً المجذاف الطويل مراراً في مجرى النهر، وبعد لحظةٍ بلغت عُرض النهر، وفوق

رأسِها قمرٌ كبير حقيقيٌ وعلى صفحة الماء في الأسفل قمر كبير منعكس. وقد كان الهواء بارداً ومنعشاً. وإذِ اقتربت أكثر إلى الضفّة الأُخرى سمعت نعيب بومة. ففكّرت: «آهٍ! هذا أفضل!» فإنّها كانت قد عاشت في الريف دائماً، وقد كرهت كلَّ دقيقة قضتها في طَشبان.

وعندما ترجّلت على ضفّة النهر، وجدت نفسها وسط الظلام، لأنَّ ارتفاع الأرض والأشجار حجبت عنها ضوء القمر. غير أنّها استطاعت أن تعثر على الطريق الذي سبق أن عثر شصطى عليه، ووصلت كما سبق أن وصل هو إلى نهاية العشب وبداية الرمل. ونظرت (كما نظر هو) إلى يسارها فرأت المقابر السوداء الكبيرة. والآن أخيراً، رغم كونها فتاةً شُجاعة، استولى الجبن على قلبها. ماذا لو لم يكن الآخرون هناك؟ ماذا لو كانت هنالك غِيلان؟ ولكنّها أبرزت ذقنها (وجزءاً يسيراً من لسانها أيضاً) وتقدّمت نحو القبور مباشرةً.

ولكنّ قبل وصولها إلى المقابر، رأت برِي وهُوين والسائس. فقالت له: «يمكنك أن ترجع إلى سيّدتك الآن (ناسيةً تماماً أنّه لا يقدر أن يرجع قبل فتح أبواب المدينة صباحَ الغد). هاك مبلغاً من المال نظير أتعابك!»

فأجاب السائس: «سمعاً وطاعةً!» وانطلق في الحال بسرعةٍ ملحوظة نحو المدينة ولم يكن من داعٍ لحثّه على الإسراع؛ إذ إنّه هو أيضاً كان يفكّر في الغِيلان تفكيراً كثيراً.

ثمَّ مرّت الثواني القليلة التالية وأرافيس منشغلة بتقبيل أنفَي هُوين وبري، وتربيتِ رقبتيهما، كما لو كانا حصانين عاديَّين تماماً.

إذ ذاك قال برِي: «وها هو شصطى! شكراً جزيلاً للأسد!»

فالتفتت آرافيس وإذا خلفها تماماً شصطى، وقد خرج من مخبإه لحظة رؤيته السائس مُغادِراً. فقالت آرافيس: «والآن، ليس عندنا لحظةٌ واحدة نُضيّعها». ثمّ أخبرتهم، في كلماتٍ معجّلة، بحملة راباداش.

فقال برِي، مُنفّضاً عُرفَه وضارباً الأرض بحافره: «يا لهم من كلاب غدّارة! أيُغيرون في زمن السِّلم، بغير إرسال رسالة تحدٍّ؟ ولكنّنا سنتأهّب لردّ غارته، إذ إنّنا سنصل إلى هناك قبله!»

فسألت آرافيس: «أنستطيع ذلك؟» وهي تقفز وتستوي على سَرج هُوين. وتمنّى شصطى لو يمكنه أن يمتطي برِي مثلما فعلَت.

وقال برِي صاهلاً: «ابروهووه! هيّا اركبْ، يا شصطى! نستطيع ذلك! وبانطلاقةٍ جيّدةٍ أيضاً!»

فأوضحت آرافيس: «قال راباداش إنّه ينوي الانطلاق في الحال».

وقال برِي: «هكذا يتكلّم البشر! ولكنّ ليس في وسع المرء أن يحشد مئتَي فَرَس ومئتَي فارس ويسقيَهم ويُطعِمهم ويُسلّحهم، ويُسرِجَ الخيول ويُلجِمها، في

دقيقة واحدةٍ فقط. والآن، ما وجهتنا؟ هل الشمال مُقابِلَنا؟»

فأجابه شصطى: «لا! فأنا أعرف هذا. لقد رسمتُ خطأً. وسأشرح الأمر لاحقاً. ولكنْ لِنَمِل قليلاً إلى يسارنا، أيُّها الحصانان كلاكما. آهٍ، أحسنتُما!»

وقال بِري: «والآن، لا يمكننا فعلاً أن نعدوَ نهاراً وليلاً بلا توقُّف، كما في القصص. فعلينا أن نمشي حيناً ونهروِل حيناً، إنَّما هرولةً سريعةً ومشياً قصيراً. وكلَّما مشينا، يمكنكما أنتما البشريَّين أن تترجَّلا وتمشيا أيضاً. والآن، أمستعدَّةٌ أنتِ يا هُوِين؟ هيَّا بنا، إلى نارنيا والشمال!»

كان الأمر مُبهِجاً في البداية. فإنَّ الليل كان قد بدأ منذ ساعات بحيث كفَّت الرمال تقريباً عن إصدار الحرارة التي اختزنتها نهاراً، وكان النسيم بارداً وعليلاً ومنعشاً. وتحت ضوء القمر تلألأتِ الرمال، في كلِّ ناحية وعلى مدى النظر، كما لو كانت مياهاً ساكنة أو صينيَّة فضيَّة كبيرة جدّاً. وما عدا وقْع حوافر بِري وهوين، لم يُسمَع صوت. وكاد النعاس يغلب شصطى لو لم يكُن عليه من حين إلى آخر أن يترجَّل ويمشي.

وقد بدا أنَّ ذلك استمرَّ ساعات طويلة، حتَّى جاء وقتٌ اختفى فيه القمر، وخُيِّل إليهما أنَّهما يركبان ساعات وساعات وسط الظلمة الحالكة. وبعد ذلك جاءت لحظةٌ لاحظ فيها شصطى أنَّه يستطيع أن يرى عنق بِري ورأسه أمامه أوضحَ قليلاً من ذي قبل. ثمَّ ببطء، ببطءٍ شديد،

بدأ يُلاحِظ المُنبَسطات الرماديَّة المترامية الأطراف من كلِّ ناحية. وبدا له كلُّ شيء عديمَ الحسِّ والحياة تماماً، كما لو كان في عالم أموات. وقد شعر بأنَّه مُرهَق أيَّ إرهاق، ولاحظ أنَّه أخذ يبرد، وأنَّ شفتيه ناشفتان. وكان يُسمَع كلَّ حين صريف سيور الجلد، وصلصلة حديد اللجامين، ووقْع الحوافر: لا «ابروبَطّي ابروبَطّي» كما على طريقٍ صُلب، بل «طبَّدي طبَّدي» على الرمال الجافَّة.

وأخيراً، بعد ساعاتٍ من الركوب، وبعيداً جدّاً إلى يمين شصطى، لاح شريط وحيدٌ وطويل من اللون الرماديِّ الأكثر شحوباً، في أسفل الأفق. ثُمَّ شريطٌ أحمر اللون. فقد طلع الصباح في الأخير، ولكنْ بغير عصفور واحد يُغرِّد له. وسرَّه الآن أن يتمتَّع بفترات المشي، لأنَّه شعر بالبرد أكثر من ذي قبل.

ثمَّ أشرقت الشمس فجأةً، وتغيَّر كلُّ شيء في لحظة واحدة. فإذا بالرمال الرماديَّة تصير صفراء وتتلألأ كما لو أنَّها كانت مُغطَّاةً بحبَّات الماس. وإلى الجانب الأيسر، تسابقَت مع شصطى وهُوِين وبِري وآرافيس ظلالُهم الهائلةُ الطول. وتألَّقت في البعيد أمامهم قمة جبل باير المُزدوِجة تحت ضوء الشمس، فتبيَّن لشصطى أنَّهم قد مالوا عن خطِّ سيرهم قليلاً. فغنَّى قائلاً: «قليلاً إلى اليسار، قليلاً إلى اليسار». وأحسنُ كلِّ شيء أنَّك لو نظرتَ إلى الوراء نحو طشبان لَوجدتَها قد صارت صغيرةً وبعيدةً جدّاً. وباتتِ المقابر خارج مرمى النظر كلّيّاً، إذ ضاعت

معالمها في التلّة المنفردة المُسنّنة الأطراف التي لم تكن إلّا طشبان، مدينة السلطان. وشعر الجميع بأنّهم أحسن حالاً.

إلّا أنّ ذلك لم يدُم طويلاً. فمع أنّ طشبان بدَت بعيدة جدّاً لمّا شاهدوها أوّلاً، فقد أبَت أن تبدوَ أبعد قليلاً بعدُ فيما واصلوا سيرهم. وتخلّى شصطى عن النظر إلى الوراء لرؤيتها، لأن ذلك إنّما خلّف لديه انطباعاً بأنّهم لم يكونوا يتقدّمون بتاتاً. ثمّ صار ضوء الشمس مصدر إزعاج. فقد آلم وهج الرمال عينيه، ولكنّه كان يعرف أنّ عليه ألّا يُطبقهما، بل يفتحهما قسراً شيئاً فشيئاً ويظلّ شاخصاً إلى جبل باير ومُصدِراً توجيهاته بصوتٍ عالٍ. ثمّ جاء الحرّ المزعج. وقد لاحظه أوّلَ مرّة لمّا كان عليه أن يترجّل ويمشي: فما إن هبط على الرمال برفقٍ حتّى سفعت وجهَهُ الحرارةُ المنبعثة منها كما من باب فُرنٍ يُفتَح. وفي المرّة التالية كان ذلك أسوأ. ولكنّ في المرّة الثالثة، ما إن مسّت قدماه الحافيتان الرمل حتّى صرخ من الألم وردَّ فجأةً إحدى قدميه إلى الرِكاب، واضعاً الأخرى فوق ظهر بري جزئيّاً. ثمّ قال لاهثاً:

«عفواً، يا بِري! لا أقدر أن أمشي. فهذا يحرق قدميَّ!»

فقال بِري، لاهثاً هو أيضاً: «طبعاً، كان عليَّ أن أفكّرَ بهذا أنا نفسي. ابقَ راكباً، فما باليد حيلة!»

ثمّ قال شصطى لأراڤيس، وقد كانت تمشي بقرب هُوين: «لا بأس عليكِ أنتِ، ففي قدمَيكِ حذاء».

فلم تقُل أراڤيس كلمةً واحدة، وبدا أنّها زمّت شفتيها تأنّفاً وكرهاً لما يجري. وكنّا نودُّ لو لم تقصد ذلك، إلّا أنّها قصدت.

ومن جديدٍ عادت الهرولة، فالمَشي فالهرولة، والصرير والصريف والصَلْصلة والجَلْجلة، ورائحة عَرَق الحصانين اللذين أرهقتهما الحرارة، ورائحةُ عَرَق البشريَّين المحرورَين، والوهجُ الذي يبهر البصر، ووجعُ الرأس. ولم يتغيّرْ شيء قطّ كيلومتراً بعد كيلومتر. فقد أبَت طشبان أن تظهر أبعد ولو قليلاً، ولم تكن الجبال لتبدو أقرب ولو قليلاً. وكنتَ تشعر أنّ ذلك ما يزال جارياً كلّ حين، ومعه صريفٌ وصرير وجلجلة وصلصلة، ورائحةُ حصانَين أضنتهما الحرارة وبشريَّين محرورَين.

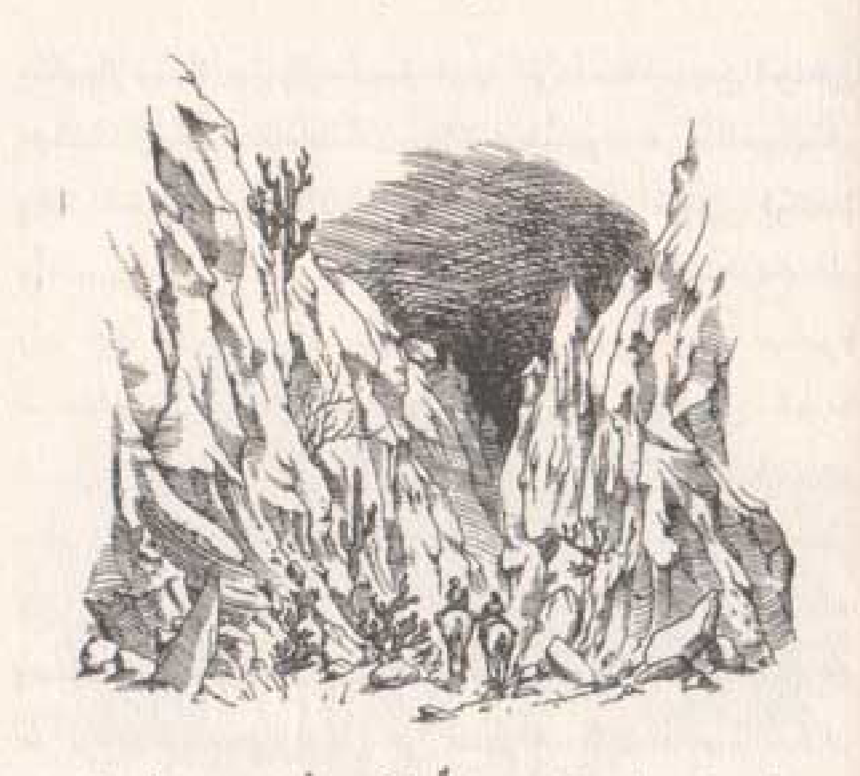
وبالطبع، جرّب شصطى وأرافيس كلاهما كُلّ حيلةٍ على الذات لعدم الشعور بمرور الوقت، ولكنّ بالطبع لم ينفع شيء قطّ. وحاولا بكلّ جهدٍ ألّا يُفكّرا في المشروبات: من شراب مُثلّج في قصر بطشبان، وماء ربيعيّ صافٍ يترقرق ويخرّ خريراً مشوّقاً، وحليب بارد سائغ لا كثير الدسم ولا قليله. وكلّما بذلا جهداً أكثر لعدم التفكير بذلك كلّه، زاد تفكيرهما به واشتدّ.

أخيراً برز شيء مختلف: كتلةٌ من الصخر ناتئة فوق الرمال، طولُها نحو أربعين متراً وعُلُوها نحو عشرين. لم يكن ظلّها كبيراً، إذ كانت الشمس آنذاك في أعلى السماء، ولكنّ كان لها ظلٌّ كافٍ. في ذلك الظلّ تجمّعوا، وهنالك

أكلوا شيئاً من الطعام، وشربوا قليلاً من الماء. ومع أنَّ من الصعب إعطاءَ حصانٍ شربةَ ماء من قربةٍ جلديَّة، فقد كان بري وهُوين بارعَين في استخدام شفاههما لذلك. إلَّا أنَّ أيّاً من الأربعة لم يشبع ولا ارتوى، ولم يقُل أحدٌ منهم كلمة، وكان الزَبَد يتقطَّر من فَمَوي الحصانين وتنفُّسهما يُسمَع عالياً. أمّا الولدان فقد بدا عليهما الشحوب.

وبعد استراحةٍ قصيرة جدّاً، تابعوا السير من جديد. وعادت الأصوات والروائح عينُها، والوهجُ عينُه، حتّى أخذت ظلالهم أخيراً ترتمي إلى يمينهم، ثمَّ صارت تتطاول بحيث بدا أنّها تمتدُّ إلى زاوية العالم الشرقيَّة. وببطء شديد اقتربت الشمس من الأفق الغربيّ، حتّى غابت أخيراً – والحمد لله! – وزال الوهج الذي لا يرحم، مع أنَّ الحرارة المنبعثة من الرمال كانت ما تزال سيِّئةً كالمُعتاد. وأخذت أربعةُ أزواج من الأعيُن تبحث بلهفة عن أيَّة علامة على الوادي الذي تحدَّث عنه الغُراب عُلَيمان. ولكنْ كيلومتراً بعد كيلومتر، لم يكن من شيء سوى الرمال المنبسطة. وكان النهار آنذاك قد ولّى تماماً، ومعظم النجوم قد طلعت، وما زال الحصانان ماضيَين كالرعد والولدان يهتزّان صعوداً ونزولاً على سَرجَيهما وقد أنهكهما العطش والتعب كثيراً. ولم يكن إلّا بعد طلوع القمر أنْ صاح شصطى قائلاً، بذلك الصوت الخشن الغريب الذي يصدر عن شخص جفَّ حلقُه تماماً:

«ها هو هُناك!»



ولم يكن في ذلك شكٌّ الآن. فأمامهم، وإلى اليمين قليلاً، برز أخيراً مُنحدَرٌ يَهوي نزولاً وعلى كِلا جانبيه تلال صخريَّة. وكان الحصانان قد هدَّهما التعب حتّى أعياهما أن يقولا كلمةً واحدة، غير أنَّهما انعطفا بسرعة واندفعا نحو الوادي، وبعد دقيقة أو دقيقتين عَبرَا الأخدود. وكانت الحال هنا في البداية أسوأ ممّا كانت عليه في الصحراء المكشوفة، لأنَّ الأسوار الصخريَّة وقلَّة ضوء القمر كادت تجعل التنفُّس مستحيلاً. وكان المنحدر ما يزال شديد الانحدار والصخور إلى كلا الجانبين مرتفعة بعُلُو جُرُفٍ صخريّ شاهق. ثمَّ بدأ يظهر شيء من الاخضرار: نبات يشبه الصُبّار وعشبٌ قاسٍ من النوع الذي يَخِز أصابعك. وسرعان ما بدأت حوافر الحصانين تقع على الحصى

والحجارة بدلاً من الرمال. وحول كلّ مُنعَطفٍ من الوادي -وقد كان كثير المنعطفات- كانوا يُفتّشون عن الماء بلهفة. وكان الحصانان آنذاك قد وصلا تقريباً إلى مُنتهى قوّتهما وأخذت هُوين تمشي متثاقلةً وراء بِري وهي تتعثّر وتلهث. وإذ كاد اليأس ينال منهم صادفوا أخيراً أرضاً صغيرة مُوحِلة ومجرى ماءٍ رقيقاً بين عُشبٍ أنعم وأحسن. ثمّ ما لبث المجرى أن صار ساقية، وما لبثت الساقية أن صارت غديراً على جنباته شُجيرات، وما لبث الغدير أن صار نهراً. ثمّ كانت لحظةٌ (بعد خيباتٍ أكثر من أن أستطيع وصفها تقريباً) فيها أدرك شصطى شبهُ النائم فجأةً أنّ بِري قد توقّف وأنّه هو ينزلقُ عن صهوته. كان أمامهم شلّال ماءٍ صغير يصبُّ في بِركة واسعة، وكان الحصانان كلاهما قد خاضا البركة وحنيا رأسيهما وأخذا يعبّان الماء عبّاً. فقال شصطى: «أوووه!» وغطس -وقد كانت المياه إلى ركبتيه تقريباً- مُطأطئاً رأسه تحت الشلّال تماماً. وربّما كانت تلك أبهج لحظة في حياته.

وبعد نحو عشر دقائق خرجوا جميعاً (والولدان مُبلّلان كلُّهما تقريباً) وبدأوا يستطلعون ما يحيط بهم. وكان القمر آنذاك قد بلغ من الارتفاع ما يمكّنه من الإطلال على أسفل الوادي. وقد كان العشب الناعم منتشراً على كلتا ضفّتي النهر، ووراء العُشب شجرٌ وأجَمات ترتفع صعوداً حتّى أسفل الصخور. ولا شكّ أنّه كان مختبئاً تحت تلك الشُجَيرات بين الأشجار بعضُ أجَمات الورد والزهر، لأنّ

أرض السهل الأخضر كلّها كانت عابقةً بأطيب الروائح وألطفها. ثُمّ من أعماق الغابة الأشدّ كثافةً بين الشجر انطلقَ صوتٌ لم يسمعْ شصطى مثله من قبل، ألا وهو صُداح عندليب!



وقد كان الجميع أكثر تعباً من أن يتكلّموا أو يأكلوا. فإذا بالحصانين، دون أن ينتظرا حلّ سرجَيهما، ينبطحان أرضاً في الحال. وقد حذا شصطى وأرافيس حذوهما.

وبعد نحو عشر دقائق، قالت هُوين الحريصة: «ولكنْ علينا ألّا ننام. إذ يجب أن نظلّ سابقين راباداش ذاك!»

فقال بِري ببطءٍ شديد: «لا، لَن ننام طبعاً. فما هذه إلّا استراحة بسيطة!»

وتيقّن شصطى (لحظةً) أنّهم سينامون كلُّهم سريعاً إن كان هو لا ينهض ويفعل شيئاً لتدارُك الأمر، وأحسّ أن عليه أن يفعل ذلك. حتّى إنّه بالحقيقة نوى أن ينهض

ويحثُّهم على متابعة السير، ولكنّه قال لنفسه: «ليس الآن، بل بعد قليل...»

وسرعان ما خيَّم ضوء القمر وصُداح العندليب على حصانين وولدَين من بني البشر وهم جميعاً يَغطُّون في سُباتٍ عميق.

كانت أراڤيس هي التي استيقظت أوّلاً. وكانت الشمس قد أخذت ترتفع في السماء، وساعاتُ الصباح الباردة قد تبدَّدت هباءً. فقالت لنفسها بسخط وهي تهبُّ واقفةً لإيقاظ الآخرين: «الغلطة غلطتي! على المرء ألّا يتوقّع من الأحصنة أن تظلّ صاحيةً بعد يومٍ من الشُّغل الشاقّ كيوم أمس، حتّى لو كانت من الأحصنة الناطقة. وبالطبع لا يستطيع هذا الصبيّ أن يظلّ صاحياً أيضاً، فهو لم يتلقّ أيّ تدريبٍ لائق. إنّما كان عليّ أنا أن أكون أكثر فطنةً!»

وكان الآخرون قد تبلّدوا وتخدّروا من جرّاء نومهم الثقيل.

فقال بِري: «هاي هُو... ابرو هُو! لقد نمتُ وسَرجي عليّ، إه؟ لن أفعل ذلك مرّةً ثانية. إنّه أمرٌ مزعج جدّاً...»

وقاطعته آراڤيس: «أوه، مهلاً، مهلاً! لقد ضيّعنا نصف ساعات الصباح فعلاً. وليس عندما لحظةٌ واحدة نتمهّل فيها».

فأجاب بِري: «على الواحد منّا أن يقضم ملء فمه من العشب».

قالت آراڤيس: «أخشى ألّا نتمكّن من التمهّل!»

فردّ بِري: «ولِمَ هذه العَجَلة كلها؟ لقد اجتزنا الصحراء، أليس كذلك؟»

قالت آراڤيس: «ولكنّنا لم نصل إلى بلاد آرخيا بعد. وعلينا أن نصل إلى هناك قبل وصول راباداش».

فقال بِري: «أوه، لا شكّ أنّنا قد سبقناه بكيلومتراتٍ كثيرة. أما سلكنا طريقاً أقصر؟ ألم يقُل صاحبك الغراب، يا شصطى، إنّ هذه طريق مختصرة؟»

فأجاب شصطى: «لم يذكر في شيء أنّها طريقٌ أقصر، بل إنّما قال إنّها أفضل، لأنّنا مررنا بنهرٍ عليها. فإذا كانت الواحة إلى الشمال من طشبان مباشرةً، يُخيّل إليّ أنّ هذه الطريق قد تكون أطول».

وقال بِري: «طيّب، لا أستطيع متابعة السير بغير وجبة خفيفة. فأنزل عنّي سرجي، يا شصطى!»

وقالت هُوِين بكثير من الحياء: «رَ-رجاءً! إنّني أشعر تماماً بعدم القدرة على متابعة السير، مثلي مثل بِري. ولكنْ حين يكون على ظهور الأحصنة بَشَر (بوجود المهماز وما شابه)، أفلا تُضطرُّ غالباً إلى متابعة السير ولو كانت لا ترغب فيه؟ وعندئذٍ يتبيّن لها أنّها تستطيع ذلك. أع-أعني: ألا ينبغي لنا أن نتمكّن من بذل مزيدٍ من الجهد بَعد، ما دُمنا من الأحرار؟ إنّ ذلك كلّه في سبيل نارْنيا».

فقال بِري بلهجةٍ مُحرِجة جدّاً: «أعتقد، يا سيّدة، أنّني أعرف أكثر ممّا تعرفين بقليل عن حملات الحرب والإكراه على الزحف، وعمّا يقدر الحصان أن يتحمّله».

إلَّا أنَّ هُوين لم تردَّ على ذلك بأيِّ كلام، إذ كانت كمعظم الأفراس ذوات التنشئة الرفيعة شخصاً رقيق الأعصاب وكثير الوداعة يُذعِن بسهولة. وبالحقيقة، كانت على حقٍّ تماماً، ولو كان على ظهر بري تلك اللحظة طَرقانٌ يجعله يمضي قُدماً لتبيَّن له أنَّه يصلح لبضع ساعاتٍ أخرى من السير الحثيث. ولكنَّ من أسوإ نتائج كونك عبداً ومُرغماً أن تؤدّي المهمّات أنَّك حين لا يوجد مَن يجبرك بعدُ على القيام بشيء تجد أنَّك قد فقدتَ تقريباً القدرة على إجبار نفسك.

وهكذا كان على الجميع أن ينتظروا ريثما يتناول بري وجبةً ويشرب شربةً. وبالطبع تناولت هُوين والولدان أيضاً طعاماً وشربوا. ولا بدَّ أنَّ الساعة كانت قد ناهزت الحادية عشرة قبل الظُهر قبل أن يستأنفوا سيرهم. وقد نظر حتّى بري إلى الأمور نظرةً أكثر رفقاً من نظرته يومَ أمس. فهُوين بالحقيقة هي التي قادت المجموعة وحدَّدت سرعة المسير، رُغم كَونها الأضعف والأشدَّ تعباً بين الاثنين.

أمّا الوادي عينُه، بنهره البُنّي البارد، وبعشبه وطحالبه وزهره ووروده البريَّين، فقد كان مكاناً بهيجاً جدّاً بحيث يجعلك ترغب في الركوب على مهلٍ للاستمتاع بجماله الفتّان.

الفصل العاشر

ناسِكُ الحدود الجنوبيَّة

بعد ركوبهم في الوادي نزولاً بضعَ ساعات، وصلوا إلى فسحة كبيرة وبات يمكنهم أن يرَوا ما ينبسط أمامهم. وهنا التقى النهر الذي كانوا سائرين على ضفَّته نهراً آخر أعرض منه وأكثر تدفُّقاً، يجري من يسارهم إلى يمينهم نحو الشرق. وما وراء هذا النهر الجديد ترامى ريفٌ جميل يرتفع في تلالٍ منخفضة، سلسلةً بعد سلسلة، حتّى الجبال الشماليَّة نفسها. وإلى يمينهم قامت قِممٌ صخريَّة عالية، على واحدةٍ منها أو اثنتين ثلوجٌ ملتصقة بأطرافها البارزة. وإلى يسارهم سفوحٌ مكسوَّة بشجر الصنوبر، وجروفٌ صخريَّة متقابلة، وفُرَجٌ ضيِّقة، وقِممٌ مُترامية على مدِّ النظر. حتّى لم يعُد بإمكان شصطى أن يميِّز جبل باير. وقبالتَهم مباشرةً انخفضت السلسلة الجبليَّة في هضبة ذاتِ شجر لا بدَّ أن تكون هي الممرَّ من بلاد آرخيا إلى نارْنيا.

عندئذٍ صهل بري قائلاً: «ابروهُوهوو، هوذا الشمال، الشمال الأخضر! وبالتأكيد، بَدَت التلال الأقلُّ عُلوّاً أكثر اخضراراً وازدهاراً من أيِّ شيء سبق لأراڤيس

وشصطى أن رآياه يوماً بأعينهما التي شبت على مناظر الجنوب، فانتعشت روحاهما وهما يتحرّكان وسط القعقعة نزولاً إلى مياه مُلتقى النهرين.

وقد كان النهر المتدفّق شرقاً، والمندفع من الجبال العُليا في الجانب الغربيّ من السلسلة، أكثر سرعةً وأشدّ انحداراً من أن يفكّرا في السباحة فيه. ولكنْ بعد البحث صعوداً ونزولاً عند الضِّفاف وجدا مكاناً ضحلاً بما يكفي للخوض فيه. وقد تأثّر شصطى جدّاً من جرّاء خرير الماء وهديره، والدُّوّامة الهائلة حول أعلى أعقاب الحصانين، والهواء اللطيف المتحرّك، واليَعاسيب الطائرة كالسِّهام.

إذ ذاك قال بري بفخر وهو يشقّ طريقه وسط رَشاش الماء ورغوته خروجاً إلى الضفّة الشماليّة: «يا أصحاب، نحن في بلاد آرخيا. وأعتقد أن هذا النهر الذي عبرناه لتوّنا يُسمّى 'السهم المتعرّج'!»

وتمتمت هوين: «أرجو أن نكون قد وصلنا في الوقت المناسب».

ثمّ شرعوا يصعدون، متمهّلين ومتعرّجين كثيراً، لأنّ التلال كانت شديدة الانحدار. وكانت المنطقة كلّها أشبه بالمُتنزّهات الريفيّة، لا تبدو فيها للعِيان طُرق أو بيوت. وانتشرت في كلّ مكان أشجار متفرّقة لا تبلغ كثافتها أبداً ما يشكّل غابات واضحة المعالم. ولم يكن شصطى الذي قضى ما سبق من حياته في أرض عشبيّة تكاد تخلو من الشجر قد رأى شجراً بتلك الكثرة وذلك التنوّع.

ولو كنتَ هنالك، لربّما عرفت (وهو لم يعرف) أنّه كان يرى أشجار السنديان والزان، وشجر القضبان الفضّي والغُبيراء (رماد الجبل) والكستناء الحلو. وكانت الأرانب تعدو هاربةً في كلّ اتّجاه وهم يتقدّمون، وقد شاهدوا الآن سرباً كاملاً من الغزلان المرقّطة السمراء يفرّ مبتعداً بين الأشجار.

عندئذٍ قالت آرافيس: «أليس هذا رائعاً بالفعل؟»

وفوق أوّل قمّة التفت شصطى على صهوته ونظر بعيداً إلى الوراء، فلم يلمح أثراً لطشبان، بل انبسطت أمام ناظريه الصحراء إلى أقصى الأفق، لا يبرز فيها سوى ذلك الشقّ الأخضر الضيّق الذي عبروه قبل قليل. ولكنّه ما لبث أن قال فجأةً: «هاي! ما ذلك؟»

فالتفت بري قائلاً: «عمَّ تسأل؟» وحذت هُوين وآرافيس حذوه.

أجاب شصطى مُشيراً بيده: «عن ذلك! إنّه يبدو شبيهاً بالدخان. فهل هو نار؟»

وقال بري «أعتقد أنّه عاصفة رمليّة».

فقالت آرافيس: «ليس من رياحٍ كافية لإثارة عاصفة كهذه!»

وهتفت هُوين: «أوه! انظروا! في وسطه أشياء تلمع. انظروا! إنّها خُوَذ ودروع. ثمّ إنّها تتحرّك، تتحرّك نحونا».

فقالت آرافيس: «قسماً بطاش! إنّه الجيش. إنّه راباداش».

وعلّقت هُوِين: «إنّه ذلك حقّاً! وهذا ما كنتُ أخشاه تماماً. هيّا! علينا أن نصل إلى أنقارد قبله». وبغير أن تقول كلمة أُخرى، استدارت بسرعة وخفّة وانطلقت تعدو شمالاً. ثمّ مدّ بري رأسه عالياً، وحذا حذوها.

وصاحت أراڤيس ملتفتةً قليلاً: «هيّا، يا برِي، هيّا!»

كان الركض مرهقاً للحصانين. فكلّما صعدا قمّةً وجدا أمامهما وادياً آخر ووراءه قمّةً أُخرى. ومع أنّ الجميع علموا أنّهم منطلقون في الاتّجاه الصحيح تقريباً، فلم يعرف أيٌّ منهم كم تبعد عنهم أنقارد. ومن أعلى السلسلة الثانية، نظر شصطى إلى الوراء من جديد. وبدلاً من غيمة الغبار في قلب الصحراء، رأى كتلةً سوداء متحرّكة، أشبه بالنمل، على الضفّة البعيدة من نهر «السهم المتعرّج». فما من شكٍّ في أنّهم كانوا يفتّشون عن مخاضة. وهكذا صاح مستنكراً: «إنّهم عند النهر!»

فصاحت أراڤيس: «أسرِعوا! أسرعوا! إن لم نصل أنقارد في الوقت المناسب، فمجيئنا وعدمُه سيّان! عَدْواً، يا برِي، عَدْواً! تذكّرْ أنّك جوادُ حرب».

وهمّ شصطى بأن يقول: «إنّ صاحبنا المسكين يبذل قُصارى جهده فعلاً»، إلّا أنّه ضبط لسانه. وقد كان ذلك كلّ ما استطاع أن يفعله لمنع نفسه من الصياح بتوجيهاتٍ مُشابهة لما قالته أراڤيس.

وبالتأكيد، كان كِلا الحصانين يبذلان كلّ ما يظنّان أنّهما قادران عليه، إن لم يكن كلّ ما يقدران عليه فعلاً؛ وبين

هذا وذاك فرق. وكان برِي قد أدرك هُوِين وراحا يعصفان ويقصفان على حلبتهما الطبيعيّة جنباً إلى جنب، ولم يبدُ أنّ هُوِين تستطيع الصمود في المُباراة والمُجاراة طويلاً بعد.

في تلك اللحظة تبدّلت مشاعر الجميع كلّيّاً، إذ سمعوا ضجّةً وراءهم. ولم تكن الضجّةَ التي توقّعوا سماعها، أي صوت وقع الحوافر وصلصلة الدروع والأسلحة، مختلطاً على الأرجح بصيحات القتال الكالورمنيّة، إلّا أنّ شصطى عرف حقيقة تلك الضجّة حالاً. فقد كانت مثل ذلك الزئير المُزمجِر الذي سمعه في تلك الليلة المُقمِرة التي فيها التقى أراڤيس وهُوِين أوّل مرّة. وقد عرفها برِي أيضاً، فتوهّجت عيناه بالاحمرار وأسبل أذنيه كلتيهما خوفاً. وقد أدرك الآن أنّه لم يكن منطلقاً بالسرعة التي يستطيعها، أو بما يقاربها إلى أقصى حدّ. ولمس شصطى التحوّل في الحال. فقد تضاعفت سرعة الحصانين فعلاً، وفي بضع ثوانٍ سبق برِي هُوِين ففكّر شصطى:

«يا ويلاه! لقد حسبتُ فعلاً أنّنا سنكون في مأمنٍ من الأسود هنا!»

ثمّ ألقى نظرةً من فوق كتفه، فإذا كلّ شيء واضحٌ جليّاً. إذ كان مندفعاً وراءهم حيوانٌ أسمرُ ضاربٌ إلى الصفرة، وقد خفض جسمه إلى الأرض، كهرّة تنطلق مسرعةً فوق المرجة نحو شجرة لدى دخول كلبٍ غريب إلى الحديقة. على أنّه كان يقترب منهم أكثر فأكثر كلّ ثانية، بل كلّ نصفِ ثانية!

وتطلّع شصطى قُدّامه من جديد، فرأى شيئاً لم يستوعبْه، ولا فكّر فيه أيضاً. فقد اعترض في طريقهم حائطٌ أخضر ناعم يعلو نحو ثلاثة أمتار، وفي وسط ذلك الحائط بوّابة مفتوحة! وكان واقفاً تحت قوس البوّابة رجلٌ طويل القامة، متسربلٌ حتّى قدميه الحافيتين برداءٍ لونُه كلون ورق الخريف، ومُتّكئ على عُكّازٍ مستقيم، ولحيتُه تكاد تصل حتّى رُكبتَيه.

لمح شصطى ذلك كلّه في لحظة واحدة، ثمّ التفت ناظراً إلى الوراء أيضاً. وقد كاد الأسد آنذاك يُدرِك هُوين. إذ كان يحاول مراراً أن ينهش قائمتيها الخلفيّتين، حتّى فارق الأمل وجهَها المُلطّخ بالزَبَد وذا العينين الواسعتين.

فجأر شصطى في أذن بِري: «وقوفاً! يجب أن نرجع. يجب أن نُساعدهما!»

وقد قال بِري في ما بعد إنّه لم يسمع ذلك قطّ، أو لم يفهمْهُ. ولأنّه حصان صادقٌ جدّاً عموماً، يجب أن نصدّق ما قاله.



ثمّ سحب شصطى قدميه من الركابَين، وأنزل كِلتا رِجلَيه من الجانب الأيسر، وتردّد لحظةً صغيرةً جداً، ثمّ قفز. وقد آلمه ذلك ألماً مبرّحاً وكاد يخطف نفَسه. ولكنْ قبل أن يعي مقدار ألمه، كان قد انطلق إلى الوراء مترنّحاً لمساعدة آرافيس. ولم يسبق له في حياته قطُّ أن فعل أمراً كهذا، ولم يكد يدري لماذا أقدم على ذلك الآن.

انطلق من بين شفتَي هُوين صوتٌ من أرهب الأصوات في العالم: صُراخُ فَرَس! وكانت آرافيس منحنيةً فوق عُنق هوين، محاولةً على ما يبدو أن تسحب سيفها. ثمّ غدا الثلاثة، آرافيس وهُوين والأسد، فوق شصطى تقريباً. وقبلَ الوصول إليه، شبَّ الأسد على قائمتيه الخلفيّتين أعلى ممّا قد تُصدّق أنّ أسداً يستطيعه، وأخذ يضرب آرافيس بمخلبه الأيمن ضرباً شديداً. واستطاع شصطى أن يرى المخالب الرهيبة منتشرةً كلّها. فزعقت آرافيس وترنّحت على صهوتها. وكان الأسد يمزّق كتفَيها. فإذا بشصطى، وقد كاد الهَلَع يُفقِده صوابه،



يتمكّن من السير بترنُّح نحو الحيوان المفترس. ولم يكن يحمل سلاحاً، ولا حتّى عصاً أو حجراً. وصاح بالأسد، بغير تفكير أو تَروٍّ، كما يصيح المرءُ بكلب: «اِذهبْ من هنا! اِذهب من هنا!» ثمّ حدّق لُحيظةً إلى داخل فمه المتّقد غضباً والمفتوح على وسعه. وما أكثر ما أدهشه عندئذٍ أن يضبط الأسد نفْسه فجأةً، وهو ما يزال واقفاً على قائمتيه الخلفيّتين، ويتشقلب رأساً على عَقِب، ثمّ ينهض حالاً، ويفرّ هارباً.

وظنّ شصطى لحظةً أنّ الأسد لم يمضِ نهائيّاً. ثمّ التفت وأسرع نحو البوّابة في الحائط الأخضر، وقد تذكّر آنذاك أوّل مرّة أنّه رآها. وكانت هُوين آنذاك داخلةَ البوّابة وهي ما تزال تتعثّر ويكاد يُغمى عليها، وآرافيس ما زالت جالسةً على سَرجها ولكنّ ظهرها مُغطّىً بالدم.

وقال الرجل المُلتحي ذو الرداء الطويل: «ادخلي، يا بُنيّتي، ادخلي». ثمّ: «ادخل، يا بُنيّ»، فيما وصل شصطى إليه لاهثاً. وسمع شصطى البوّابة تُقفَل وراءه، وكان الغريب ذو اللحية قد بدأ يُساعِد آرافيس على الترجُّل عن فَرَسها.

كانوا داخل ساحة مُقفلة واسعة ودائريّة الشكل تماماً، يحميها حائطٌ عالٍ يكسوه العشب الأخضر. وفي تلك الساحة بركةٌ فيها مياه هادئة كلّيّاً، وهي ممتلئةٌ ماءً حتّى حافاتِها بحيث تبدو مستويةً مع الأرض تماماً. وعند أحد أطراف البركة شجرةٌ تُظلّلها بأغصانها كليّاً، هي الأضخم

والأجمل بين كلّ ما سبق أن رآه شصطى من شجر. ووراء البركة بيتٌ منخفض صغير من الحجر مسقوفٌ بسقفٍ من القصب والقشّ اليابسَين. وقد سُمع صوت ثُغاء، وبدت بضع عنزات في طرف الساحة الأقصى. وكانت الأرض المستوية مكسوّةً كلّها بأحسن عُشب.

وقال شصطى لاهثاً: «أ-أ-أأنت- أأنت الملك لُون، ملك بلاد آرخيا؟»

فهزّ الشيخُ رأسه قائلاً بصوت هادىء: «لا! أنا ناسك الحدود الجنوبيّة. والآن، يا بُنيّ، كُفّ عن الكلام، وأطِعْ فقط! هذه الصبيّة مجروحة، وحصاناكما مُنهَكان. وراباداش في هذه اللحظة يعثر على مخاضة في نهر السهم المتعرّج. فإن أسرعتَ الآن، بغير أيّة استراحةٍ ولو قصيرة، يمكنك أن تصل في الوقت المناسب لتنبيه الملك لُون».

انخلع قلب شصطى عند سماعه هذا الكلام، إذ شعر بأنّه لم تبقَ لديه أيّة قوّة. وتلوّت أحشاؤه ألماً حيال ما بدا أنّه طلبٌ قاسٍ وجائر. فلم يكن قد تعلّم بعدُ أنّك إن قمتَ بعملٍ صالح تُكافأ عادةً بأن تُكلَّف عملاً آخر أصعبَ وأفضل. ولكنْ كان كلُّ ما قاله بصوتٍ مسموع:

«أين الملك؟»

فالتفت الناسك وأشار بعُكّازه قائلاً: «أنظر! هنالك بوّابة أُخرى، مقابلة تماماً لتلك التي دخلتَ منها. فافتحها وانطلق منها مباشرةً بخطٍّ مستقيم إلى الأمام دائماً، فوق السهل والتلّ، وفوق المُستوي والوَعِر، وفوق الجافّ

والرطب. إنيّ أعلم يقيناً أنك سوف تجد الملك لُون قُبالتك تماماً، ولكنِ اركُضْ، اركُض: دائماً اركض!»

فحنى شصطى رأسه إيجاباً، وركض نحو البوّابة الشماليّة، ثمّ اختفى في ما وراءها. وعندئذٍ أخذ الناسك آراڤيس –وقد كان يسندها في أثناء ذلك بذراعه اليُسرى– وأدخلها إلى البيت نصف مقودة ونصف محمولة. ثمّ خرج من جديد بعد وقت طويل. وقال للحصانَين: «والآن، يا ابنَي عمّي، جاء دوركما!»

وبغير أن ينتظر جوابهما –وقد كانا بالحقيقة مُرهَقين جداً حتّى عجزا عن الكلام– نزع عن كِلَيهما سرجه وزمامه ولجامه. ثمّ فرك جلدَيهما بالفرشاة على نحوٍ جيّد لم يكن أيّ سائس في إسطبل الملك ليقوم بأفضل منه. وقال:

«هيّا، يا ابنَي عمّي! انسيا كلّ ما جرى لكما واستريحا. ها هنا الماء، وهُناك العشب. سأقدّم لكما وجبة حبوبٍ ساخنة بعد أن أحلب بنات عمّي الأُخَر، العنْزات».

فقالت هُوين، وقد عاد إليها صوتها أخيراً: «يا سيّد، هل تعيش الطَرقانة؟ هل قتلها الأسد؟»

وأجاب الناسك مبتسماً: «مع أنيّ أعرف الكثير، تبقى معرفة المستقبل خارج نطاقي. ولذلك لا أعرف عن أيّ رجُلٍ أو امرأة أو حيوان في العالم هل يبقى على قيد الحياة عندما تغيب الشمس هذا المساء. ولكنْ ليكُن عندك رجاء. فالأرجح أنّ الصبيّة ستعيش عمراً طويلاً كأيّة واحدة من أترابها».

ولمّا عادت آراڤيس إلى رُشدها، وجدت نفسها منبطحةً على وجهها فوق سرير منخفِض فائق النعومة، في غرفةٍ عارية، جدرانُها من الحجارة غير المصقولة. ولم تقدر أن تعيَ سبب انبطاحها على وجهها. لكنّها لمّا حاولت أن تنقلب وأحسّت الآلام الحارقة الحارّة تجتاحُ ظهرَها بكامله، تذكّرت وأدركت السبب. وأعياها أن تعرف أيّةُ مادّة نبّاضة مريحةٍ حُشيَ بها الفِراش، لأنّه كان مصنوعاً من نبات الخَلَنج (وهو أفضل مادةٍ لحشو الفرشات) وكان الخَلَنج شيئاً لم تره قطُّ ولا سمعَت به.

ثمّ انفتح الباب ودخل الناسك، حاملاً بيده زبديةً خشبيّةً كبيرة. وبعدما وضع تلك الزبدية على الأرض بكلّ حرص، تقدّم إلى جانب السرير، وسأل:

«كيف حالُك الآن، يا بُنيّتي؟»

فقالت آراڤيس: «إنّ ظهري يؤلمني كثيراً، يا أبتِ، ولكنْ ليس بي شيءٌ آخر».

ثمّ ركع بجانبها، ووضع يده على جبينها، وجسّ نبْضها، وقال:

«لا حرارة! سوف تتحسّنين حتماً. وليس من سببٍ بالحقيقة يمنعك من النهوض غداً. أمّا الآن، فاشربي هذا».

ثمّ أتى بالزبدية الخشبيّة وقرّبها من شفتيها. ولمّا تذوّقت ما فيها، لم تتمالك عن إشاحة وجهها، لأنّ حليب المِعزى يُشكّل لك صدمة إن كنتَ لم تعتد عليه. غير أنّها كانت

عطشانة جداً فأجبرت نفسها على شرب الحليب كلّه، ولما أكملتْهُ شعرت بأنّها أحسن حالاً.

وقال الناسك: «والآن، يا بُنيّتي، يمكنك أن تنامي عندما تشائين. فإنّ جراحك قد غُسِلت وضُمّدت. ومع أنّها تؤلم كثيراً، لكنها ليست أكثر خطراً ممّا لو كانت حُزوز سوطٍ. لا بدّ أنّ ذلك الأسد كان غريباً جدّاً؛ فبدلاً من الإمساك بك وإسقاطك عن السرج وغرْز أنيابه في جسمك، جرّ مخالبه فقط على ظهرك. فلديكِ عشرة خدوش فقط، غير عميقة ولا خطرة، وإن كانت مؤلمة».

فقالت آراڤيس: «أظنّ أنّ حظّي كان جيّداً!»

وأجابها الناسك: «يا بُنيّتي، لقد عشتُ في هذا العالم مئةً وتسع سنين حتّى الآن، ولم أُقابِل قطّ أيّ شيء يُدعى حظّاً. إذ يحيط بهذا كلّه شيءٌ لا أفهمه. ولكنْ إن كانت بنا حاجةٌ يوماً لأن نعرف حقيقته، فلكِ أن تتأكّدي أنّنا سنعرفها».

فسألت آراڤيس: «وماذا عن راباداش وأحصنته المئتين؟»

أجابها: «لن يجتازوا هذه الطريق، على ما أعتقد. لا بدّ أنّهم قد وجدوا مخاضةً تبعد عنّا كثيراً إلى جهة الشرق. ومن هنالك سيحاولون أن يركبوا إلى أنْفارد مباشرةً».

فقالت: «يا لَشَصطى المسكين! أعليه أن يقطع مسافة طويلة؟ وهل يصل إلى هناك قبلهم؟»

أجاب الشيخ: «الأمل بهذا كبير».

فعادت آراڤيس وتمدّدت (على جنبها هذه المرّة) وقالت: «هل مضى وقتٌ طويل وأنا نائمة؟ يبدو أنّ الليل يقترب!»

فألقى الناسك نظرة عبر الشبّاك الوحيد المواجه للشمال، وقال في الحال: «ليس هذا ظلامَ الليل. إنّ الغيوم تنحدر من فوق 'قمّة العواصف.' والطقس الرديء يأتينا في هذه الأنحاء دائماً من هناك. فسينتشر الليلة ضبابٌ كثيف».

وفي صباح الغد، شعرت آراڤيس -عدا ألم ظهرها- أنّها في أحسن حال، حتّى إنّه بعد الفطور (وكان عصيدةً وقشدة) قال لها الناسك إنّ في وسعها أن تنهض. وبالطبع قامت في الحال وخرجت كي تُحادِث الحصانين. وكان الطقس قد تغيّر، وغمر نور الشمس تلك الساحة الخضراء كلّها فبدَت كأنّها كأسٌ خضراء كبيرة، وقد كان المكان ساكناً ومنفرداً وهادئاً للغاية.

وفي الحال هرولَت هُوِين نحو آراڤيس وقبّلتها قبلة فَرَس. وبعدما سألت إحداهما الأخرى عن صحّتها ونومتها، قالت آراڤيس: «ولكنْ أين بِري؟»

فأومأت هُوِين بأنفها إلى طرف الدار الأبعد وقالت: «إنّه هناك! ويا ليتك تذهبين وتتحدّثين إليه. إنّ به علّةً ما، إذ لا أستطيع أن أنتزع منه كلمة واحدة».

ثمّ عبرتا الساحة على مهل، فوجدتا بِري مستلقياً ووجهه نحو الحائط. ومع أنّه سمع صوتهما آتيتَين بالطبع،

لكنَّهُ لم يُدِر وجهه ولا قال كلمة واحدة.

وقالت آراڤيس: «صباح الخير، يا بري. كيف حالُك هذا الصباح؟»

فتمتم بري بكلامٍ لم تستطع أيَّةُ واحدة منهما أن تفهمه. وتابعت آراڤيس تقول:

«يقول الناسك إنَّ شصطى ربمّا وصل إلى الملك لُون في الوقت المناسب. وهكذا يبدو أنَّ جميع متاعبنا قد انتهت. نارنيا أخيراً، يا بري».

فأجاب بري بصوتٍ منخفض: «لن أرى نارنيا أبداً!»

سألته آراڤيس: «ألستَ بخير، يا عزيزي بري؟»

وأخيراً التفت بري نحوهما، وبدا وجهه حزيناً كئيباً كما لا يمكن أن يكون إلاَّ وجهُ حصان. وقال:

«سأرجع إلى كالورمن».

فسألته آراڤيس: «ماذا تقول؟ أترجع إلى العبوديَّة؟»

أجاب: «نعم، فالعبوديَّة هي كلُّ ما أستحقُّه! كيف يمكنني أن أرفع وجهي بين الأحصنة الحُرَّة في نارنيا؟ وذلك بعدما تركتُ فرساً وفتاةً وصبيّاً لتفترسهم الأسود فيما فررتُ راكضاً بأسرع ما يمكنني لأنجوَ بجلدي البَئِس التَعِس!»

فقالت هُوِين: «لقد هربنا كلُّنا بأسرع ما يمكننا!»

فأجاب صاهلاً: «شصطى لم يهرب! فهو على الأقل ركض في الاتجاه الصحيح: لقد ركض رجوعاً. وهذا هو ما يُخجلني أكثرَ من كلِّ شيء. فأنا الذي أدعو نفسي جوادَ

حرب وأُفاخر بمئة معركة خُضتُها، يهزمني صبيٌّ بشريٌّ صغير: ولدٌ هو مجرَّد مهرٍ غِرٍّ لم يحمل سيفاً قطُّ، ولا تربّى تربيةً صالحة، ولا كان له نموذجٌ يحتذيه في حياته!»

وقالت آراڤيس: «أعرِفُ هذا. فقد شعرتُ أنا هذا الشعور عينه. لقد كان شصطى مُذهلاً. وأنا رديئة مثلك تماماً، يا بري. فلطالما عاملتهُ بازدراء واحتقرتُه منذ أن قابلتُمانا أوَّلاً، وقد تبيَّن الآن أنه الأفضل بيننا جميعاً. ولكنَّني أعتقد أنَّ البقاء والاعتذار خيرٌ من الرجوع إلى كالورمن».

فأجاب بري: «أنتِ وضعُكِ على ما يُرام. فأنتِ لم تجلبي العار على نفسك. أمّا أنا فقد خسرتُ كلَّ شيء!»

وكان الناسك آنذاك قد اقترب منهم دون أن يتنبَّهوا، لأنَّ قدميه الحافيتين لم تُحدِثا إلاَّ صوتاً ضئيلاً جداً على العشب الطريِّ النديّ. فقال: «يا حصاني الطيِّب، يا حصاني الطيِّب! أنت لم تخسر إلاَّ غرورك الباطل. لا، لا، يا ابنَ عمّي. لا ترجع أُذنيك إلى الوراء، ولا تنفُض عرفك في وجهي! فإن كنت حقّاً متواضعاً كما بدَوتَ منذ دقيقة واحدة، يجب عليك أن تتعلَّم الإصغاء إلى صوت العقل. إنك لستَ تماماً ذلك الحصان العظيم الذي بتَّ تعتقد أنك هو، وذلك من جرّاء عيشتك بين الأحصنة الخرساء المسكينة. فبالطبع، كنتَ أكثر منها شجاعةً وذكاءً. ولا فضل لك في ذلك تقريباً. لكن لا يترتَّب على هذا أنَّ تكون حصاناً مميَّزاً جداً في نارنيا.

ولكنْ ما دمت تعرف أنّك لست شخصاً مميّزاً، فسوف تكون حصاناً شريفاً جدّاً على العموم، وسوف تُحسِن التصرُّف واضعاً الأمور في مواضعها. والآن، فإذا دُرتَ أنت وابنة عمّي الأخرى ذات الأربع إلى باب المطبخ، فسندبّر أمر النصف الباقي من وجبة الحبوب الساخنة تلك!»

الفصل الحادي عشر

رفيقُ الرحلة غيرُ المتوقّع

لمّا خرج شصطى من البوّابة، وجد مُنحدراً عُشبيّاً عليه شُجيرةُ خَلَنج صغيرة ممتدّاً أمامه صعوداً حتّى بعض الأشجار. ولم يكن لديه الآن شيءٌ يفكّر فيه ولا خُططٌ يرسمها، بل كان عليه فقط أن يركض، وقد كان ذلك كافياً تماماً. وكانت أطرافه ترتجف، وألَمٌ مُفاجئ قد بدأ يَخِزُ جنبَه، كما أنّ العَرَق الذي ظلّ يتقطّر إلى داخل عينيه بهرَهما وجعلهما تؤلِمانه. كذلك كان مُتقلقِلاً على قدمَيه، وكاد أن يلوي كاحِلَه غيرَ مرّة لاصطدامه بحجرٍ غير ثابت.

ثمّ غدت الأشجار أكثر كثافةً من ذي قبل، وانتشر السَّرخَس في المساحات الأقلّ شجراً. وقد غابت الشمس بغير أن يُلطِّف ذلك الجوّ ولو قليلاً. وكان ذلك قد صار واحداً من تلك الأيّام الكئيبة الحارّة التي يبدو فيها أنّ أعداد الذباب قد تضاعفت. ومع أنّ كثيراً منها غطّى وجه شصطى، فهو لم يحاول حتّى كشَّها، إذ كان ينبغي له أن يفعل أموراً كثيرة غير هذا.



وفجأةً سمع صوتَ بوق، لا بوقٍ كبير تتردَّد أصداءُ صوته مثل أبواق طشبان، بل بوقٍ يُطلِق نداءً بهيجاً: اتري-رو-تُو-تُو-هُو! وفي اللحظة التالية خرج إلى فسحة واسعة بلا شجر، فإذا به وسط حشدٍ من الناس.

على الأقلّ، بدا ذلك حشداً في نظره. فبالحقيقة، كان هنالك ما بين خمسة عشر رجُلاً وعشرين، لابسين كلُّهم ثياب صَيد خضراء، مع أحصنتهم؛ وكان بعضهم راكبين وبعضهم واقفين قرب رؤوس أحصنتهم. وفي الوسط، كان أحدهم يُمسك بالرِكاب لرجُلٍ يهمُّ بامتطاء حصانه. وكان الرجُل الذي أُمسِك له الرِكاب أروع ملك يمكنك أن تتصوَّره، وأسمن الملوك وأكثرهم تورُّدَ خدَّين وبريقَ عينين.

وما إن برز شصطى للعِيان، حتّى نسي هذا الملك أمر امتطاء حصانه كلّيّاً. إذ فتح ذراعيه لشصطى، وأشرق وجهه، وصاح بصوتٍ عميق عالٍ بدا خارجاً من قعر صدره:

«كورين! بُنيّ! وماشياً على قدميه، وفي ثياب رثّة! ماذا...؟»

فأجاب شصطى لاهثاً وهازّاً رأسه: «لا، لستُ الأمير كورين. أنا-أنا-أعرف أنّني أُشبِهه... لقد رأيتُ سُموَّه في طشبان... وهو يُسلِّم عليك!»

وأخذ الملك يحدِّق إلى شصطى وعلى وجهه تعابيرُ عظيمة بشكلٍ غير اعتيادي، فيما تابع شصطى لاهثاً:

«أ أنت الـ... الملك لُون؟»

ثمّ أكمل بغير أن ينتظر جواباً: «سيِّدي الملك... بسُرعة... إلى أنْفارد... أقفِل الأبواب... الأعداء هاجمون عليك... راباداش ومئتا حصان!»

وسأل أحدُ الرجال الآخرين: «أأنتَ متأكّدٌ من هذا، يا صبيّ؟»

فقال شصطى: «عيناي هاتان! لقد رأيتُهم. وقد سابقتُهم طول الطريق من طشبان».

وقال الرجل، رافعاً حاجبيه قليلاً: «مشياً على قدميك؟»

فأجاب شصطى: «معي حصانان... وهما عند الناسك الآن».

وقال الملك لُون: «كُفَّ عن استجوابه، يا دارّن. إنّي أرى الصِدق في عينيه. علينا أن نركب بسرعة لأجل ذلك، يا سادة. أحضِروا للفتى ذلك الحصان الاحتياطي. أتستطيع الركوب بسرعة، يا صاح؟»

وجواباً عن ذلك، وضع شصطى قدمه في رِكاب الحصان الذي اقتيد إليه، وبعد هُنيهة صار على صَهوتِه. وكان قد فعل مثل ذلك مئات المرّات مع بِري في الأسابيع القليلة الماضية، فكان امتطاؤه الآن مختلفاً كثيراً عمّا كان



عليه في الليلة الأولى، حين قال له بِري إنّه يمتطي حصاناً كما لو كان يتسلّق كُدس قشّ.

وسرّه أن يسمع السيّد دارّن يقول للملك: «لهذا الصبيّ جلسة خيّال حقيقيّ، يا مولاي. اشهدْ أنّ فيه دماً نبيلاً».

فقال الملك: «إي نعم، دَمُهُ هو المُهِمّ!» ثمّ حدّق إلى شصطى من جديد وعلى وجهه علاماتُ الفضول والتلهّف عينُها، وفي عينيه الرماديّتين الثابتين ألفُ سؤال.

وبعد قليلٍ كانت الجماعة كلُّها تتقدّم في هَروَلة حثيثة. كانت جلسة شصطى ممتازة، ولكنّه كان مرتبكاً على نحوٍ يُرثى له من جهة ما يجب أن يفعله بالزّمام، لأنّه لم يكن قد مسّ الزمام قطُّ وهو على ظهر بِري. إلّا أنّه نَظر بحذر من طرفَي عينيه ليرى ما يفعله الآخرون، محاولاً استعمال أصابعه بالطريقة الصحيحة (مثلما يفعل بعضنا في الحفلات حين لا نكون متأكّدين تماماً أيّ سكّين أو شوكة يجب أن نستعمل!). ولكنّه لم يجرؤ فعلاً أن يحاول توجيه الحصان، واثقاً بأنّه لا بدّ أن يتبع الخيول الأخرى. طبعاً، كان الحصان حصاناً عاديّاً، لا حصاناً ناطقاً، ولكنْ كان له من الفطنة ما جعله يدرك أنّ الصبيّ الغريب على ظهره لا يستخدم سوطاً ولا مهمازاً وأنّه لم يكن بالحقيقة سيّد الموقف. ولذلك ما لبث شصطى أن وجد نفسه في آخِر الرَّكْب.

ولكنّه مع ذلك كان منطلقاً بسرعةٍ لا بأس بها. ولم يكُن ذبابٌ الآن، وكان الهواء اللذيذ يهبُّ على وجهه مُنعشاً. ثمّ إنّ مهمّته قد نجحت. وأوّلَ مرّة منذ وصوله إلى طشبان (كم بدا ذلك بعيداً!) كان قد بدأ يستمتع قليلاً.

ثمّ رفع نظره ليرى مدى اقتراب قمم الجبال منهم. فخاب أمله لمّا لم يتمكّن من رؤيتها بتاتاً، بل شاهد فقط هبوط غمامة داكنة كبيرة من على الجبال باتّجاههم. وقد فاجأه ذلك لأنّه لم يعِش قبلاً في مناطق الريف الجبليّة. فقال لنفسه: «هي غيمةٌ نازلةٌ علينا. لقد فهمْت. ففوقَ على الجبال، يكون المرء في السماء فعلاً. سأرى كيف

يكون قلبُ الغيمة. ما ألذَّ هذا! لطالمَا ساءلتُ نفسي...»
وإلى يساره في البعيد، وما وراءه قليلاً، كانت الشمس تتأهّب للغروب.

وقد وصلوا إلى طريق صُلبة بعض الشيء، فأخذوا يسرعون سرعةً جيّدة جدّاً. إلّا أنّ حصان شصطى ظلّ آخِرَ الجميع. وعند انعطاف الطريق مرّةً أو مرّتين (وقد باتت محفوفةً الآن بالشجر من كِلا جانبيها)، غاب الآخرون عن ناظريه ثانيةً أو ثانيتين.

ثمّ دخلوا في الضباب، أو بالأحرى غلّفهم الضباب، فصار العالم رمادياً. ولم يكن شصطى قد تصوّر إلى أيّ حدٍّ سيكون قلب الغمامة بارداً ورطباً، ولا كم سيكون مظلماً. ثمّ ما لبث اللون الرماديُّ أن تحوّل إلى الأسود بسرعة مخيفة.

وكان أحدهم في مقدّمة الرَكْب ينفخ في البوق بين الفَينة والفينة، فإذا بصوت البوق كلَّ مرّة يأتي من مكانٍ أبعد قليلاً. ولم يعُد شصطى يقدر أن يرى الآخرين، لكنّه بالطبع أمل أن يراهم حالما ينعطف حول المنعطف التالي. غير أنّه لمّا انعطف حوله، كان ما يزال غير قادر على رؤيتهم. وبالحقيقة أنّه لم يستطع أن يرى أيَّ شيء على الإطلاق. وبات حصانه آنذاك يمشي مشياً، فنهره قائلاً: «أسرِع، يا حصان، أسرع!» ثمّ تناهى إليه صوت البوق ضعيفاً جدّاً. وكان بري قال له مراراً إنّ عليه أن يُبقيَ عَقِبيه مائلين إلى الخارج جيّداً، فخطر في باله أنّ أمراً رهيباً قد يحدث

إذا أقحم عقبيه في جنبَي الحصان. وبدت له تلك فرصةً لتجريب ذلك، فقال: «انتبه إليَّ يا حصان، إن كنت لا تُضاعف نشاطك، فهل تدري ما سأفعله بك؟ سأُقحِم عقبيَّ في خاصرتَيك. سأفعل هذا حقّاً». غير أنّ الحصان لم يُبالِ بهذا التهديد. وهكذا ثبّت شصطى نفسه في السَّرج، وشدَّ ركبتيه على جسم الحصان، وصرَّ بأسنانه، وضغط على كِلا جانبَي الحصان بعقِبَيه بأشدِّ ما يمكنه.

إنّما كانت النتيجة الوحيدة أنّ الحصان مضى يتظاهر تقريباً بأنّه يخبُّ خبباً على مدى بضع خطوات، ثمّ عاد إلى مشيته السابقة من جديد. ثمّ هبط الظلام وبدا أنّ نافخ البوق قد كفَّ عن نفخه. وكان الصوت الوحيد الذي سمعه شصطى هو صوتَ تساقُط قطرات الماء باستمرارٍ من أغصان الشجر. فقال لنفسه:

«حسناً، أظنُّ أنَّ مجرَّد المشي لا بدَّ أن يوصلنا إلى مكانٍ ما بعد وقتٍ ما. إنّما آمل ألا أُصادِف راباداش وقومه».

ثمّ تابع السير وقتاً بدا له طويلاً، في سُرعة الماشي دوماً. وبدأ يكره ذلك الحصان، كما كان قد بدأ يشعر بالجوع الشديد.

وما لبث أن وصل إلى مكانٍ ينشعب فيه الطريق شعبتين. وبينما هو يتساءل أيُّ الطريقين يؤدّي إلى أنْفارد، إذ أجفله ضجيجٌ من ورائه، وكان ضجيج أحصنةٍ تعدو. ففكّر: «إنّه راباداش!» ولم يكن يستطيع أن يحزر أيَّ الطريقين سيسلك راباداش. إنّما قال لنفسه: «ولكنْ إن

سلكتُ أنا أحد الطريقين، فقد يسلك هو الآخر. أمّا إذا بَقِيتُ هنا عند المفترق، فسُيلقي القبض عليَّ حتماً». ثمّ ترجّل، واقتاد حصانه بأسرع ما يمكنه على الطريق الأيمن.

أخذت ضجّة الخيّالة تقترب بسرعة شديدة، وبعد دقيقة أو دقيقتين تبيّن لشصطى أنّهم بلغوا مفترق الطُرق. فحبس أنفاسه منتظراً، كي يرى أيَّ طريقٍ يسلكون.

ثمّ صدر أمرٌ - «قِفْ!» - تبعته هُنيهةٌ من ضجيج الأحصنة: نَفخُ مناخر، وخَبْط حوافر، وعَضعضة شكائم، وتَربيتُ رِقاب.

ثمّ سُمِع صوتٌ يقول: «انتباهاً، كلّكم! نحن الآن نبعد عن القصر أقلّ من مِئتَي متر. تذكّروا أوامركم. حالما نصل إلى نارنيا، عند شروق الشمس كما ينبغي، عليكم أن تقتلوا أقلّ عدد ممكن. ففي هذه المغامرة، يجب أن تحسبوا كلّ نقطة دم من أهل نارنيا أثمن من أربعة لتراتٍ من دمائكم. في هذه المغامرة، تذكّروا! فإنّ الآلهة ستُنعِم علينا بوقتٍ أسعد، وعندئذٍ عليكم ألّا تتركوا أيَّ حيٍّ بين كيربراڤيل والصحراء الغربيّة. لكنّنا لسنا في نارنيا بعد. وهُنا في بلاد آرخيا، يختلف الأمر. ففي هذا الهجوم على قصر الملك لُون، لا يهمُّ شيءٌ سوى السرعة. أبدوا جَلَدكم وحماستكم! فينبغي أن يصير القصر لي في ساعة واحدة. وإذا تمّ هذا، أعطيكم إيّاه كُلّه، ولَن أحتفظ لنفسي بأيّة غنيمة. اقتلوا لي كلّ ذَكَرٍ من هؤلاء البرابرة داخلَ أسواره، حتّى الطفل الذي وُلِد يوم أمس. وكلُّ شيء

آخر هو لكم، تتقاسمونه كما تشاؤون: النساء والذهب والجواهر والأسلحة والنبيذ. أمّا الرجل الذي أراه متراجعاً عند وصولنا إلى الأبواب فسيُحرق حيّاً. باسمِ طاش، الغلّاب البطّاش، إلى الأمام سِرْ!»

فانطلق الصفُّ الطويل مُحدِثاً ضجيجاً ذا إيقاع - اكْلوبتي اكلوب! - وتنفّس شصطى الصُّعَداء: لقد سلكوا الطريق الآخر!

وخُيِّل إلى شصطى أنَّ مجاوزتهم استغرقت وقتاً طويلاً، لأنّه وإن كان طولَ النهار قد تكلّم وفكّر كثيراً في «مئتَي حصان» فإنّه لم يدرِكْ عددهم فعلاً. ولكنْ أخيراً تلاشى الضجيج، ووَجد شصطى نفسه من جديد وحيداً وسط صوتِ تقطّرِ الماء من الشجر.

ها قد عرف الآن الطريقَ المؤدّي إلى أنْقارد. ولكنّه بالطبع لا يقدر أن يذهب إلى هناك: فإنّ ذلك لن يعني سوى الوقوع بأيدي خيّالة راباداش. وهكذا قال لنفسه: «ماذا ينبغي لي أن أفعل، يا تُرى؟» لكنّه امتطى حصانه من جديد، وتابع السير على الطريق الذي اختاره، وهو يأمل أملاً ضئيلاً بالعثور على كوخٍ ما، حيث يمكنه أن يطلب مَبيتاً وطعاماً. وبطبيعة الحال، فكّر في الرجوع إلى آراڤيس وبِري وهُوين في صومعة الناسك، إلّا أنّه لم يستطع ذلك، لأنّه آنذاك لم تعُد لديهِ أية فكرة عن الاتّجاه المؤدّي إلى هناك. وقال:

«على كلّ حال، لا بدّ أن يؤدّي هذا الطريق إلى مكانٍ ما!»

ولكنَّ الأمر كلّه يتوقّف على ما يعنيه المرء بقوله «مكانٍ ما». فقد ظلَّ ذلك الطريق مؤدّياً إلى «مكان ما»، بمعنى أنّه أفضى إلى مزيدٍ ومزيدٍ من الأشجار، وكلُّها قاتمة وتقطُرُ ماءً، وإلى هواءٍ أبرد فأبرد. وظلّت الرياح الجليديّة الغربية تهبُّ على الضباب وتتجاوزه، إلّا أنّها لم تبدّد الضباب قطّ. ولو كان معتاداً الريف الجبليّ، لأدرك أنَّ معنى ذلك أنّه بات الآن في أعلى الجبال العالية، وربّما على قمّة المعبر الجبليّ. غير أنّه لم يكُنْ يعرف أيَّ شيء عن الجبال.

وقال: «أعتقد حقاً أنّه ينبغي أن أكون أسوأ الأولاد حظّاً بين أهل العالم كلّه. فكلُّ شيء يسير على ما يُرام عند الجميع إلّا عندي. فأولئك السادة والسيّدات من أهل نارنيا فرّوا من طشبان سالمين، وأنا بقيتُ فيها. وأرافيس وبري وهُوين ينعمون بأقصى الراحة الممكنة عند ذلك الناسك الشيخ، وأنا طبعاً كنتُ الشخص الذي أُرسل في مهمّة. ولا بدّ أن الملك لُون ومُرافقيه قد وصلوا إلى القصر بأمان وأقفلوا الأبواب، قبل وصول راباداش بوقتٍ طويل، ولكنَّ نصيبي أنا كان البقاء خارجاً».

وإذ هدّه التعب، وأحسَّ الفراغ في داخله، أسف لحاله كثيراً حتّى سالت دموعه على خدّيه.

ولكنَّ ما وضع حدّاً لهذا كُلّه كان حدوث رعبٍ مُفاجئ. إذ تبيّن لشصطى أن شخصاً ما، أو شيئاً ما،

كان يمشي بجانبه. وكان الظلام حالكاً، فلم يقدر أن يرى أيَّ شيء. وقد كان الشيء (أو الشخص) يسير بمنتهى الهدوء، حتّى لم يكد شصطى يسمع أيَّ وقع خُطى. وكلُّ ما استطاع سماعه كان التنفُّس. إذ إنَّ رفيقه غير المنظور بدا أنّه يتنفّس تنفُّساً شديداً، حتّى تكوّن لديه انطباع بأنّه مخلوق كبير جدّاً. وكان قد لاحظ ذلك التنفُّس شيئاً فشيئاً بحيث فاته أن يخمّن كم مضى من الوقت على وجوده هناك. فكانت تلك صدمة رهيبة فعلاً.

وخطر في باله أنّه قد سمع منذ عهدٍ بعيد أنَّ في تلك البلاد الشماليّة مَرَدة. فعضَّ شفته من فرط رعبه. ولكنّه عندئذٍ كفَّ عن البكاء، مع أنّه بات لديه الآن سببٌ وجيه للبكاء فعلاً.

وظلَّ ذلك الشيء (أو ربّما ذلك الشخص) يسير إلى جانب شصطى بكلِّ هدوء، حتّى بدأ يأمل أن يكون قد تخيّله مجرّد تخيُّل. ولكنّه حين بدأ يتأكّد تماماً من وجوده، صدرت من قلب الظلام بقربه فجأةً تنهُّدةٌ قويّةٌ وعميقة. فمن غير الممكن أن يكون ذلك مجرّد تخيُّل! وعلى كلٍّ، فقد أحسَّ النفَسَ الحارَّ من تلك التنهُّدة يُلامِس يده اليُسرى المرتجفة برداً.

ولو كان ذلك الحصان نافعاً في شيء، أو لو عرف هو كيف يحصل على أيّ نفع من ذلك الحصان، لجازف بكلِّ شيء في سبيل الفِرار سريعاً بِعَدْوةٍ خاطفة. غير أنّه عرف أنّه لن يقدر أن يجعل الحصان يعدو. فتابع السير بسرعة

الماشي على عجل، والرفيقُ غير المنظور يمشي ويتنفّس إلى جانبه. وأخيراً، لم يعد يستطيع أن يحتمل بعد، فقال بصوتٍ لا يكاد يعلو عن الهمس: «مَن أنت؟»

فأجابه ذلك الشيء: «واحدٌ انتظرك طويلاً حتّى تتكلّم». ولم يكُنْ صوته عالياً، لكنّه كان عظيماً وعميقاً.

وسأل شصطى: «أأنت... أأنتَ مارد؟»

فقال الصوت الضخم: «لكَ أن تدعوَني مارداً. ولكنّني لستُ مثل الكائنات التي تُسمّيها مَرَدة».

وبعد تحديقٍ شديد، قال شصطى: «لا أقدر أن أراك أبداً!» ومن ثمّ خطرت له فكرة أرهب، فقال بما يُشبه الصراخ: «إنّك لستَ... لستَ شيئاً ميّتاً، أفأنت كذلك؟ آه، رجاءً، رجاءً، ابعُدْ من هنا. أيّ أذىً فعلتُ بك، يا تُرى؟ آه، إنّي الشخص الأسوأ حظّاً في العالم كُلّه!»

ومرّةً أخرى أحسّ نَفَسَ الشيءِ الحارّ يُلامِس يده ووجهه، وسمعه يقول: «مهلاً! ليس هذا نَفَسَ شبَح. خبّرني بأحزانك!»

وكان النَفَس قد هدّأ من روع شصطى قليلاً، فحكى كيف لم يعرف أباه ولا أُمّه الحقيقيَّين قطّ، وكيف ربّاه صياد السمك بكلّ صرامة. ثمّ حكى خبر هروبه، وكيف طاردهم أسدان واضطرّوا إلى السباحة لينجوا بحياتهم، وعن جميع الأخطار التي واجهوها في طشبان، وعن الليلة التي قضاها بين المقابر، وكيف عوَت عليه الوحوش من قلب الصحراء. وتحدّث عمّا لاقوه في رحلتهم بالصحراء

من حرٍّ وعطش، وكيف كادوا يبلغون مَقصِدَهم لمّا طاردهم أسد آخر وجرح آرافيس. وأيضاً كيف مضى وقتٌ طويل جدّاً على آخر مرّة تناول فيها شيئاً من الطعام.

فقال له الصوت الضخم: «لستُ أدعوك سيّئ الحظّ!»

وسألَ شصطى: «ألا تعتقد أنّ سوء الحظّ جعلني أقابل أُسوداً كثيرة؟»

فقال الصوت: «لم يكُن هناك إلّا أسَدٌ واحد فقط».

«ماذا تعني، يا تُرى؟ ها قد قلتُ لكَ إنّ أسدَين على الأقلّ طارادانا أوّل ليلة، وقد...»

«كان هنالك أسد واحد فقط، إلّا أنّه كان سريع الحركة جدّاً».

«وكيف عرفْت؟»

«كنتُ أنا الأسد!»

وإذ فغر شصطى فمه مُحدّقاً بغير أن يقول كلمة واحدة، تابع الصوت يقول:

«كنتُ أنا الأسدَ الذي اضطرّك إلى مرافقة آرافيس. وكنتُ أنا الهرّ الذي آنسك بين بيوت الأموات. وكنتُ أنا الأسدَ الذي طرد عنك بنات آوى وأنت نائم. وكنتُ أنا الأسد الذي أمدّ الحصانين بقوّة الخوف الجديدة لقطع الميل الأخير حتّى تصل إلى الملك لُون في الوقت المناسب. وكنتُ أنا الأسد الذي لا تتذكّره والذي دفع القارب الذي طُرِحتَ فيه ولداً يكاد يموت، حتّى وصل إلى الشاطئ، حيث كان قاعداً في نصف الليل رجلٌ طار

النوم من عينيه، كي يستقبلك!»

«إذاً، كُنتَ أنت مَن جرح أراڤيس».

«نعم، كنتُ أنا».

«ولكنْ، لماذا؟»

فقال الصوت: «يا ولد، أنا أحكي لك قصّتك، لا قصّتها. فأنا لا أقصّ على أحدٍ سوى قصّته فقط».

وسأله شصطى: «ومَن أنت؟»

فقال الصوت بنبرةٍ عميقة وخفيضة جدّاً بحيث اهتزّت الأرض: «أنا نفسي!» ثمّ كرّر ثانيةً، بنبرةٍ عالية وواضحة ومَرِحة: «أنا نفسي!» ثمّ قال ثالثةً: «أنا نفسي»، بهمس رقيق جدّاً بحيث لا تكاد تسمعه، ومع ذلك بدا صادراً من كلّ مكان حواليك وكأنّ أوراق الشجر تهمس به مع حفيفها.

ولم يعُد شصطى خائفاً أن يكون الصوت صوتَ شيءٍ قد يفترسه، ولا أن يكون صوت شَبَح. إلّا أنّ رِعدةً جديدةً ومختلفةً سَرَت في جميع أوصاله. ومع ذلك شعر بالسرور يغمره أيضاً.

عندئذٍ كانت غشاوة الضباب تتحوّل من اللون الأسود إلى الرماديّ، ومن الرماديّ إلى الأبيض، ولا بدّ أنّ هذا بدأ يحدث منذ بعض الوقت. ولكنْ بينما كان شصطى يُكلّم صاحبَ الصوت، لم يلاحظ أيَّ شيء آخر. أمّا الآن، وقد صار البياض المحيط به بياضاً متألّقاً، بدأت عيناه تطرفان. وفي مكانٍ ما قدّامه، استطاع أن يسمع الطيور تغرّد، فعلم

أنّ الليل قد مضى أخيراً. وتمكّن آنذاك من أن يرى بكلّ سهولة عُرف حصانه وأذنيه ورأسه. ثمّ ترامى عليهما نورٌ ذهبيٌّ من جهة اليسار، فحسب أنّه ضوء الشمس.

والتفت فرأى أسداً يتهادى بقربه، أطولَ من الحصان. ولم يبدُ أنّ الحصان خاف منه، أو ربّما لم يقدر أن يراه. فإنّما من الأسد انبعث نورٌ. وما رأى أحدٌ قطُّ شيئاً أرهب أو أجمل!

ومن الخير أنّ شصطى قد عاش ما مضى من حياته في أقصى الجنوب بعيداً في كالورمِن، فلم يسمع الحكايات التي كان الناس في طشبان يتهامسون بها عن روح نارْنيانيّ شرّير يظهر في شكل أسد. ولم يعرف بالطبع شيئاً من القَصص الحقيقيّة عن أصلان، الأسدِ العظيم، ابنِ إمبراطور ما وراء البحر، الملك الأعلى فوق جميع الملوك الأعاظم في نارنيا. ولكنْ بعد نظرةٍ واحدة إلى وجه الأسد، انزلقَ عن صهوته وخرَّ عند قدمَيه. ولم يقدر أن يقول أيَّ شيء، ولكنْ بعدئذٍ لم يُرِد أن يقول أيَّ شيء، وقد علم أنّه لا داعيَ لأنْ يقول أيَّ شيء.

وانحنى «الملك الأعلى فوق جميع الملوك الأعاظم» نحو شصطى. فإذا بلُبدته، وبعطرٍ غريب ومهيب مستقرٌّ حول اللُّبدة، يحيطان به من كلّ جهة. ثمّ مسّ بلسانه جبين شصطى، فرفع وجهَه، وتلاقت أعيُنهما. وعندئذٍ تداخل في الحال ضياءُ الضبابِ الباهتُ وضياءُ الأسدِ المتوهّج، واتّحدا كلاهما في دُوّامةٍ من المجد، واستجمعا

أحدُهما الآخر، ثمَّ تواريا عن النظر. وإذا بشصطى وحده مع الحصان على سفح تلٍّ كثير العشب، تحت سماءٍ زرقاءَ صافية، حيث سُمِعت طيورٌ تُغرِّد وتشدو.

الفصل الثاني عشر

شصطى في نارْنيا

تساءل شصطى: «أكان ذلك كلُّه حلماً؟»

ولكن لم يكن ممكناً أن يكون ذلك حلماً، لأنَّه هناك في العشب أمامه شاهد الأثر العميق الكبير الذي خلَّفه مخلب الأسد الأماميُّ الأيمن. وكان التفكير بالوزن الثقيل الذي يمكن أن يخلِّف أثر قدمٍ مثل ذلك أمراً يثير أبلغ دهشة. ولكنَّ كان فيه ما هو أروع من حجمه. فإذ نظر شصطى إليه، وجد أنَّ الماء قد ملأ قعره توّاً. وسرعان ما غدا ملآناً حتَّى حافاته، ثُمَّ أخذ يفيض، وإذا بجدولٍ صغير يجري فوق العُشب على مُنحدر التلّ، مُجاوزاً إيّاه.

وانحنى شصطى فشرب شربةً طويلة جدّاً، ثمَّ غطَّس وجهه ورشَّش رأسه. وقد كان الماء شديد البرودة وصافياً كالبِلَّور، فأنعشه جدّاً. ثُمَّ وقف منفِّضاً الماء عن أذنيه ورادّاً شعره المُبلَّل عن جبينه بهزَّة سريعة من رأسه، وبدأ يتفحَّص ما حوله.

بدا له أنَّه ما يزال في أوائل الصباح الباكر. فإنَّ الشمس كانت قد أشرقت لتوِّها، وقد طلعت من الغابات التي رآها

في الأسفل بعيداً جداً إلى يمينه. وكان الريف الذي يشاهده جديداً عليه كليّاً. فقد كان أرضَ وادٍ خضراءَ مُنقَطةً بالأشجار التي لمح من خلالها وميضَ نهرٍ يتلوّى باعوجاجٍ مبتعداً نحو الشمال الغربيّ. وعلى طرف الوادي الأقصى ارتفعت تلالٌ عالية، بل صخريةٌ أيضاً، ولكنّها كانت أقلّ علوّاً من الجبال التي رآها أمس. وعندئذٍ بدأ يُخمّن أين هو. والتفت ناظراً إلى ورائه فرأى أنّ السفح الذي كان واقفاً عليه جزءاً من سلسلة من الجبال الأعلى جدّاً.

فقال لنفسه: «لقد عرفتُ! هذه هي الجبال الكبيرة بين بلاد آرخيا ونارْنيا. وقد كنتُ على الجانب الآخر منها أمس. فلا بدّ أن أكون قد اجتزتُ المعبر ليلاً. ما كان أحسن حظّي حتّى وصلتُ إلى هُنا!... على الأقلّ، لم يكن الفضل للحظ بالفعل على الإطلاق، بلِ الفضلُ له هو. فها أنا الآن في نارْنيا!»

ثمّ دار وأنزل السرج عن الحصان، ونزع عنه لجامه، قائلاً له: «رُغمَ كونك حصاناً سيّئاً للغاية!» فلم يُبالِ الحصان بهذا التعليق، وأخذ في الحال يرعى العشب. وقد كان ذلك الحصان يحتقر شصطى بعضَ الشيء.

وفكّر شصطى: «يا ليتني أقدر أن آكل عشباً. لا خير في الرجوع إلى أنْفارد، فهي ستكون مُحاصرةً كلُّها. فالأفضل أن أنزل قليلاً إلى قلب الوادي لأرى هل أجد شيئاً آكله».

وهكذا انحدر على التلّ (وكان الندى الكثيف بارداً

بقسوة على قدمَيه الحافيتَين) حتّى صادف غابة يخترقها شِبهُ درب، ما إن سار عليه بضع دقائق حتّى سمع صوتاً أجشَّ، كأنّه شخيرٌ يُداخِله صفير، قائلاً له:

«صباح الخير، يا جار!»

والتفت شصطى متلهفّاً ليرى مَن المتكلّم، فرأى في الحال مخلوقاً صغيراً مليئاً بالشّوك، ذا وجهٍ أسمر، كان قد خرج توّاً من بين الأشجار. وكان ذلك المخلوق أصغر من أن يكون شخصاً، ولكنْ أكبر من القُنفذ، وإن كان قُنفذاً بالحقيقة.



فأجابه شصطى: «صباح الخير! ولكنّي لستُ جاراً. فأنا في الواقع غريبٌ في هذه الأنحاء».

وقال القُنفذ مستفسِراً: «أه؟»

«لقد جئتُ على الجبال، من بلاد آرخيا، كما ترى».

فردّ القُنفذ: «آه، بلاد آرخيا! تلك طريقٌ طويلةٌ جداً. وأنا لم أسلكْها قطّ».

وقال شصطى: «وأظنُّ على الأرجح أنّ أحداً يجب

أن يُقال له إنّ هنالك جيشاً من أهل كالورمن الهمجيّين يهاجم أنْقارد في هذه اللحظة بالذات».

فأجاب القُنفذ: «غير مُمكن؛ أنت تمزح! حسناً، فكّر في هذا. إذ يقولون إنّ كالورمن تبعد من هنا مئاتٍ بل أُلوفاً من الأميال، وهي في أقصى العالم تماماً، وراء بحرٍ شاسع من رمال الصحراء».

قال شصطى: «ليست بعيدة تماماً كما تظنّ. ثُمَّ ألا يجب أن نفعل شيئاً ما بشأن هذا الهجوم على أنْقارد؟ ألا ينبغي أن يخبر أحدٌ مَلِكَكم الأعلى؟»

فأجاب القُنفذ: «بكلّ تأكيد، يجب أن نفعل شيئاً بشأنه. ولكنّك ترى أنّني في طريقي إلى سريري حتّى آخذ قيلولةً طيّبة ... مرحباً يا جار!»

وقد وُجِّهت العبارة الأخيرة إلى أرنب ضخمٍ ذي لونٍ أسمر شاحب كان قد برز توّاً من مكانٍ ما بقربِ الطريق. وفي الحال أخبر القُنفذ الأرنب بما كان قد علمه من شصطى قبل لحظة. فأقرّ الأرنب بأنّ هذا الخبر مهمٌ جدّاً، وأنّ أحداً يجب أن يُخبِر به شخصاً ما، بقصد فعْل شيء ما بشأنه».

وهكذا جرى الأمر. كلّ بضع دقائق انضمّت إليهم مخلوقاتٌ أُخرى، بعضُها من الأغصان فوق رؤوسهم، وبعضُها من بيوتٍ صغيرة تحت الأرض عند أقدامهم، حتّى باتت جماعتهم مؤلّفة من خمسة أرانب وسنجاب واحد وطائرَي عِقعِق وفُونٍ عنزيّ القَدَم وفأر، وقد أخذوا يتكلّمون كلّهم في وقت واحد واتّفقوا جميعاً مع القُنفذ.

فقد كانت الحقيقة أنّه في ذلك العصر الذهبيّ الذي فيه كانتِ الساحرة والشتاء قد مَضيا، وحكم بطرس الملك الأعلى في كَيرپراڤيل، كان أهل الغابة الصغار في نارنيا يعيشون في أمانٍ وسعادة وافِرَين بحيث باتوا يميلون قليلاً إلى عدم المُبالاة.

ولكنْ في تلك الأثناء وصل إلى الغابة الصغيرة شخصان آخران عمليّان، كان أحدهما قزماً أحمر تبيّن أنّ اسمَه دَفِل. أمّا الآخر فكان غزالاً ذكراً، مخلوقاً جليلاً جميلاً ذا عينين واسعتين برّاقتين وجَنبَين مُرقَّطَين، وأرجُل نحيفة ورشيقة للغاية بحيث بدت كما لو كان يمكنك أن تكسرها بإصبعين من أصابعك.

وحالما سمع القزم الخبر، صاح بأعلى صوته: «وحياةِ الأسد! ما دام الأمرُ هكذا، فلماذا نحن واقفون بلا حراكٍ مُثرثِرين؟ عجباً، الأعداءُ في أنْقارد! يجب أن ترسل خبراً إلى كيرپراڤيل في الحال. يجب أن يُستدعى الجيش. يجب أن تهبَّ نارنيا لنجدة الملك لُون».

وقال القُنفذ: «آه! ولكنّكم لن تجدوا الملك الأعلى في كَير. فقد انطلق إلى الشمال بعيداً كي يهزم أولئك المَرَدة. وعلى ذِكر المردة، يا جيران، فقد تذكّرتُ أنّ...»

فقاطعه القزم قائلاً: «ومَن سيحمل رسالتنا؟ أهُنا مَن هو أسرعُ منّي؟»

وقال الغزال: «السرعة من اختصاصي. فما هي رسالتي؟ ما عدد رجال كالورمن».

«مئتان، بقيادة الأمير راباداش. ثُمَّ...» إلَّا أنَّ الغزال كان قد انطلق رافعاً أرجله الأربع عن الأرض معاً، وبعد هُنيهةٍ اختفت مؤخَّرته البيضاء بين الأشجار البعيدة جدّاً.

وقال الأرنب: «تُرى، أين ذهب؟ لَن يجد الملك الأعلى في كيرپراڤيل، كما تعلمون».

فأجاب دَفِل: «سيجد الملكة لوسي. ثُمَّ انظروا! ماذا حلَّ بهذا البَشَريّ؟ إنَّه يبدو شاحِباً جدّاً. عجباً؟ أعتقد فعلاً أنَّه خائرٌ تماماً. ربَّما يكاد يموت جوعاً. متى أكلتَ آخِر مرَّة، يا صغير؟»

فردَّ شصطى بكلِّ ضعف: «صباحَ أمس».

وقال القزم، مطوِّقاً في الحال خصر شصطى بذراعه الصغيرة الثخينة: «هيّا بنا إذاً، هيّا بنا! ألا يجب علينا جميعاً، يا جيران، أن نخجل من أنفسنا؟ تعال معي، يا صبيّ. الفَطور خيرٌ من الثرثرة».

وبكثيرٍ من الاستعجال عمد القزم، وهو يلوم نفسه متمتماً، إلى اصطحاب شصطى بين اقتيادٍ ومُساندة، وبسرعةٍ لافتة، إلى داخل الغابة، ونحو سفح تلَّة صغيرة. وكانت المسافة أطول من أن يرغب شصطى في قطعها آنذاك، وقد ابتدأ يشعر بتقلقُل رجلَيه كثيراً قبل خروجهما من بين الأشجار إلى مُنحدر التلَّة. وهنالك وجدا بيتاً صغيراً ذا مدخنةٍ يتصاعد منها الدخان وبابٍ مفتوح. وما إن وصلا إلى المدخل حتّى نادى القزم قائلاً:

«هاي، يا أخَوَيَّ! لدينا ضيفٌ على الفَطور».

وفي الحال اشتمَّ شصطى رائحة طيِّبة شهيّة وسمع طَشيشاً. ولم يكُن قد اشتمَّ مثل تلك الرائحة قطُّ في ما مضى من حياته، إلَّا أنّني أرجو أن تكون أنت قد شمَمت مثلها. وقد كانت في الواقع رائحة لحم مُقدَّد وفُطر وبيض يُقلى معاً في مقلاة.

وبعد لحظةٍ قال دَفِل متأخِّراً: «انتبه إلى رأسك، يا فتى!» إذ كان شصطى بالفعل قد صدم جبينه بعَتبة الباب العُليا. ثمَّ أردف القزم: «والآن اقعُد. الطاولة واطئة قليلاً عليك، ولكنَّ الكرسي منخفضٌ أيضاً. هذا جيِّد. وهاكَ بعض العصيدة، وإبريقاً من القشدة، وملعقة».

وما إن أتى شصطى على صحن العصيدة، حتّى كان أخَوَا القزم (واسماهما رُوغِن وهَشَايْبَهام) يضعان على الطاولة صحن اللحم المُقدَّد والبيض والفُطر، وإبريق القهوة والحليب الساخن والخبز المحمَّص.

كان ذلك كلُّه جديداً وعجيباً بالنسبة إلى شصطى، لأنَّ الطعام الكالورمنيَّ مختلف تماماً. حتّى إنَّه لم يعرف ما تلك الشرائح البنّيَّة لأنَّه لم يكن قد رأى خبزاً محمَّصاً من قبل. ولا عرف ما ذلك الشيء الطريُّ الأصفر الذي دهنوه على الخبز، لأنَّك في كالورمِن تحصل دائماً تقريباً على الزيت بدلاً من الزبدة. وقد كان البيت نفسه مختلفاً عن كوخ أرشيش المظلم العفن الذي تفوح منه رائحة السمك، وعن القاعات ذات الأعمدة والسجّاد في قصور

طشبان. فالسقف كان واطئاً جدّاً، وكلُّ شيء كان مصنوعاً من الخشب، وكان هنالك ساعة كوكو وشرشف طاولة ذو مربّعات بلونٍ أحمر وأبيض، وزهريّة من الزهر البرّيّ وستائر صغيرة على الشبابيك ذات الزجاج الثخين. وكان مُحرِجاً بالأحرى أن يُضطرّ شصطى إلى استخدام كؤوس الأقزام وصحونهم وسكاكينهم وشوكاتهم. إذ عنى هذا أنّ الحصص كانت صغيرة جدّاً. ولكنْ عندئذٍ قُدِّمت حصصٌ كثيرة جدّاً، حتّى كان صحن شصطى أو كوبه يُملأ كلَّ هُنيهة. وقد ظلّ الأقزام أنفسهم يقولون بين لحظة وأخرى: «الزُبدة من فضلك!» أو «كوب قهوة آخر!» أو «هل لي بقليلٍ من الفُطر بعد؟» أو «هل نقلي بعدُ بيضةً أخرى أو أكثر؟»

وبعدما أكل الأقزام كلُّهم بقدْر ما يقدرون، ألقَوا قُرعةً ليَروا مَن سيغسل الأواني، فكان رُوغِن هو سيّئ الحظّ. ثمّ اصطحب دَفِل وهَشّابهام شصطى خارجاً إلى مصطبةٍ مُسنَدة إلى حائط الكوخ، حيثُ مدّوا أرجلهم جميعاً، وتنهّدوا تنهُّدةَ شبَع، وأشعل القزمان غليونَيهما. وكان الندى قد زال عن العشب الآن، والشمس قد حَمِيَت. وبالحقيقة، لولا نسمةٌ خفيفة، لكان الحرُّ شديداً.

ثمّ قال دَفِل: «والآن، يا غريب، سأُريك تضاريس البلد. ففي وسعك أن ترى من هنا جنوبَ نارنيا كلَّه تقريباً، ونحنُ إنّما نُفاخر بهذا المنظر. وإلى يسارك تماماً في البعيد، وراء هذه التلال القريبة، يُمكنك أن ترى الجبال

الغربيّة وحدها. وتلك التلّة المُدوَّرة في البعيد، إلى يمينك، تُدعى تلّة طاولة الحجر. وتماماً وراء...»

ولكنّ القزم قُوطع تلك اللحظة إذ سمع شخير شصطى. فبعد رحلة الليل المُرهقة وذلك الفَطور اللذيذ، سطا عليه النوم سريعاً. وما إن لاحظ القزمان اللطيفان ذلك، حتّى أخذا يومئان أحدهما للآخر ألّا يوقِظاه. وقد أصدرا بالحقيقة كثيراً من الهمس والإشارات، وهما ينهضان وينصرفان على رؤوس أصابع أقدامهما، حتّى كادا يوقظانه، لو لم يكُن مُتعَباً إلى ذلك الحدّ.

وقد نام نوماً هنيئاً طول النهار تقريباً، إلّا أنّه استيقظ في وقت تناوُل العَشاء. وكانت الأسرّةُ في ذلك البيت كلُّها أصغر من أن تَسَعه. غير أنّهم عملوا له فرشةً من الخلنج على الأرض، ولم يتحرّك قطّ ولا حلم بشيء طوال الليل. وفي صباح الغد، حالما فرغوا من فطورهم، سمعوا صوتاً حادّاً مُثيراً من الخارج.

فقال الأقزام كلُّهم: «أبواق!» فيما ركضوا هم وشصطى جميعاً إلى الخارج.

ثمّ صدحت الأبواق من جديد، بصوتٍ جديد على شصطى، لا ضخم وكئيب كصوت أبواق طشبان، ولا مَرِح وبهيج مثل تبويق الملك لُون، بل واضح وثاقب وباسل. كان الصوت آتياً من الغابات الواقعة شرقاً، وسرعان ما داخَلَهُ وقْع حوافرِ خيل. وما هي إلّا لحظة حتّى برزت طليعة الصفّ للعِيان.

بدا أوّلاً السيّد بريدان على حصانٍ كستنائيّ اللون، حاملاً عَلَم نارنيا العظيم: أسد أحمر على خلفيّة خضراء. وقد عرفه شصطى في الحال. ثمّ برز ثلاثة أشخاصٍ راكبين جنباً إلى جنب، اثنان على فَرَسي قتال كبيرَين، وواحد على جَواد قصير القوائم. وكان راكبا فرسَي القتال هما الملك إدمون وسيّدة شقراء ذات وجه مَرِح جدّاً، تعتمر خوذةً ودرع زَرَد وتحمل على كتفها قوساً وعلى خصرها جعبةً ملآنةً سهاماً. (وقد همس دَفِل قائلاً: «الملكة لوسي!»). ولكنّ راكب الجَواد القصير القوائم كان كورين. وبعد ذلك ظهر مُعظم الجيش: خيّالة على أحصنة عاديّة، فُرسان على أحصنة ناطقة (لم يكن يهم الأحصنة الناطقة أن تُمتطى في المناسبات الخاصّة، كما يكون عند خروج أهل نارنيا إلى الحرب)، قنطورات، دببة قويّة مدرّبة جيّداً، كلاب ناطقة كبيرة، ثُمّ ستّة مَرَدة في المؤخّرة. فقد كان في نارنيا مَرَدة صالحون. ولكنّ رُغم عِلم شصطى بأنّهم في الجانب الصائب، لم يكد يُطيق النظر إليهم أوّلاً. ومعروفٌ أنّ في



الحياة بعضَ الأمور التي يستغرق التعوُّد عليها وقتاً.

وما إن وصل الملك والملكة إلى الكوخ، وبدأ الأقزام ينحنون لهما انحناءاتٍ واطئة، حتّى صاح الملك إدمون قائلاً:

«والآن، يا أصحاب، حان وقتُ وقفة وتناوُل شيء من الطعام»

وفي الحال حصل ضجيج كثير، إذ ترجّل القوم عن الأحصنة، وأخذوا يفتحون أكياس زادهم، وابتدأ الحديث حين أقبل كورين إلى شصطى راكضاً، وأمسك بكلتا يديه وصاح: «ماذا؟ أنتَ هنا؟ إذاً، قد نجوتَ بسلام؟ أنا مسرور جدّاً. سنلهو الآن قليلاً. ثمّ أليس هذا حظّاً حسناً؟ فنحنُ إنّما أرسَينا عند كيرپراڤيل صباحَ أمس، وأوّل شخصٍ لاقانا كان شيرفي الغزال حاملاً خبر الهجوم على أنْفارد. ألا تعتقد...»

كان الملك إدمون قد ترجّل عن حصانه توّاً، فقال: «مَن هو صديقُ سمُوّك؟»



أجاب كورين: «ألا ترى، يا مولاي؟ إنَّه شبيهي، ذاك الصبيُّ الذي حسبتموه إيّاي في طشبان!»

وهتفت الملكة لوسي: «عجباً، هو شبيهك إذاً، وكأنكما توأمان. يا له من أمرٍ مُذهِل!»

وقال شصطى للملك إدمون: «عفوَك يا جلالة الملك! لم أكن خائناً، صدِّقني: لم أكن! لم أقدر إلَّا أن أسمع خُطَطكم. ولكنْ لم أكن لأحلم بتاتاً بإطلاع أعدائكم عليها».

فأجاب الملك إدمون، واضعاً يده على رأس شصطى: «ها قد علمتُ الآن أنك لست خائناً، يا بُنيّ. ولكنْ حتّى لا تُحسب خائناً، لا تحاول مرَّةً أخرى أن تسمع ما يُخاطَب به غيرُك. ولكنْ لا عليك، فكلُّ شيءٍ بخير!»

وبعد ذلك حصل كثيرٌ من النشاط البالغ والضجيج والمحادثة والذهاب والمجيء، حتّى غاب كورين وإدمون ولوسي عن نظر شصطى بضعَ دقائق. ولكنَّ كورين كان من نوع الصبيان الذين يعودون إلى الظهور سريعاً. فلم يمض وقت طويل حتّى سمع شصطى الملك إدمون يقول بصوتٍ عالٍ:

«ورأسِ الأسد، أيّها الأمير، هذا كثيرٌ جدّاً! ألن تكون سموُّك أفضلَ أبداً؟ إنك تجلب الهمَّ على القلب أكثر من جيش بكامله! وأُفضِّل بطيب خاطر أن يكون تحت إمرتي جيش من الدبابير على أن يكون معي جيش مثلك».

ثمَّ شقَّ شصطى طريقه مُتعرِّجاً وسط الحشد إلى

حيث شاهد إدمون وهو يبدو غضبانَ فعلاً، وكورين وهو يبدو خَجِلاً من نفسه بعض الشيء، وقزماً غريباً قاعداً على الأرض وهو يبدو مكتئباً. وكان فونان على ما يبدو قد ساعداه للتوِّ على خلع درعه.

وسُمِعت لوسي تقول: «يا ليتني كنتُ أحمل بَلسمي الشافي، وعندئذٍ كنتُ أُعالج هذه الحالة بسهولة. ولكنَّ الملك الأعلى أمرني أمراً مشدَّداً بألَّا أحمله إلى الحروب عموماً، بل أحتفظ به للضرورات القصوى!»

وهاك خبرَ ما جرى. ما إن فرغ كورين من محادثة شصطى، حتّى وكزه بكوعه قزمٌ في الجيش اسمُه شُوَيكان.

فسأله كورين: «ما الأمر، يا شُوَيكان؟»

فأخذه شُوَيكان جانباً وقال له: «يا صاحب السموِّ الملوكيّ، إنَّ زحفنا اليوم سيُفضي بنا إلى المعبر ومنه مباشرةً إلى قصر جلالة الملك أبيك. وقد نخوض معركةً قبل هبوط الليل».

فقال كورين: «أعرف! أليس هذا رائعاً؟»

وأجابه شُوَيكان: «أرائعاً كان أم غير رائع، فلديَّ أمرٌ صارمٌ من الملك إدمون بأن أحرص على عدم دخول سموِّك المعركة. إنَّما سيُسمح لك بمشاهدة المعركة، وفي هذا متعةٌ مميَّزة لسموِّك في سِني حداثتك هذه».

فانفجر كورين يقول: «أوه! ما هذا الكلام الفارغ؟ سأخوض المعركة طبعاً! ألن تكون الملكة لوسي بين رُماة السّهام؟»

وقال شوَيكان: «ستفعل جلالة الملكة ما تشاء. أمّا أنتَ ففي عهدتي. فإمّا أن تَعِدني وعداً قاطعاً بكلمةِ أمير بأنّك ستُبقي حصانك الصغير بجانب حصاني، بغير أن تتقدّم عنّي قدماً واحدة، حتّى آذن لسموّك بالتقدّم؛ وإمّا أنّه لا بُدّ لنا كلَينا -بناءً على أمر جلالته- من أن يُقيّد معصَمانا معاً كأسيرَين!»

فأجاب كورين: «سأصرعك إذا حاولت أن تُقيّدني!»

وردّ القزم: «يروقُني أن أرى سُموّك فاعلاً هذا».

فكان ذلك كافياً لإغاظة ولد مثل كورين. وبعد ثانيةٍ واحدة، أخذ هو والقزم يتعاركان بعنف وقوّة شديدَين. وكان ممكناً أن تكون المُبارزة عادلةً، لأنّه وإن كان كورين أطول قامةً وذراعَين من القزم، فإن القزم كان أكبر سنّاً وأشدّ قسوةً. ولكنّ القتال لم يحسم الأمر قطّ (إذ أسوأُ المُبارزات تلك التي تجري على سفح تلّةٍ وعر). فمن سوء الحظّ أنّ شويكان داس على حجر مُتقلقِل، فوقع أرضاً على أنفه؛ ولمّا حاول النهوض وجد أنّ كاحله قدِ التوى التواءً شديد الإيلام من شأنه أن يمنعه من المشي أو الركوب مدّةَ أُسبوعين على الأقلّ.

وقال الملك إدمون: «انظُر ماذا فعلتَ سموُّك. لقد حرمتَنا مُحارباً ممتازاً قُبَيل بدء المعركة!»

فقال كورين: «سأحلّ محلّه، يا مولاي!»

وقال إدمون: «أُفّ! لا أحد يشكّ في شجاعتك. ولكنّ وجود ولد في المعركة يُشكّل خطراً على صفّه فقط».

في تلك اللحظة دُعي الملك للاهتمام بشأنٍ آخر. فما كان من كورين، بعد اعتذاره بأدبٍ إلى القزم، إلّا أن اندفع إلى حيثُ شصطى وهمس:

«هيّا! عندنا الآن فرسٌ احتياطيّ، ودرعُ القزم أيضاً. فالبسها قبل أن يلاحظ أحد».

فسأله شصطى: «ولماذا؟»

«لماذا؟ حتّى نتمكّن أنا وأنت من خوض المعركة طبعاً! ألا تُريد ذلك؟»

أجاب شصطى: «أُوه، آه، بالطبع نعم!» إلّا أنّه لم يكن ينوي ذلك قطّ، فبدأ يضطرب ويشعر بخوفٍ غير قليل.

وقال له كورين: «هذا صحيح. ضع الخوذة على رأسك، واربط مِحمَل السيف على خصرك. إنّما علينا أن نركب على مقربةٍ من آخِر الصفّ، ونبقى ساكِتَين كالفئران. فحالما تبدأ المعركة، يكون الجميع منهمكين فلا يتنبّهون إلينا».

الفصل الثالث عشر

معركة أنْڤارد

نحو الساعة الحادية عشرة قبل الظهر، عادت الجماعة كلُّها إلى الزحف، مُنطلقةً غرباً والجبال إلى يسارها. وقد ركب كورين وشصطى في آخِر الرَّكْب، وأمامهما تماماً المَرَدة. وانشغل إدمون ولوسي وبريدان بخُطَط المعركة. ومع أنّ لوسي سألت مرّةً: «ولكنْ أين سموُّ الأمير المتبجّح؟» فقد اكتفى إدمون بأن قال: «ليس في المقدّمة، وهذا خبر طيّبٌ جداً. فلندعْه وشأنَه!»

وقصَّ شصطى على كورين مُعظم مغامراته، موضّحاً أنّه تعلّم كلَّ ما يعرفه عن ركوب الخيل من حصان، وأنّه لا يعرف فعلاً كيف يستخدم الزِمام. فعلّمه كورين ذلك، فضلاً عن إخباره بكلِّ ما يخصُّ إبحارهم سرّاً من طشبان.

«وأين الملكة سوزان؟»

أجاب كورين: «في كيرپراڤيل. إنّها ليست مثل لوسي، كما تعلم؛ فلوسي أُختُ الرجال، أو على الأقل جيّدة مثل الفِتيان. أمّا الملكة سوزان فهي أشبه بالسيّدة الناضجة. وهي لا تخوض المعارك، وإن كانت رامية سهام ماهرة».

ثمّ أخذ الطريق الذي كانوا يسيرون فيه على سفح التلّ يصير أضيقَ فأضيق، وأصبح المنحدر إلى يمينهم أشدَّ انحداراً. وأخيراً باتوا يسيرون في صفٍّ واحد على حافة جُرف، وسرت القشعريرة في أوصال شصطى إذ تبيّن له أنّه سار هناك البارحةَ بغير أن يعلم. إلّا أنّه فكّر: «ولكنْ طبعاً كنتُ في أمانٍ تامّ. فلهذا ظلّ الأسد ماشياً عن يساري: لقد كان بيني وبين الحافة طوال الوقت».

بعد ذلك انعطف الطريق يساراً نحو الجنوب، بعيداً عن الجُرف، وحفّت به من كِلا الجانبين غاباتٌ كثيفة انتشرت صعوداً حتى المعبر. ولو كانتِ الأرض مكشوفة، لكان المنظر من الأعلى رائعاً. إنّما بين تلك الأشجار كلّها لم يكن يمكنك أن ترى شيئاً، بين حينٍ وآخر، إلّا قمّة صخريّة ضخمة فوق رؤوس الشجر، ونسراً أو نسرين يُحوّمان عالياً في الفضاء الأزرق.

وقال كورين، مشيراً إلى الطَّير: «إنّ النسور تشمُّ رائحة الحرب، وهي تعلم أنّنا سنوفّر لها طعاماً».

فلم يُعجِب ذلك شصطى قطّ.

ولمّا اجتازوا مضيق المعبر وهبطوا مسافةً لا بأس بها، وصلوا إلى أراضٍ أكثر انكشافاً. ومن هناك استطاع شصطى أن يرى بلاد آرخيا كلَّها، زرقاءَ وغائمة، منتشرةً تحتهم، وخُيّل إليه أنّه لمح أثراً للصحراء في ما وراءها. غير أنّ الشمس، التي كانت ستغيب بعد ساعتين أو نحوهما على الأرجح، كادت تبهر عينيه، فلم يستطع تمييز الأشياء بوضوح.

وهنا توقّف الجيش، وانتشر في صفّ، وجرى كثير من إعادة التنظيم. فإنّ فِرْقةً كاملة من البهائم الناطقة ذات المنظر المخيف، لم يكن شصطى قد لاحظها قبلاً وكانت في معظمها من السِنّوريات (الفهود والنمور وما شابه)، مَشَت على مخالبها ببطء وهي تُهمهِم وتُدَمدِم لتأخذ مواقعها إلى اليسار. ثمّ تلقّى المَرَدة أمراً بالتوجُّه يميناً، وقبل تنفيذ الأمر أنزلوا جميعُهم عن ظهورهم شيئاً كانوا يحملونه وقعدوا على الأرض قليلاً. عندئذٍ لاحظ شصطى أنّ ما كانوا يحملونه هو أحذية، وقد جلسوا الآن كي ينتعلوها، وقد كانت جَزماتٍ ثقيلةً خشنة تصل حتّى رُكَبهم في نِعالها مساميرُ. ثمّ أمالوا هراواتِهم الضخمةَ على أكتافهم وانطلقوا كالعسكر إلى مواقعهم القتاليّة. أمّا رُماة السهام، وبينهم الملكة لوسي، فقد تراجعوا إلى آخِر الصفّ، وكان يمكنك أوّلاً أن تراهم يَحنون أقواسهم ثمّ أن تسمع صوت الأوتار وهم يتفحّصونها: توانْغ-توانْغ! وأينما نظرْت، كان يمكنك أن ترى قوماً يشدّون أحزمة السُروج، أو يعتمرون الخُوَذ، أو يستلّون السيوف، أو يطرحون عباءاتهم أرضاً. ولم تكد تُسمَع كلمةٌ واحدة الآن؛ كما كان المنظر مهيباً ورهيباً جدّاً. حتّى فكّر شصطى: «لقد علقتُ الآن، ولا مفرّ لي من المشاركة في خوض المعركة!» ثمّ سُمع ضجيجٌ من بعيد، بين أصوات رجالٍ يصيحون وصوتٍ هادرٍ متكرّر: طَذْ-طَذْ-طد!

فهمس كورين: «هذه آلة الكَبْش. إنّهم يدكّون البوّابة!»

حتّى إن كورين نفسه بدا بالغ الجِديّة الآن. وقال: «لماذا لا يتقدَّم الملك إدمون، يا تُرى؟ لا أُطيق هذا التمهُّل. كما أن البَرْدَ شديدٌ أيضاً!»

فأومأ شصطى برأسه، آمِلاً ألّا يبدو مرتعباً كما هو فعلاً.

وأخيراً نُفخ في البوق! فزحف الجيش، والأحصنةُ تهرولُ حيناً وتعدو حيناً، والعَلَم يخفق في الهواء. حتّى اعتلَوا سلسلة تلالٍ منخفضة، فانكشف تحتها المشهد كلُّه فجأةً، وإذا بقلعةٍ صغيرة كثيرة الأبراج تبدو أمامهم، وبوّابتُها مقابلَهم. والمؤسف أنّه لم يكن حول القصر خندقٌ مائيّ. لكنّ البوّابة كانت مقفلةً طبعاً، وشعريّة التحصين الحديديّة مُنزلة. واستطاعوا أن يروا فوق الأسوار وجوه المُدافِعين كنُقَط بيضاء صغيرة. وفي الأسفل، كان نحو خمسين من رجال كالورمِن قد ترجّلوا عن أحصنتهم وحملوا جذع شجرة طويلاً ضخماً وأخذوا يضربون البوّابة برأسه ضرباً مُتتالياً. ولكنْ في الحال تغيَّر المشهد. فإنّ القسم الأكبر من رجال راباداش وقفوا على أقدامهم



متأهّبين للانقضاض على البوّابة. غير أنّه رأى الآن النارنيانيّين نازلين من الجبل. ولا شكّ أنّ الكالورمنيّين أولئك كانوا مدرَّبين أحسن تدريب. إذ بدا لشصطى أنّه في ظرف ثانية واحدة بات صفٌّ كامل من الأعداء على ظهور الخيل من جديد، وداروا بسرعة للقائهم مندفعين نحوهم اندفاعاً.

آنذاك ركضت الخيول بأقصى سرعتها، وأخذت الأرض الفاصلة بين الجيشين تضيق كلّ لحظة. ثمّ تضاعفت السرعةُ بعد، وقد جُرِّدت الآن كلّ السيوف، وأُسدِلت غِماءات الخُوَذ حتّى الأنوف، وتُلِيت كلّ الصلوات، وصرّ الجميع على أسنانهم. وقد ارتعب شصطى وارتعد جدّاً. ولكنّ فجأةً خطر في باله هذا الخاطر: «إن ذُعِرتَ من هذه المعركة وفَرَرْت، فسوف تخشى كلّ معركة أخرى طول عمرك. فالآن، وإلّا فلا إلى الأبد!»

ولكنْ لمّا التقى الصفّان أخيراً، لم يعد شصطى يقدر أن يعي تماماً ما يجري. فقد دبّت فوضى مُروِّعة، وسُمِعت ضجّة مُنفِّرة. وسرعان ما تلقّى سيفُه ضربةً أسقطتْهُ من يده. وتشابك حبل زمام الحصان بطريقةٍ ما. ثمّ وجد نفسه ينزلق. وإذ توجّه إليه رمحٌ مباشرةً، انحنى كي يتجنّبه، فتدحرج من على حصانه حالاً، وصدم مفاصِلَ أصابع يُسراه بدرعِ شخصٍ آخر، ثُمّ...

ولكنْ لا فائدةَ من محاولة وصف المعركة من وُجهة نظر شصطى. فما كان أقلّ فهمه للقتال عموماً، ولدوره

في المعركة خصوصاً! وأفضل طريقة يمكنني بها أن أُطلِعك على ما جرى حقّاً هي أن أصطحبك إلى مكان يبعد بضعة كيلومترات، حيث كان ناسكَ الحدود الجنوبيّة قاعداً يحدّق إلى البركة الساكنة تحت الشجرة التي تُظلّلها، وبقربه بِري وهُوِين وآرافيس.

ففي تلك البركة كان الناسك ينظر كلّما أراد أن يعرف ما يجري في العالم خارجَ حيطان صومعته الخُضر. إذ كان في وسعه أن يرى هناك في بعض الأوقات، كما في مرآة، ما يجري في شوارع مدن تبعد عنه جنوباً أكثر من طشبان بكثير، أو أيّةُ سفن تدخل المرفأ الأحمر في الجزر السبع النائية، أو أيُّ لصوص أو وحوش يجوبون الغابات الغربيّة الكبيرة بين خِربة المصباح وتلمار. ولم يكن طيلة ذلك النهار تقريباً قد غادر بِركتَه، ولو ليأكل أو يشرب، إذ علم أنّ أحداثاً عظيمة كانت تجري في بلاد آرخيا. وقد حدّقت آرافيس والحصانان إلى البركة أيضاً، فأدركوا أنّها بركةٌ سحريّة. إذ بدل أن تعكس صورة الشجرة والفضاء، ظهرت فيها أشكالٌ قاتمة ومُلوّنة تتحرّك، دائماً تتحرّك، في أعماقها. ولكنّهم لم يستطيعوا أن يروا أيّ شيء بوضوح. أمّا الناسك فقد كان يستطيع ذلك، وقد أخبرهم من حينٍ إلى آخر بما رآه. وقبل فترة قصيرة من ركوب شصطى لخوض معركته الأولى، كان الناسك قد بدأ يتحدّث على النحو التالي:

«أرى نسراً – نسرين – ثلاثة تحوّم فوق الشِّعْب قُرب قمّة العواصف. وأحدُها أكبر النسور جميعاً. ولم يكنْ

هذا النسر ليخرج إلّا عند اقتراب المعركة. أراه يُحوّم ذهاباً وإياباً، محدّقاً حيناً إلى آنفارد وحيناً إلى الشرق، ما وراء قمّة العواصف. إي، أرى الآن ما كان راباداش ورجاله مشغولين به طول النهار. لقد قطعوا شجرة كبيرة وشذّبوا أغصانها، وهم الآن يخرجون من الغابة حاملين إيّاها كآلة الكَبْش. وقد تعلّموا شيئاً من فشلهم في هجوم البارحة. ولو كان أكثر حكمةً لأمر رجاله بصنع سلالم. غير أنّ ذلك يستغرق وقتاً طويلاً جدّاً، وهو قليل الصبر. يا له من غبيّ! كان عليه أن يركب راجعاً إلى طشبان حالما فشل الهجوم الأوّل، لأنّ خُطّته بكاملها تعتمد السرعة والمفاجأة. ها هم الآن يضعون كبْشهم في موقعه. ورجال الملك لُون يُطلقون السّهام بشدّة من على الأسوار. وقد سقط خمسة قتلى من رجال كالورمِن، إنّما لن يسقط كثيرون بعد. ها هي خُوذهم على رؤوسهم. وراباداش يُصدر أوامره الآن، ومعه السادة الذين يثق بهم كلّ الثقة: طَراقنة أشدّاء من الولايات الشرقيّة. أستطيع رؤية وجوههم. فهنالك كورادين سيّدُ قلعة طورمَنت، وأزروح، وشلاماش، والغاموث ذو الشفة المُلتوية، وطَرقان طويل القامة قرمزيّ اللحية...»

«ورأسِ الأسد، إنّه سيّدي القديم أناردين!» هكذا قال بِري. فقالت له آرافيس: «اشْش!» وتابع الناسك يقول:

«والآن بدأ الكَبْش عمله. ولو كنتُ أقدر أن أسمع مثلما أرى، لكان خَبْط الكَبْش رهيباً! ضربةٌ وراءَ ضربة:

وما من بوّابة تقدر على الصمود أمام ذلك إلى الأبد. ولكنْ مهلاً! هنالك شيءٌ ما عند قمّة العواصف قد روّع الطيور. فها هي تخرج جماعاتٍ جماعات. ومهلاً أيضاً... لا أقدر أن أرى الآن... آه! الآن أستطيع. إنّ قمّة الجبل كلّها، في الأعلى إلى جهة الشرق، غطّاها راكبو الخيل. حبّذا لو تهبُّ الريح على ذلك العَلَم وتنشره. ها قد بلغوا أعلى القمّة الآن، كائنين مَن كانوا. آهَه! لقد رأيتُ العَلَم الآن. نارنيا، نارنيا! ذلك هو الأسد الأحمر! وها هم يهبطون التلّ الآن بأقصى سرعتهم. يمكنني أن أرى الملك إدمون، ووراءه امرأةٌ بين رُماة السهام. أوه!...»

وسألت هُوِين حابسةً أنفاسها: «ماذا ترى؟»

«إنّ جميع سنانيره تندفع مسرعةً من يسار الصفّ».

فقالة آرافيس: «سنانير؟»

أجاب الناسك وقد نفد صبره:

«سنانير كِبار: فهود وغمور وما شابه. ها أنا أرى حقّاً. إنّ السنانير تدور كي تُطبق على أحصنة الفرسان الذين قد ترجّلوا. ضربة موفّقة! لقد جُنّت أحصنة كالورمن فعلاً من فرط رُعبها. ها قد وصلت السنانير إلى وسْطها. ولكنّ راباداش قد صفّ عسكرهُ من جديد، ولديه مئة رجل على جيادهم. إنّهم راكبون لملاقاة جيش نارنيا. وبين الصفّين الآن أقلّ من مئة متر، بل أقلّ من خمسين. وأستطيع أن أرى الملك إدمون، وأن أرى السيّد بريدان. وفي الصفّ النارنيانيّ ولدان صغيران. ماذا يمكن أن

يقصد الملك من السماح لهما بخوض المعركة؟ صارت المسافة أقلّ من عشرة أمتار... ها قد تلاقى الجيشان! والمَرَدة في مَيْمنة جيش نارنيا يعملون العَجَب... ولكنْ قد وقع أحدهم... لقد أُصيب بسهمٍ في عينه كما أظنّ. إنّ قلب الجيش كلّه يختلط عليّ. إنّما يمكنني أن أرى أكثر عند المَيْسرة. فها هما الولدان يظهران من جديد. وحياةِ الأسد! أحدُهما الأمير كورين، والآخر مثلُه تماماً كأنّهما فولةٌ قدِ انقسمت. إنّه صغيرُكَ شصطى. وكورين يُقاتِل مثلَ الرجال. لقد قتل رجلاً كالورمِنيّاً! أستطيع الآن أن أرى قسماً من قلب المعركة. كاد راباداش وإدمون يتلاقيان، ولكنّ ضغط العسكر عليهما فرّقهما...»

وسألت آرافيس: «وماذا جرى لشصطى؟»

فقال الناسك متنهّداً: «آه، يا له من غبي! يا لَلغبيّ الصغير الشجاع المسكين! إنّه لا يعرف شيئاً من فنون القتال. فهو لا يستعمل تُرسَه أبداً، وجانبه مكشوف كليّاً. وليس له أدنى فكرة عمّا يفعله بسيفه. أوه، لقد تذكّره الآن. إنّه يُلوّح به بضراوة، وقد كاد يقطع رأس حصانه، وسيقطعه بعد هُنَيهة إنْ كان لا ينتبه جيّداً. لقد أوقع أحدهُم السيف من يد شصطى. إنّها جريمة قتل أن يُرسَل ولدٌ غِرٌّ إلى المعركة؛ لن يستطيع أن يعيش خمسَ دقائق. انخفضْ، يا غبيّ... آه، لقد سقط أرضاً!»

وسألت الأصوات الثلاثة بأنفاس محبوسة: «هل قُتِل؟»

فقال الناسك: «كيف أعرف؟ لقد عملت السنانير عملها. فجميع الأحصنة التي لا فُرسان عليها إمّا قُتِلت وإمّا هَرَبت. ولن يتمكّن الكالورمنيّون من الفرار على ظهورها. وها السنانير الآن ترجع إلى قلب المعركة. إنّها تَثِب على حاملي الكَبْش. لقد سقط الكَبْش. أوه، جيّد! جيّد! إنّ الأبواب تنفتح من الداخل: سيشنّ المُحاصَرون غارتهم! لقد خرج أوّل ثلاثة. هوذا الملك لون في الوسط، وإلى جانبَيه الأخَوان دار ودارّن، كلٌّ إلى جهة. ووراءهم اطْران و شار وكُول مع أخيه كُولين. ها قد خرج منهم الآن عشرة... عشرون... ثلاثون تقريباً. وهوذا الصفُّ الكالورمِنيُّ يُضطَرُّ إلى ردّ هجومهم. إنّ الملك إدمون يُنزل بالأعداء ضرباتٍ مُذهِلة. لقد أطاح رأس كورادين. وكثيرون من رجال كالورمِن قد ألقوا سلاحهم، وهم يهربون إلى الغابات. أمّا الباقون فيُضغَطون ضغطاً رهيباً. وهوذا المَرَدة يُطبِقون عليهم من اليمين، والسنانير من اليسار، والملك لُون من الخلف. بات الكالورمِنيّون حفنةً ضئيلة الآن، وهم يُقاتِلون وظَهْرُ الواحد منهم إلى ظهر الآخر. لقد سقط طَرقانُك يا برِي! ولُون وأزروح يُقاتِلان يداً بيَد؛ يبدو أنّ الملك يفوز... الملك يُواجِه بضراوة... الملك قد انتصر. لقد صُرِع أزروح. لقد وقع الملك إدمون... لا، إنّه قام من جديد، وها هو يواجه راباداش. إنّهما يتقاتلان في مدخل بوّابة القصر. لقد استسلم عددٌ من الكالورمنيّين. لقد قتل دارين إلْغاموث. لا أقدر أن

أرى ما حلّ براباداش. أعتقد أنّه مات، فها هو مُسنَد إلى سور القصر، ولكني لا أعرف بالضبط. شلاماش والملك إدمون يتحارَبان، ولكنّ المعركة انتهت في كلّ مكان آخر. لقد استسلم شلاماش. ها قد انتهت المعركة فعلاً. لقد هُزِم جيش كالورمِن هزيمةً كليّة!»

لّما سقط شصطى عن حصانه، فقد كلّ أمل، ظنّاً منه أنّه هالكٌ لا محالة. ولكنّ الأحصنة، ولو في ساحة المعركة، تدوس البشر أقلّ بقليل ممّا قد تظنّ. فبعد عشر دقائق رهيبة، أو نحوَها، أدرك شصطى فجأةً أنّه لم يعُد في جواره مباشرةً أحصنةٌ تخبط الأرض، وأنّ الضجّة لم تعُد ضجيجَ معركة، مع أنّ قدْراً كبيراً من الأصوات كان ما يزال يُسمَع. فجلس وراح يُدير نظره حوالَيه. وعندئذٍ، حتّى هو -رُغم قلّة ما يعرفه من شؤون المعارك- استطاع أن يفهم أنّ رجال بلاد آرخيا ونارنيا قد انتصروا. أمّا الكالورمنيّون الأحياء الوحيدون الذين رآهم فكانوا من الأسرى، وقد فُتحت أبوابُ القصر على وسعها، ووقف الملك إدمون والملك لُون يتصافحان من فوق آلةِ الكَبْش. ومن حلقة السادة والمُحاربين حولهما ارتفعت أصواتُ محادثة موصولة ومنفعلة، لكنْ حماسيّة جدّاً. ثمّ ما لبثت تلك الأصوات أن توحّدت وارتفعت في عاصفةِ ضحكٍ راعدة.

وإذا بشصطى، وهو يشعر بأنّه مُتيبّس على نحوٍ لم يألفْه، ينهض بعد جهدٍ ويركض نحو الصوت ليعرف



ماذا كانت النكتة المُضحِكة، فتقع عيناه على مشهد غريب جدّاً. فقد بدا أن راباداش التّعِس مُدلّى على سور القصر. وكانت قدماه، المرتفعتان عن الأرض نحو نصف متر، تركلان وترفسان بشدّة؛ وقميص الزَّرَد الذي يتدرّع به عالِقٌ من فوقُ ومشدودٌ على نحوٍ رهيبٍ تحت ذراعيه بحيث غطّى نصف وجهه الأسفل. وقد بدا بالحقيقة أشبه برجُلٍ تراه وهو يُدخِل رأسه وجذعه في قميصٍ ضيّق عليه جدّاً. وبحسْبما أمكن استنتاجُه في ما بعد (ولكَ أن تتأكّد

أنّ هذه القصّة ظلّت تُحكى أيّاماً عديدة)، جرى شيءٌ من قَبيل ما يلي:

في أوائل المعركة، داس ماردٌ من المَرَدة راباداش دوسةً غير موفَّقة، بنعل حذائه الطويل الساق المُزَرَّر بالمسامير. وكانت الدَّوسة غير موفَّقة لأنّها لم تسحق راباداش سحقاً كما نوى المارد، ولكنّها نفعت بعض الشيء لأنّ أحد المسامير مزَّق قميص الزَّرَد، مثلما قد تُمزِّق أنا وأنت قميصاً عادياً. وعليه، فلمّا واجه إدمون راباداش عند البوّابة، كان ظهرُ درعه الزَّرَديّة مثقوباً. وعندما حشره إدمون شيئاً فشيئاً وأخذ يتراجع نحو السور، قفز إلى مصطبةِ تسلُّقٍ ووقف عليها مُنهالاً بالضربات على إدمون من فوق. لكنّه لمّا أدرك أنّ موقعه ذلك، إذ رفعه فوق رؤوس الآخرين كلِّهم، قد جعله غرضاً لكلّ سهم تُطلِقه الأقواس النارنيانيّة، قرّر أن يقفز نازلاً من جديد. وقد قصد أن يبدو عظيماً ومُخيفاً جدّاً عند قفزه -ولا شكّ أنّه بدا كذلك لحظةً واحدة- إذ صاح: «ها هي صاعقة طاش تسقط من فوق!» ولكنّ كان عليه أن يقفز بانحراف، لأنّ الحشْد أمامه لم يترك له موطئ هبوط في ذلك المكان. وعندئذٍ، بأحسنِ طريقة يمكنك أن تتمنّاها، علق الثُّقْبُ الذي في ظهر درعه الزَّرَديّة بكُلّابٍ في السور (ومنذ عصورٍ مضت كان هذا الكُلّاب يحمل حلقةً لربط الخيول بها). وإذا براباداش يجد نفسه مُعلَّقاً هناك كقطعةِ ثيابٍ مغسولة نُشرت لِتجفّ، فيما راح الجميع يضحكون عليه. فزعق يقول:

«أنزِلني يا إدمون! أنزِلني وقاتلني قتالَ مَلِكٍ ورجل، ولكنْ إن كنتَ أكثر جبناً من أن تفعل هذا فاقتلني حالاً!»

وبدأ الملك إدمون يقول: «حتماً!» لكنّ الملك لُون قاطعه، قائلاً له:

«بعدَ إذنك، يا صاحب الجلالة، لا تفعل ذلك».

ثمّ التفت إلى راباداش وقال: «يا صاحب السموّ الملوكيّ، لو أصدرتَ هذا التحدّيَ قبل أُسبوع، لرَدَدتُ عليه بأنْ ليس في مملكة إدمون كلّها، من الملك العظيم حتّى أصغر فأر ناطق، مَن يقبل أن يرفضه. ولكنّك بمهاجمة قصرنا في أنْفارد إبّان زمان السِّلم من غير تحدٍّ سابق، بيَّنتَ أنّك لست فارساً، بل خائنٌ يستحقّ أن ينهال عليه الجلّاد ضرباً بالسوط ولا يُسمح له بأن يُنازِل بالسّيف أيّ شخص شريف. أنزِلوه، وقيِّدوه، واحملوه إلى الداخل، حتّى تُعلَّم مشيئتُنا من جهته لاحقاً!»

فامتدّت أيدٍ قويّةٌ وانتزعت سيف راباداش من يده، وحُمِل إلى داخل القصر وهو يصيح ويُهدِّد ويشتم، بل أيضاً يبكي. فمع أنّه كان يمكنه أن يواجه التعذيب، لم يُطِق أن يُجعل أُضحوكة. وقد كان كلُّ إنسان في طشبان ينظر إليه بعين الجِدّ والاعتبار.

وفي تلك اللحظة ركض كورين إلى شصطى، فأمسك بيده وأخذ يجرّه نحو الملك لُون. وصاح: «ها هو، يا أبي، ها هو!»

فقال الملك بصوتٍ أجشّ جدّاً: «إي، وها أنت أيضاً أخيراً! وقد كنتَ في المعركة أيضاً، بخلاف أوامرنا تماماً. ما أسوأ الولد الذي يفطر قلب أبيه! ففي سنّك هذه، تكون العصا لظهرك أنسبَ من السيف بيدك، هَا!» ولكنّ الحاضرين جميعاً، بمن فيهم كورين نفسُه، استطاعوا أن يلاحظوا أنّ الملك كان فخوراً به جدّاً.

وقال السيّد دارّن: «يا مولاي، أرجو منك أن تكفّ عن تأنيبه، لو سمحت! كم كان يُحزِن جلالتَكم أكثر لو كان ينبغي توبيخُه بسبب إبدائه الجبن. فإنّ سموّه أثبت فعلاً أنّه ابنُك ووريثك الجدير!»

فقال الملك مُهمهِماً: «طيِّب، طيِّب! سنتغاضى عن فِعلته هذه المرّة. والآن...»

أمّا ما جرى بعد ذلك، فقد فاجأ شصطى وأدهشه جدّاً، كأيّ أمرٍ غريب سبق أن حدث له في ما مضى من حياته. إذ وجد نفسه فجأةً يحظى بمعانقة كعناق الدببة من قِبَل الملك لُون ويتلقّى التقبيل على كِلا خدَّيه. ثمّ أنزله الملك من جديد وقال: «قفا هُنا معاً، أيُّها الصبيّان، ولْتشاهدْكما الحاشيةُ كلُّها. ارفعا رأسيكما. والآن، يا سادة، تأمّلوهما كِلَيهما. أعِندَ أيٍّ منكم أيّة شكوك؟»

ومع ذلك لم يستطع شصطى أن يفهم لماذا حدّق الجميع إليه وإلى كورين، ولا لماذا انطلقت تلك الهتافات والتحيّات كلُّها.

الفصل الرابع عشر

كيف أصبح برِي حصاناً أحكم

علينا الآن أن نرجع إلى آرافيس والحصانَين. فقد تمكّن الناسك، بمشاهدة بِركته، من إخبارهما أنّ شصطى لم يُقتَل، ولا جُرح أيضاً جرحاً خطيراً، إذ رآه ينهض، ورأى كيف رحّب به الملك لُون بكلّ محبّة ومودّة. ولكنّه لمّا كان قادراً فقط على الرؤية، دون السماع، لم يعرف ما كان يقوله كلُّ واحد، وما إن انتهى القتال وبدأ الكلام حتى لم يعُد النظر في البركة يستحقّ عناءه.

وفي صباح اليوم التالي، فيما الناسك داخل بيته، ناقش الثلاثة ما ينبغي لهم أن يفعلوه تالياً.

قالت هُوين: «لقد سئمتُ هذا كلَّه. فالناسك عاملنا معاملةً حسنة جدّاً، وأنا مدينةٌ له بالفضل كثيراً بغير أدنى شكّ. ولكنّني أكتسب وزناً يجعلني أبدو سمينة مثل فرس مُدلَّلة، إذ آكل طول النهار ولا أتمرّن أبداً، فلنستأنفْ سيرنا إلى نارنيا».

فقال برِي: «أوه، ليس اليوم، يا سيّدة! لِمَ العَجَلة؟ ألا تعتقدين أنّ ذلك يكون أفضل في يومٍ آخر؟»

وقالت آرافيس: «علينا أن نرى شصطى أوّلاً ونودّعه، وأيضاً... نعتذر إليه».

فأجاب برِي: «تماماً! هذا بالضبط ما كنتُ أنوي أن أقوله».

قالت هُوين: «أوه، طبعاً. أتوقّع أن يكون الآن في آنْشارد. فطبيعي أن نمُرّ عليه ونودّعه. ولكنّ آنْشارد على طريقنا. فلماذا لا ننطلق حالاً؟ وبعد، أليست نارنيا هي مقصِدَنا جميعاً؟»

وقالت آرافيس: «هذا هو الواقع، كما أعتقد». وكانت قد بدأت تتساءل عمّا ستفعله بالتحديد عندما تصل إلى هناك، وأخذت تشعر بشيء من الوحشة.

فقال برِي على عَجَل: «طبعاً، طبعاً! ولكنْ لا داعي للاستعجال، إن علمتُما ما أعنيه».

وقالت هُوين: «لا، لستُ أعلم ما تعنيه. لماذا لا تُريد الذهاب؟»

فدمدم برِي: «حِمْمْ-ابرووهوو! حسناً، ألا تفهمين، يا سيّدة، أنها مُناسَبة هامّة... عودة الواحد إلى بلده... دخوله المجتمع... أفضل مُجتمَع... فمن المهمّ جدّاً أن نُخلّف انطباعاً حسناً... ربّما كنّا لا نظهر بعدُ بمظهرِنا الحقيقي تماماً، إه؟»

وانفجرت هُوين ضاحكةً ضحكةَ فَرَس، قائلة: «إنّه ذيلُك، يا برِي! قد فهمتُ الآن كلّ شيء. أنت تريد أن تنتظر حتّى يطلع ذيلُك من جديد! حتّى إنّنا لا نعرف

أيضاً هل إطالةُ الأذيال أمرٌ دارجٌ في نارنيا. حقّاً، يا بري، إنّكَ مغرور كتلك الطّرقانة في طشبان!»

وقالت آراڤيس: «إنّك سخيفٌ حقّاً، يا بري!»

فأجاب بري ساخطاً: «ورأس الأسد، يا طَرقانة، لستُ شيئاً من ذلك. كلُّ ما في الأمر هو أنَّ عندي احتراماً لنفسي ولرفقائي الجياد».

فقالت آراڤيس له، ولم تكن تعنيها قصّةُ ذيله كثيراً: «بري، طالما رغبتُ منذ مدّةٍ طويلة بأن أسألك سؤالاً. لماذا تظلُّ تحلف بالأسد، وبرأس الأسد؟ ظننتُ أنّك تكره الأسود».

أجاب بري: «هذا صحيح. ولكنْ عندما أتكلّم عن 'الأسد' مع أل التعريف، أعني بالطبع أصلان، مُنقِذَ نارْنيا العظيمَ الذي أطاح الساحرة وأزال الشتاء. فباسمه يحلف أهلُ نارنيا كلُّهم!»

«ولكنْ هل هو أسد؟»

فقال بري بصوتٍ تغلب عليه الصدمة: «لا، لا، طبعاً لا!»

أجابت آراڤيس: «جميع القصص التي تُحكى عنه في نارنيا تقول إنّه أسد. وإن لم يكن أسداً فلماذا تدعوه أسداً؟»

فقال بري: «حسناً، بالكاد تفهمين هذا في سنّك. ثمّ إنّني كنتُ مجرّد مُهرٍ صغير لمّا غادرتُ نارنيا، بحيث إنّني لا أفهم ذلك أنا نفسي حقّ الفهم».

(كان بري واقفاً وظهرُه إلى الحائط الأخضر فيما هو يقول ذلك، وكان الباقيان يواجهانه. وكان يتكلّم بلهجة يغلب عليها الاستعلاء وعيناه شبه مُغمضتَين. ولذلك لم يلاحظ تغيُّر تعابير وجهَي هُوين وآراڤيس. وقد دعاهما سببٌ وجيه لأن يفغرا فَمَويهما ويُحملِقا بأعيُنهما. إذ بينما كان بري يتكلّم، رأيا أسداً هائلاً يقفز من الخارج ويتوازن على أعلى الحائط الأخضر. إنّما كان أبهى اصفراراً وأكبر وأجمل وأكثر مهابةً من أيِّ أسدٍ سبق أن رأياه. وفي الحال وثب إلى الداخل وأخذ يقترب إلى بري من وراء. ولم يُصدِر أيَّ حسٍّ قطّ. كذلك لم تتمكّن هُوين وآراڤيس أيضًا من إصدار أيِّ صوت، وكأنّهما قد تجمّدتا.)

وتابع بري: «بلا شكّ، عندما يتحدّثون عنه بصفة أسد، فإنّما يَعنون أنّه قويٌّ كالأسد، أو (بالنسبة إلى أعدائنا طبعاً) رهيبٌ كالأسد. أو شيءٌ من هذا القبيل. حتّى إنّ بنتاً صغيرة مثلَكِ، يا آراڤيس، ينبغي أن تُدرِك أنّ من السخف تماماً حسبانَه أسداً حقيقيّاً. بل إنّ ذلك يكون بالحقيقة قلّةَ احترام. فلو كان أسداً لكان ينبغي أن يكون حيواناً مثل جميع الآخرين منّا. عجباً! (وهنا بدأ بري يضحك). ولو كان أسداً لكان له أربعة مخالب وذيلٌ وشاربان!... آيي، أوهُووهُوو! النجدة!»

فإنّه ما إن قال الكلمة شاربان حتّى دغدغ أُذنه بالفعل أحدُ شاربَي أصلان. فاندفع بري كالسهم إلى طرف الساحة الآخر ثُمّ دار، إذ كان الحائط أعلى

من أن يقفز فوقه، ولم يقدر أن يفرّ إلى مكانٍ أبعد. وأجفلت آراڤيس وهُوِين كِلتاهما خوفاً. ومرّ نحوُ ثانيةٍ من الصمت الشديد.

ثمّ صهلت هُوِين صهلةً ضئيلةً غريبة وأسرعت نحو الأسد عبر الساحة، مع أنّها كانت ما تزال ترتجف كلّيّاً. وقالت:

«رجاءً! أنت فائق الجمال. لكَ أن تأكُلَني إن أردت. فأنا أُفضّل أن أكون لك طعاماً على أن يُطعِمَني أحدٌ سواك».

فقال أصلان، طابعاً قُبلةَ أسد على أنفها المخمليّ المُرتعِش: «يا بُنَيّتي العزيزة جدّاً، لقد علمتُ أنّكِ لن تَتوانَيْ عنِ الإتيان إليّ. ليكُن الفرحُ من نصيبِك!»

ثمّ رفع رأسه وتكلّم بصوتٍ أعلى:

«والآن، يا بري، أيُّها الحصان الخائف المتكبّرُ المسكين، اقتربْ إليّ. اقتربْ بعدُ، يا بُنيّ. إيّاكَ ألّا تجرؤ! المِسْني. شُمَّني. هاكَ مخالبي، وهاكَ ذيلي، وهاكَ شاربيّ. إنّني كائنٌ حقيقيّ».

فقال بري بصوت مُترجرِج: «أصلان، يُخيَّل إليّ أنّني غبيّ فعلاً!»

«ما أسعد الحصان الذي يعرف ذلك وهو ما زال صغيراً! وما أسعد البشريّ الذي يُدرِك ذلك أيضاً! اقتربي إليّ، يا آراڤيس، يا بُنيّتي. أُنظري! إنّ مخالبي مُنعّمة. فلن تُخدَشي هذه المرّة».

فقالت آراڤيس: «هذه المرّة، يا سيّد؟»

أجاب أصلان: «كنتُ أنا مَن جرحَكِ. أنا الأسد الوحيد الذي قابلتموه في جميع رحلاتكم. هل تعرفين لماذا جرحتُكِ؟»

«لا، يا سيّد!»

«إنّ الخدوش على ظهرك، جُرحاً بجرح، ووجعاً بوجع، ودماً بدم، كانت مُساويةً للجَلدات التي ضُرب بها ظهرُ خادمة زوجةِ أبيك عقاباً على نومها الذي سبّبتِه أنتِ بتخديرك لها. كان ينبغي أن تحُسّي إحساسَها بالألم!»

«نعم، يا سيّد! رجاءً...»

«أكملي سؤالك، يا عزيزتي».

«هل يأتيها مزيدٌ من الأذى بعدُ بسبب ما فعلتُه؟»

«بُنيّتي، أنا أقصّ عليك قصّتكِ أنتِ، لا قصّتها هي. فلا أحد يُخبرَ بأيّة قصّة غير قصّة».

ثمّ هزّ رأسه وتكلّم بصوتٍ أخفض:

«افرحُوا، يا صغاري. سنتلاقى قريباً من جديد. ولكنْ قبل ذلك ستُقابِلون زائراً آخر». وبعدئذٍ، بوثبةٍ واحدة بلغ أعلى الحائط وتوارى عن أنظارهم.

ومن الغريب أن نقول إنّهم لم يشعروا بأدنى ميلٍ إلى محادثة بعضهم بعضاً عنه بعد رحيله. فقد مضى كلٌّ منهم ببطء إلى ناحيةٍ من العُشب، وراح يمشي ذهاباً وإياباً مُفكّراً.

وبعد نحو نصف ساعة، دُعي الحصانان إلى ما وراء البيت ليأكلا طعاماً طيّباً أعدّه الناسك لهما. وإذ كانت

آراڤيس ما تزال تمشي وتُفكِّر، أجفلها صوتُ بوقٍ خشنٍ من خارج البوّابة.

فسألت آراڤيس: «مَن هناك؟»

فردَّ صوتٌ من الخارج: «صاحبُ السموِّ الملوكيّ، كُور أميرُ بلاد آرخيا!»

ورفعت آراڤيس مزلاج الباب وفتحته، متراجعة قليلاً حتّى يدخل الغرباء.

فدخل أوّلاً عسكريّان حاملان مِطْرَدَين*، ووقف كلٌّ منهما إلى أحد جانبَي المدخل. ثمّ تبعهما مُنادٍ وبوّاق. وقال المنادي:

«إنّ صاحب السموّ الملوكيّ، كُور أمير بلاد آرخيا، يرغب في مقابلة السيّدة آراڤيس».

ثمّ تنحّى المنادي والبوّاق جانباً، وانحنيا، وأدّى العسكريّان التحيّة، ودخل الأمير نفسُه. وانسحب جميع مرافقيه، وأغلقوا البوّابة خلفهم.

انحنى الأمير، إنّما انحناءةً تُعوزها الرشاقة واللياقة بالنسبة إلى أمير. وانحنت آراڤيس على الطريقة الكالورمِنيّة (وهي تختلف كثيراً عن انحناءة الاحترام المألوفة لدينا)، وقد أحسنت أداءَها لأنّها قد تعلّمت ذلك طبعاً. ثمّ تطلّعت لترى أيَّ شخصٍ كان ذلك الأمير.

* المطرد: رمح في رأسه فأس حربي.



وقد رأت مجرَّد صبيّ. كان رأسه مكشوفاً، وشعره الأشقر مطوَّقاً بعصابةٍ رقيقة جدّاً من الذهب، لا تكاد تكون أثخن من السلك. وكانت سترته العليا من قماش الكامبريّ الناعم كالمناديل، بحيث ظهرت سترته الحمراء اللمّاعة تحتها. كما كانت يده اليُسرى مُضمَّدة ومستقرَّة على مقبض سيفه المُزخرف.

ونظرت آراڤيس إلى وجهه مرّتين قبل أن تشهق قائلة: «عجباً! شَصطى!»

وفي الحال احمرَّ خدّا شصطى كثيراً، وبدأ يتكلَّم بسرعة بالغة قائلاً:

«انظري إليَّ، يا آراڤيس. أرجو ألّا تظنّي أنّني لبستُ هذه الثياب، (واصطحبتُ البَوّاق والآخرين) حتّى أُحاول أن أثير إعجابك، أو حتّى أُبيِّن أنّني مختلف، أو أيُّ

شيء آخر من الكلام الفارغ. فإنّني كنت أُفضّل بكثير أن آتيكِ في ثيابي العتيقة، ولكنّها محروقةُ الآن، وقد قال أبي...»

فسألت آرافيس: «أبوك؟»

وقال شصطى: «الظاهر أنّ الملك لُون هو أبي. كان ينبغي لي أن أخمّن ذلك بالحقيقة، لأنّ كورين يشبهني تماماً. فنحن توأمان، كما ترَين. أُوه، وليس اسمي شصطى، بل كُور».

فقالت آرافيس: «كُور اسمٌ أجمل من شصطى».

أجاب شصطى (أو الأمير كُور كما يجب أن ندعوه الآن): «هكذا هي أسماء الإخوة في بلاد آرخيا، مثل دار وداژن، وكُول وكولين، وهكذا دواليك».

وقالت آرافيس: «شصطى... أعني كور. لا، سكوتاً! عندي شيء يجب أن أقوله في الحال. أنا متأسّفة لكوني أسأتُ التصرُّف كثيراً. ولكنّني تغيّرتُ فعلاً قبل أن أعرف أنّك أمير، صِدقاً تغيّرت، وذلك عندما رجعتَ أنت وواجهتَ الأسد».

فقال كور: «لم يكن ذلك الأسد بالحقيقة ينوي أن يقتلك».

وقالت آرافيس مع إيماءة برأسها: «أعرف هذا». ثمّ صمت كلاهما بتهيُّب وجِديّةٍ لحظةً، إذ تبيّن لكلٍّ منهما أنّ الآخر يعرف بأمر أصلان.

وفجأةً تذكّرت آرافيس يد كور المضمّدة، فصاحت:

«عجباً! لقد نسِيت! إنّك حضرتَ معركة. فهل ذاك جُرح؟»

فقال كور: «مجرّد خدْش!» مستخدماً أوّلَ مرّة لهجةً يغلب عليها لهجة النبلاء. ولكن بعد هُنيهة انفجر ضاحكاً وقال: «إن شئتِ أن تعرفي الحقيقة، فليس هذا جرحاً حقيقيّاً أبداً. فأنا إنّما كشطْتُ الجلد عن مفاصل أصابعي كما قد يفعل أيُّ غبيٍّ أخرق بغير أن يقترب من أيّة معركة».

فقالت آرافيس: «ومع ذلك، فأنت حضرتَ معركة. لا بدّ أنّها كانت رائعة!»

أجاب كور: «ليست أبداً مثلَ ما كنتُ أحسبُها».

«ولكنْ يا شص... –أقصد كور– لم تخبرْني أيَّ شيء بعد عن الملك لُون وكيف عرف حقيقتك».

فقال كور: «حسناً لِنقعُد. فهي قصّة طويلة. وعلى فكرة، أبي رجل طيّب القلب حلو المعشر. حتّى لو لم يكن ملكاً، لسرّني بالمثل –أو بالمثل تقريباً جدّاً– أن أكتشف أنّه أبي. رُغم أنّه سيكون عليّ أن أحصُلَ على التعليم وغيره من الأمور المروّعة. حسناً، كورين وأنا توأمان. وبعد نحو أُسبوع من ولادتنا، اصطحبونا على ما يبدو إلى قنطورٍ* حكيمٍ كبير السنّ في نارْنيا حتّى نحظى ببركته أو ما شابه.

* القنطور: كائن أسطوري مهيب له جذع إنسان وذراعان ورأس، والجزء الخلفي من حصان.

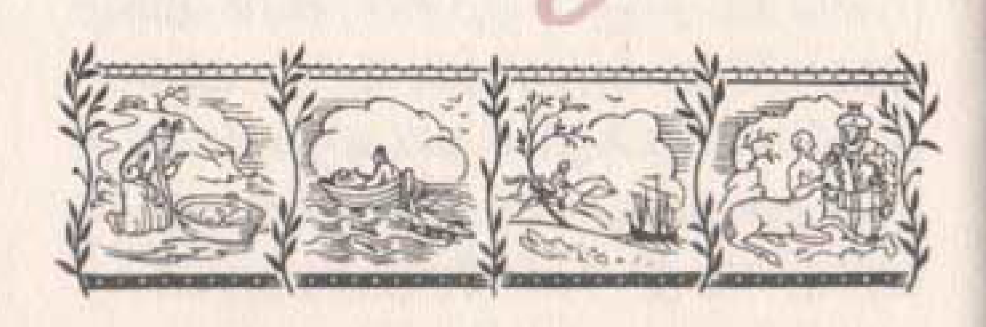
وقد كان ذلك القنطور نبياً، شأنه شأن عدد كبير جداً من القنطورات. ألعلّكِ لم ترَيْ قنطوراً بعد؟ لقد كان بعضُهُم في المعركة أمس. إنّهم قومٌ رائعون جداً، ولكنْ لا يمكنني أن أقول إنّني أشعر بعدُ بالراحة تماماً في وجودهم. وأقول لكِ، يا أرافيس، إنّه سيكون في هذه البلاد الشمالية كثيرٌ من الأمور التي ينبغي أن تتعوّديها».

قالت أرافيس: «نعم، ولكن أكملْ قصّتك».

«حسناً، حالما رأى ذلك القنطور كورين وإيّاي، يبدو أنّه نظر إليّ وقال: 'سيأتي يومٌ فيه يخلّص هذا الولد بلاد أرخيا من أخطر خطرٍ تعرّضت له في تاريخها.' وهكذا سُرّ أبي وأمّي أبلغ سرور. ولكنْ كان بين الحضور مَن لم يَسُرّه ذلك، ألا وهو رجلٌ يُدعى السيّد بار، وقد كان وزير الدولة الأوّل عند أبي. والظاهر أنّه كان قد أساء التصرّف -إذ عمد إلى 'الاختلاس' كما يقولون- وأنا لم أفهم ما يعنيه ذلك تماماً، فاضطرّ أبي إلى إقالته وطرده. ولكنْ لم يُفعَل به شيء غير ذلك، وسُمح له بأن يظلّ ساكناً في بلاد أرخيا. إنّما لا بدّ أنّه كان سيّئاً جداً بقدْر إمكانه، إذ تبيّن لاحقاً أنّه كان مأجوراً من قِبَل السلطان، وقد بعث إلى طشبان بكثير من المعلومات السريّة. وعليه، فما إن سمع بأنّي سأخلّص بلاد أرخيا من خطر عظيم، حتّى عقد العزم على إزاحتي من الطريق. وقد نجح فعلاً في اختطافي (ولستُ أدري كيف فعل ذلك تماماً) وذهب بي راكباً على طول نهر السّهم المتعرّج إلى الشاطىء. وكان

قد أعدّ كلّ شيء، فكان هنالك سفينة على متنها رجالٌ من أتباعه على أهبة الانطلاق، فصعد بي إلى السفينة، وأبحروا حالاً. ولكنّ أبي اكتشف المؤامرة، وإن لم يكن في الوقت المناسب، فانطلق وراءه بأسرع ما يمكن. ولمّا وصل أبي إلى الشاطىء، كان السيّد بار قد صار في عُرض البحر، لكنْ ليس أبعدَ من أن يُرى. فاستقلّ أبي واحدةً من سُفنه الحربيّة، وانطلق وراءه بعد ثُلثِ ساعة فقط.

ولا بدّ أنّها كانت مطاردة رائعة. فقد ظلّوا يُطاردون سفينة بار سبعة أيّام، وفي اليوم السابع خاضوا معركةً معها. وكانت معركة بحريّة عظيمة (سمعتُ عنها الكثير مساء البارحة) من الساعة العاشرة صباحاً حتّى غروب الشمس. وقد استولى رجالنا على السفينة أخيراً. ولكنّني لم أكن فيها. فإنّ السيّد بار نفسه قُتل في المعركة. ولكنّ واحداً من رجاله قال إنّه، في ذلك الصباح باكراً، ما إن رأى بار أنّ الهزيمة آتية عليه حتماً، حتّى سلّمني إلى أحد فرسانه، وأرسلنا كلينا إلى البعيد في قارب السفينة. ولم يُشاهَد ذلك القارب قطّ مرّةً أخرى. ولكنْ كان ذلك بالطبع هو القاربَ عينه الذي دفعه أصلان (ويبدو أنّه



خلفَ القصص كلّها) إلى الشاطىء في المكان المناسب كي يلتقطني أرشيش. ويا ليتني أعرف اسم ذلك الفارس، إذ لا بدَّ أن يكون قد أمات نفسه جوعاً كي يُبقيَني على قيد الحياة».

وهنا قالت آراڤيس: «أعتقد أنَّ من شأن أصلان أن يقول إنَّ هذا جزءٌ من قصّة شخصٍ آخر».

فأجاب كور: «كدتُ أنسى ذلك!»

وقالت آراڤيس: «تُرى، كيف ستتحقّق النبوّة، وما هو الخطر العظيم الذي ستُخلّص بلاد آرخيا منه؟»

فردَّ كور بكثيرٍ من الارتباك: «حسناً، يبدو أنّهم يعتقدون أنّني قد فعلتُ ذلك حقّاً!»

وصفّقت آراڤيس بكفّيها قائلة: «ياي، طبعاً! ما أغباني! وما أروع الأمر حقّاً! لا يمكن أن تكون بلاد آرخيا أبداً في خطرٍ أعظم ممّا كان حين عبر راباداش السّهمَ المتعرّج مع رجاله المئتين وأنت لم تُوصِل الرسالة بعد. ألا تشعر بالفخر؟»

فقال كور: «أظُنُّ أنّني أشعر بالذُعر قليلاً».

وقالت آراڤيس بحسرةٍ وترقُّب: «وهل تنوي أن تسكن في آنْڤارد الآن؟»

فأجاب كور: «آه، كِدتُ أنسى ما جئتُ لأجله! يُريد أبي منك أن تأتي وتسكني معنا في البلاط (ولستُ أدري لِما يسمّونه بلاطاً) بما أنَّ أمّي ماتت. فهلاّ تأتين، يا آراڤيس! ستُحبّين أبي، وكورين. إنّهما ليسا مثلي، فقد تربّيا تربيةً كريمة، ونشأا نشأةً سليمةً. ولا داعيَ لأنْ تخافي أن...»

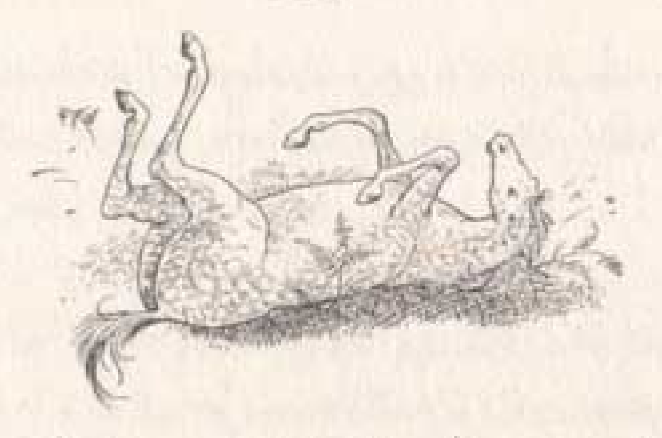
فقالت آراڤيس: «أُه، كُفَّ عن هذا! وإلاّ تَقاتلْنا فعلاً. بالطبع سآتي».

وقال كور: «لنذهبِ الآن ونَرَ الحصانين».

فكان لقاءٌ عظيم وبهيج بين بِري وكور. ثمَّ إنَّ بِري، إذ كان ما يزال في جوٍّ يسوده الإذعان واللين، وافق على الانطلاق إلى آنْڤارد في الحال، على أن يجتاز هو وهُوين إلى نارنيا في اليوم التالي. وودَّع الأربعة الناسك وداعاً مؤثّراً، واعِدين بأن يزوروه ثانيةً عن قريب. ونحو الساعة التاسعة صباحاً كانوا في طريقهم إلى آنْڤارد. وتوقَّع الحصانان من آراڤيس وكور أن يركبا على ظهرَيهما، غير أنَّ كور أوضح لهما أنّه ما من أحدٍ في نارنيا أو بلاد آرخيا حلمَ قطُّ بامتطاء حصانٍ ناطق، إلاّ في الحرب، حيث ينبغي لكلِّ واحد أن يعمل ما يُحسِن عمله جيّداً.

وقد ذكَّر ذلك بِري المسكين بقلّةِ ما يعرفه عن عادات نارنيا، وبأيّة أخطاء فاضحة قد يرتكبها. وعليه، فبينما هُوين تتمشّى كما في حلم لذيذ، ازداد بِري توتُّراً وخجلاً مع كلِّ خُطوةٍ خطاها.

وقال كور: «ابتهجْ، يا بِري! فالأمر بالنسبة إليَّ أسوأ بكثير ممّا هو بالنسبة إليك. فأنت لن تتلقّى أيَّ تعليم. أمّا أنا فسأتعلّم القراءة والكتابة والفروسيّة والتاريخ والرقص والموسيقى، فيما تكون أنت تسرح وتمرح وتعدو وتتشقلب على تلال نارنيا كما يحلو لك».



فأجاب بري آناً: «ولكنْ هذه هي المشكلة. فهل تتشقلب الأحصنة الناطقة؟ وماذا لو كانت لا تفعل ذلك؟ أنا لا أُطيق التخلّي عن هذا! ما قولكِ يا هُوين؟»

فقالت هُوين: «أنا سأتشقلب على كلّ حال! ولستُ أعتقد أنّ أحداً منهم سيهمُّه في شيء أن تفعل ذلك أو لا تفعله».

وسأل بِري كور: «أنحنُ قربَ القصر؟»

فأجاب الأمير: «إنّه وراء المُنعطف التالي».

فقال بِري: «حسناً، سأتمتّع الآن بالتشقلُب، فربّما كانت هذه آخِر مرّة. اِنتظروني دقيقة!»

ثمّ مضت خمس دقائق قبل أن ينهض بِري من جديد وهو يلهث بشدّة، وقد تغطّى جسمه بقطعٍ صغيرةٍ من نبات الخنشار.

وقال بصوتٍ ملؤه الأسى الشديد: «أنا جاهزٌ الآن. تقدَّمْ بنا، أيُّها الأمير كور. إلى نارنيا والشمال!»

غير أنّه بدا أشبه بحصانٍ يسير في جنازة منه بأسيرٍ طال فَقدُه يعود إلى بلاده وإلى الحريّة.

الفصل الخامس عشر

راباداش: أسخَفُ الجِحاش

أفضى بهم منعطف الطريق التالي إلى الخروج من بين الشجر، وإذا بهم يلمحون قلعة آنْفارد وراء المروج الخُضر، يحميها من الريح الشمالية جُرفٌ جبليٌّ عالٍ تكسوه الأشجار ويرتفع خلف القلعة. وقد كانت القلعةُ قديمةً ومبنيةً بحجارة مُزَخرفة بُنّيّة مائلة إلى الاحمرار.

وقبل بلوغهم البوّابة، خرج الملك لُون لاستقبالهم وهو لا يبدو أبداً بالصورة التي تخيّلتها أراڤيس عن الملوك، وكان يرتدي أعتق الثياب العتيقة، لأنّه كان قد رجع توّاً من جولةٍ مع كَلّابه* على مَرابي كِلاب الصيد لديه وقد توقّف هُنيهةً لغسل يديه من آثار الكِلاب. ولكنّ الانحناءة التي بها رحّب بأراڤيس إذ صافحها باليد، كانت تليق بإمبراطور. ثمّ قال: «أيّتها السيّدة الصغيرة، إنّنا نُرحِّب بكِ بحفاوة وحرارة من أعماق القلب. لو كانت زوجتي العزيزة ما تزال على قيد الحياة لأقمنا لكِ

* الكلّاب: هو سائس الكلاب الذي يعتني بها ويدرّبها.

مزيداً من ضُروب الفرح والمرح، ولكنْ لم تكُن رغبتنا في استقبالك لتقلَّ قيراطاً واحداً. ويؤسفني أنّكِ قد عانيتِ كثيراً من جرّاء سوء الحظّ وطُرِدتِ من بيت أبيك، الأمر الذي لا بُدَّ إلّا أن يُحزِنك كثيراً. لقد أخبرني ابني كور بمغامراتكما معاً وبكلّ بسالتِك».

فأجابت آراڤيس: «كان هو مَن فعل كلّ ذلك. حتّى إنّه هاجم أسداً كي يُنقِذني!»

قال الملك لون وقد أشرق وجهه: «إيه، ماذا قُلتِ؟ لم أسمع هذا الجُزء من القصّة».

ثمّ حكت له آراڤيس الخبر. إلّا أنّ كور لم يستمتع بالقصّة مثلما كان قد توقّع، بل في الواقع شعر بأنّه يكاد يكون سخيفاً، مع أنّه طالما رغب في أن يعرف الجميع تلك القصّة، رغمَ شعوره بأنّه لا يقدر أن يرويَها هو نفسُه. ولكنّ أباه استمتع بها كثيراً جدّاً بالفعل، وفي أثناء الأسابيع القليلة التالية حكاها لأشخاصٍ كثيرين حتّى تمنّى كور لو أنّها لم تحدث أصلاً.

ثمّ التفت الملك إلى هُوين وبري، فرحّب بهما بكلّ رقّة مُظهراً لهما من المودّة مثل ما أظهره لآراڤيس. وسألهما كثيراً من الأسئلة عن عائلتيهما ومكان سكنهما في نارنيا قبل وقوعهما في الأسْر. ولكنّ لسانَي الحصانين كانا شِبه مربوطَين، لأنّهما لم يكونا بعدُ قد اعتادا أن يخاطبهما البشَر -أي الراشدون من البشر- مخاطبة النِدّ للنِدّ. أمّا آراڤيس وكور فكانا قد ألِفاهما.

عندئذٍ خرجتِ الملكة لوسي من القصر وانضمّت إليهم، وقال الملك لُون لآراڤيس: «يا عزيزتي، ههنا صديقةٌ مُحِبّةٌ لأسرتنا، وقد كانت تهتمُّ بترتيب مكان إقامتك في القصر بطريقةٍ أفضل ممّا كان يمكنني أن أفعل أنا».

فقبّلت لوسي آراڤيس وقالت لها: «قد ترغبين أن تأتي لإلقاء نظرة على ذلك المكان، أليس كذلك؟» وقد أحبّتا إحداهما الأُخرى في الحال، وسرعان ما ذهبتا معاً لتتحدّثا عن غرفة نوم آراڤيس وحُجرة استراحتها الخاصّة، وعن إحضار الملابس لها، وعن كلّ تلك الأمور التي تتحدّث عنها الفَتيات في مثل هذه المناسبة.

وبعد تناول الغداء على السُّطيحة (وكان من الطيور الباردة وفطائر الطرائد والنبيذ والخبز والجبن)، رفع الملك لون حاجبيه منزعجاً وقال: «يا ويلاه! أيُّها الأصحاب، ما زال تحت أيدينا ذلك المخلوقُ البَئِس راباداش، وينبغي أن نقرّر ماذا نفعل به».

كانت لوسي جالسةً إلى يمين الملك وآراڤيس إلى يساره. وقد جلس الملك إدمون عند أحدِ أطراف الطاولة، ومقابلَه عند الطرف الآخر السيّد دارّن. أمّا دار وبريدان وكور وكورين، فقد كانوا في الجانب الذي يجلس فيه الملك أيضاً.

فقال بريدان: «لجلالتك كاملُ الحقّ في قطع رأسه. فالهجوم الذي شنّه يضعه في منزلة القَتَلة!»

وقال إدمون: «صحيحٌ تماماً. ولكنْ حتّى الخائنُ قد يتغيّر ويصير صالحاً من جديد. وأنا أعرف شخصاً فعل ذلك حقّاً». ثُمّ بدا مُستغرِقاً في التفكير.

وقال دارّن: «إنّ قتل راباداش هذا قد يوازي إعلان الحرب على السلطان».

فقال الملك لُون: «لَن يهمّ ذلك السلطان في شيء! فقوّته في عديد رجاله، والأعدادُ الغفيرة لن تجتاز الصحراء أبداً. ولكنّني لا أهوى قتل الناس (حتّى الخَوَنة) ببرودة أعصاب. فلو دققْنا عُنقَه في المعركة، لأراح ذلك قلبي كثيراً، ولكنّ ما نحن بصدده الآن أمرٌ مختلف».

وقالت لوسي: «أشير على جلالتكم بإعطائه فرصةً أُخرى. فليُطلَق سراحه إذا وعد وعداً صادقاً بأن يكون شريفاً ومُنصِفاً في المستقبل. وعسى أن يفيَ بوعده».

فقال إدمون: «لعلّ القرود تصير شريفةً، يا أُختِ! لكنْ، وحياةِ الأسد، إن نكث بوعده من جديد فحبّذا لو يكون ذلك في زمانٍ ومكانٍ يتيسّر فيهما لأيّ واحدٍ منّا أن يقطع رأسه في خِضَمّ معركةٍ حامية».

عندئذٍ قال الملك: «سنُجرّب هذا!» ثم وجّه كلامه إلى واحدٍ من الخَدَم قائلاً: «ليُحضَرِ السجين، يا صاح!»

فجيء براباداش إلى حضرتهم مقيّداً بالسلاسل. وأيُّ من ينظر إليه في حالته تلك، يحسب أنّه قضى ليلة مزعجة

في زنزانةٍ مُقرِفة بلا طعام ولا شراب. إلّا أنّه في الواقع كان قد حُبس في غرفة مريحة تماماً وقُدِّم له عشاءٌ فاخر. ولكنْ بما أنّه كان سيّئ المزاج وشديد الغضب للغاية حتّى إنّه لم يمسّ العشاء ثمّ أمضى الليل بِطُوله وهو يضرب الأرض بقدميه ويُرعِد ويُوعِد ويشتم، فقد بدا بطبيعة الحال على أسوإ ما يكون.

وقال له الملك لُون: «إنّ سموّك الملوكيّ في غنىً عن أن يُقال له إنّه بموجب قانون الأمم، وكلّ الأسباب المُسوّغة لسياستنا الرشيدة، يحقّ لنا فعلاً أن نقطع رأسك بالحقّ الذي طالما كان لبَشَريٍّ فانٍ على آخر. ومع ذلك، فنظراً لشبابك وسوء تنشئتك، وافتقارك إلى كلّ لطفٍ ولياقة، مّما تحصّل لديك بغير شكٍّ من إقامتك في أرض العبيد والطُّغاة، نجِدُنا ميّالين إلى إطلاق سراحك سليماً من الأذى، على أساس هذه الشروط: أوّلاً، أن...»

فغمغم راباداش: «سُحقاً لكَ مِن كلبٍ بربري متخلّفٍ! أتظنّ أنّني أسمع شروطك مجرّد سماع؟ اتفو! إنّك تتشدّق كثيراً عن التنشئة وما لست أدريه. هذا سهلٌ على مَن يخاطب رجُلاً مقيّداً بالسلاسل، ها! فانزع عنّي هذه القيود اللعينة، وأعطني سيفاً، وعندئذٍ فليُحاوِرْني أيُّ واحدٍ منكم تُسوّل له نفسُه ذلك».

إذ ذاك هبّ السادة كلُّهم تقريباً واقفين، وصاح كورين: «أبتِ! هل لي بملاكمته، لو سمحت؟»

فقال الملك لُون: «هدوءاً، يا أصحاب الجلالة والسيادة! أليس لدينا مزيدٌ من الرزانة بحيث لا تُغيظنا إهاناتٌ يُوجّهها إلينا ثرثارٌ تافه؟ اقعدْ يا كورين، وإلّا فغادرِ المائدة! إنّني أطلب من سموّك مرّةً ثانية أن تسمع شروطنا».

فأجاب راباداش: «أنا لا أسمع شروطاً من البرابرة والسَّحَرة! ليس بينكم جميعاً مَن يستجرىء أن يمسّ شعرة واحدة من رأسي. وكلُّ إهانةٍ رشقتُموني بها ستدفعون ثمنها بحوراً من الدم الأرخيانيّ. فرهيباً سيكون غضبُ السلطان آنذاك، بلِ الآنَ الآن! إنّما اقتُلوني وستكون الحرائق والعذابات في هذه البلدان الشمالية حكايةً مُروّعة حتّى ألفِ سنةٍ من الآن. حذارِ! حذارِ! ها هي صاعقةُ طاش تنقضُّ من الأعالي!»

فسأل كورين: «وهل عَلِقَت مرّةً بخُطّافٍ بين الأرض والسماء؟»

وقال الملك: «عيبٌ عليك، يا كورين! لا تسخَرْ أبداً من أحد إلّا إذا كان أقوى منك. وعندئذٍ لك أن تفعل ذلك بقدر ما تشاء».

وقالت لوسي متنهّدة: «يا لكَ من غبيٍّ سخيف يا راباداش!»

وفي اللحظة التالية تساءل كور عن السبب الذي جعل جميع الجالسين إلى المائدة ينهضون ويقفون بلا حراك.

وقد حذا حذوَهم بالطبع. ثمّ تبيّنَ له السبب. فقد حضر أصلان في ما بينهم، وإن لم يَرَه أحدٌ آتياً. وأجفل راباداش إذ تهادى شكلُ الأسد الهائل بينه وبين مُتّهِميه.

وقال أصلان: «يا راباداش، خُذ حِذرك! إنّ هلاكك قريبٌ جدّاً، ولكنّ في وسعك أن تتجنّبه بعد. انسَ كبرياءك (وماذا عندك حتى تتكبّر من أجله؟) وغضبك (فمن أساء إليك؟) واقبَل عرْض الرحمة الذي يتكرّم به عليك هؤلاء الملوكُ الصالحون».

عندئذٍ قلّب راباداش عينيه، ومدّ لسانه في تكشيرة كريهةٍ كبيرة مثل تكشيرة سمكة القِرش، وهزّ أذنيه صعوداً ونزولاً (يستطيع أيُّ شخص أن يتعلّم كيف يفعل ذلك إذا كلّف نفسه بعض العناء). وكان راباداش دائماً قد وجد أن ذلك فعّالٌ جدّاً في كالورمن. فكلّما عمل تلك الحركات بوجهه، كان أشجع الناس يرتعدون، وعامّتهم يسقطون أرضاً، والحسّاسون منهم يُغمى عليهم غالباً. ولكن ما لم يدركه راباداش هو أنّ من السهل عليك جدّاً أن ترعب الناس الذين يعرفون أنّك تقدر أن تسلقهم وهم أحياء عند إصدارك الأمر بذلك. فإنّ تلك التكشيرات لم تبدُ مُخيفةً قطّ في بلاد آرخيا. وبالحقيقة أنّ لوسي حسبَت راباداش يُكشّر تألّماً من إعياء أصابه حالاً.

ثمّ زعق الأمير الشرّير: «شيطان! شيطان! شيطان! أنا أعرفك. أنت عفريتُ نارنيا الرديء والدنيء. أنت عدوّ

الآلهة. اعلم مَن أنا، أيُّها الشبَح البَشِع: أنا سليلُ طاش، الغلّابِ البطّاش. عليك لعنة طاش! ستنهال عليك بروقٌ بهيئة عقارب. وستُسحَق جبال نارنيا حتّى تصير غُباراً وتراباً. إنّ...»

فقال أصلان بهدوء: «حذارِ يا راباداش! لقد بات هلاكك الآن أقرب: إنّه خلفَ الباب، وقد رَفع السُّقّاطة!»

وصاح راباداش: «لتَسقُطِ السماوات، ولتفتح الأرضُ فاها! وليَمحُ الدمُ والنارُ العالم! ولكنْ كونوا على ثقةٍ بأنّني لن أكلَّ ولن أكُفَّ أبداً حتّى أجُرَّ تلك الملكة الأجنبية البربرية بشعرها الى قصري، بنتَ الكِلاب، تلك الـ...»

عندئذٍ قال أصلان: «لقد دقّتِ الساعة!» وإذا براباداش، لِرُعبه الشديد، يرى أن كلَّ الحاضرين قد بدأوا يضحكون.

فإنّهم لم يتمالكوا أنفسهم، إذ كان راباداش يهزُّ أُذنيه طول الوقت، وما إن قال أصلان: «لقد دقّتِ الساعة!»

حتّى بدأ شكل الأُذنين يتغيَّر. فقد صارتا أطول، وأدقَّ طَرَفاً، وغطّاهما الشعر الأشيب حالاً. وبينما الجميع يتساءلون أين رأوا مثلَ هاتينِ الأذنَين، إذْ بدأ وجه راباداش يتغيَّر أيضاً، فصار أطول، وصار جزؤه الأعلى أثخن، وذا عينين أوسع، فيما غار الأنف داخل الوجه (وإلّا فالوجه برز إلى الخارج وصار كلّه

أنفاً)، وغشّاه الشعر تماماً. ثمّ إنّ ذراعَيه طالتا وتدلّتا قُدّامه حتّى استقرّت يداه على الأرض، غير أنّهما لم تعودا يدَينِ الآن، بل صارتا حافِرَين. وبات واقفاً على الأربع معاً، وقدِ اختفت ثيابُه، فتعالى ضحك الجميع أكثر فأكثر (لأنّهم لم يقدروا أن يضبطوا أنفسهم)، لأنّ راباداش كان قد صار - ببساطةٍ ووضوح - حماراً! لكنّ الأمرُ الفظيع كان أنّ نُطقَه البشري دام مُدّةً أطول بقليلٍ من دوام شكله البشريّ، حتّى إنّه لمّا أدرك التغييرَ الآتيَ عليه زعق عالياً:

«آه، ليس حماراً! رحمةً بي! ليتَني صرتُ على الأقلّ حصاناً... عَلَلَأْلَل... حيهانا... حِي حا... هِيهاءْ هِيهاه!»

ثمّ قال أصلان: «والآنَ اسمعْني، يا راباداش، سيمتزج العدل بالرحمة: لَن تبقى حماراً دائماً».

عندئذٍ نصب الحمار أذنَيه إلى الأمام، وقد كان ذلك أيضاً مُضحِكاً حتّى ازداد ضحك الجميع. وقد حاولوا ألّا يضحكوا، لكنّهم عبثاً حاولوا.

وقال أصلان: «لقد لجأتَ إلى طاش، وفي معبد طاش سوف تُشفى. فعليك أن تقف أمام مذبح طاش في طشبان، في عيد الخريف الكبير هذه السنة، وهناك - أمامَ أهل طشبان كلّهم- سيزول عنك شكلُ الحمار، وسيعرفك الجميع بوصفك الأمير راباداش. ولكنْ مهما طال بك العمر، فإنِ ابتعدتَ أكثر من خمسة عشر كيلومتراً عن المعبد الكبير في طشبان فإنّك ستصير من

جديد كما أنت الآن. ولَن يكونَ هنالك رجوعٌ أبداً عن ذلك التغيير الجديد».

ثمّ مرّت فترة صمتٍ قصيرة، بعدها تحرّكوا جميعاً وحدّقوا بعضهم إلى بعض كما لو كانوا يستيقظون من النوم. وكان أصلان قد مضى. ولكنْ كان في الهواء بهاء، وعلى العُشب ضياء، وفي قلوبهم فرح غامر، ممّا أكّد لهم أنّ حضور أصلان لم يكن حلماً. وعلى كلّ حال، كان الحمار ما يزال أمامهم.

وكان الملك لُون أرقَّ الرجال قلباً. فعندما رأى عدوَّه في هذه الحالة التي يُرثى لها، نسي كلّ غضبه، وقال:

«يا صاحب السموّ الملوكيّ، إنّي آسِفٌ أشدَّ الأسف لأنّ الأمور وصلت إلى هذا الحدّ. ولسوف تشهد سُموُّك أنّ هذا لم يكن من أفعالنا نحن. وسيَسرُّنا طبعاً أن نوفّر لسُموّك سفينةً تُعيدك إلى طشبان، لأجل الـ... العلاجِ الذي وصفه لك أصلان. وسيكون لك كلُّ سببٍ من أسباب الراحة بمقتضى وضعك: أحسنُ السفن المعدَّة لنقل الماشية، وجزَر وشعير وشوك طازجة جداً...»

ولكنّ نهيقاً يصمّ الآذان ورفسةً جيّدة التصويب على واحدٍ من الحُرّاس، صدرا عن الحمار، أوضحا أنّ هذه العروض السخيّة لقيَت رفضاً مُتّسماً بنكران الجميل.

وهنا، لإزاحة راباداش من الطريق، يجدر بي أن أكمِل قصّته. فإنّ سُمُوّه (أو دُنُوّه!) أُرسِل في قاربٍ

إلى طشبان، وأُحضِر إلى معبد طاش في عيد الخريف الكبير، حيث عاد إنساناً من جديد. ولكنْ بالطبع شاهد ذلك التحوّلَ أربعةُ آلاف نفس أو خمسة آلاف، فلم يعُد ممكناً كتمان الأمر بسهولة. ثُمّ بعد موت السلطان الشيخ، وحلول راباداش محلّه، صار أفضلَ سلطانٍ مُسالمٍ شهدته كالورمِن في تاريخها. أمّا سبب ذلك فهو أنّ راباداش لم يستطع أن يخرج إلى خوض الحروب بنفسه، ما دام لا يجرؤ على الابتعاد عن طشبان أكثر من خمسة عشر كيلومتراً، ولم يُرِد أن يُحرِز طَراقِنتُه شهرةً في الحروب على حسابه، إذ بهذه الطريقة كان السلاطين يُطاحون. ولكنْ مع كون أسبابه أنانيّة، فقد جعل ذلك الأمورَ أكثر إراحةً بكثير لجميع البلدان الصغرى حَوالَي كالورمِن. ولم ينسَ قومُه قطّ أنّه مُسِخ حماراً ذات مرّة. في أثناء حكمه، وبحضوره، كانوا يدعونه «راباداش: مؤتي السلام والإنعاش». ولكنْ بعد موته، وفي غيابه، كانوا يدعونه «راباداش: أسخف الجحاش». وإن حاولتَ أن تطّلع على قصّته في كتابٍ جيّد عن تاريخ كالورمِن (ما رأيك في هذه المحاولة؟)، فإنّك ستجدها تحت الاسم الثاني. وحتّى هذا اليوم في مدارس كالورمِن، كثيراً ما يُطلَق على أيّ مَن يتصرّف بغباوة غير مُعتادةٍ لَقَبُ «راباداش الثاني».

أمّا في أنْڤارد، فقد سُرّ الجميع جداً بالتخلّص من راباداش قبل بدء المَرح الحقيقيّ، الذي كانَ وليمةً

فاخرة أُقيمت ذلكَ المساء على المرجة أمام القصر، حيثُ أُضيئَت عشرات المصابيح لدعم ضوء القمر. وتدفّق النبيذ، وحُكِيَت الحكايات، وأُطلِقت النُّكات، ثمّ خيّم الصمت إذ تقدّم شاعر الملك وعازِفا كمنجة في وسط الحلقة. وأعدَّ كور وأراڤيس أنفُسَهما للضجر، لأنَّ الشِّعر الوحيد الذي كانا يعرفانه كان من النوع الكالورمِنيّ، ولعلّك الآن تعرف كيف كان شِعر كالورمِن. ولكنْ ما إن ضُربت الكمنجتان أوّل ضربة حتّى بدا كأنَّ سهماً من نار ومض داخل رأسيهما، وأخذ الشاعر يُنشِد القصّة الشعريّة القديمة العظيمة التي تُشيد ببطولة أولفِن الوسيم وتروي كيف حارب المارد باير وحوّله إلى صخر (وهذا منشأ جبل باير الذي كان في الأصل مارداً ذا رأسين) ففاز بالسيدة لِلْن عروساً له. ولمّا انتهى ذلك ودَّ كور وأراڤيس لو يعود فيبدأ من جديد. ومع أنَّ بِري لم يكن يُجيد الغناء، فقد حكى قصّة معركة زُولِندرِه. ثمّ قصّت لوسي من جديد قصّة خزانة الثياب، وكيف أنّها هي والملك إدمون والملكة سوزان والملك الأعلى بطرس دخلا إلى نارْنيا أوّلَ مرّة. وكان الجميع، ما عدا أراڤيس وكور، قد سمعوا هذه القصّة عدّة مرّات، إلا أنهم طلبوا جميعاً أن تُحكى لهم من جديد.

وما لبث الملك لُون -كما كان متوقَّعاً حدوثُه عاجلاً أو آجلاً- أن قال إنَّ وقت إواء الصغار إلى أسِرّتِهم قد

حان. ثمّ أضاف: «وغداً، يا كور، سأصطحِبُك إلى أنحاء القصر كُلّه وأُريك الأملاك كلّها فتعرفَ نِقاط قوّتها ونقاط ضعفها، إذ إنّك ستتولّى حمايتها بعد رحيلي».

فقال كور: «ولكنَّ كورين سيكون هو الملك عندئذٍ، يا أبي».

أجابَ الملك: «لا، يا بُنيّ. فأنت وريثي. وإليكَ يؤول التاج».

فردَّ كور: «إلّا أنّني لا أُريده. فإنّني أُفضّل أكثر بكثيرٍ أن...»

«ليست المسألة ما تريده أنت، يا كور، ولا ما أُريده أنا. فهذا مُحدَّد في القانون بصورة حاسمة».

«ولكنْ ما دُمنا توأمَين فلا بدَّ أن نكون في سنٍّ واحدة».

فقال الملك ضاحكاً: «لا، لا بدَّ أن يكون أحدكما هو الأكبر. ألستَ أكبَرَ من كورين بعشرين دقيقة كاملة؟ وأنت أفضل منه، كما نرجو، وإنْ كان تفوّقك ضئيلاً». ثمّ نظر إلى كورين غامزاً بعينيه.

«ولكنْ، يا أبي، ألا يمكنك أنت أن تقرّر مَن تشاء أن يكون الملكَ التالي؟»

«لا! فالملك تحت القانون، لأنَّ القانون هو الذي يجعله ملكاً. فلا يحقُّ لك أبداً أن تتخلّى عن تاجك، تماماً كما لا يحقُّ لأيِّ حارسٍ عندك أن يتهرّب من واجبه».

فقال كور: «أوّاه! لا أُريد ذلك أبداً. ويا كورين، أنا

آسف أشدَّ الأسف. ما حلمتُ قطُّ بأن يكون ظهوري سبباً لانتزاع مملكتك منك».

وقال كورين: «مرحى! مرحى! لا ضرورة بأن أكون ملكاً. لا داعيَ لأن أكون ملكاً. سأبقى أميراً دائماً. فالأمراء هم الذين يمرحون ويفرحون كثيراً!»

ثمّ قال الملك لُون: «وذاك أكثرُ دقةً مما يعرفه أخوك، يا كور! فهذا هو ما يعنيه كونُك ملكاً: أنْ تكون الأوّلَ في كلّ هجومٍ مستميت والآخِرَ في كلّ انسحابٍ بَغيض، وعندما تضربُ المجاعةُ البلد (كما لا بدَّ أن يحدث بين حين وآخر في السِّنين السيّئة) أن تلبس ثياباً أنعم وتضحك ضحكاً أعلى مما يلبس ويضحك أيُّ إنسان في مملكتك، رغم كونك تتناول وجبة طعام أشحَّ مما يتناول».

وبينما الصبيّان يصعدانِ إلى الطابق الأعلى كي يناما، سأل كُورُ كورينَ ثانيةً هل يمكن القيام بشيءٍ في شأن ذلك. فأجابه كورين:

«إن قلتَ كلمةً أُخرى بعدُ عن هذا، فإنّي... فإنّي سأبطَحُك أرضاً».

وكم يكون ظريفاً لو نختم هذه القصّة بالقول إنّ هذين الأخوين بعد ذلك لم يختلفا قطُّ على أيِّ شيء! ولكنْ أخشى ألّا يكون هذا صحيحاً. ففي الواقع أنّهما تخاصما وتشاجرا تقريباً بمقدار ما قد يفعل أيُّ صبيَّين آخرين، وقد كانت كلُّ مشاجراتهما تنتهي (إن لم تكُن تبدأ) وكور

ساقطٌ أرضاً. فمع أنّ كور صار أخطر رجُل في ساحة المعركة، عندما كبرا كلاهما وصارا يُتقِنان المبارزة بالسيف، فلا هو ولا أيُّ شخص آخر في البلدان الشمالية استطاع أن يكون ندّاً لكورين في الملاكمة. ولهذا السبب سُمّي «كورين قبْضة الرَّعد»، ولاسيّما بعدما أنجز مأثُرته العظيمة إذ تغلَّب على «الدبّ المارق» في «قمّة العواصف»، وقد كان بالحقيقة دبّاً ناطقاً لكنّه ارتدَّ إلى عوائد الدبّ البرّيّ. فقد تسلّق كورين إلى جُبّ ذلك الدبّ في الناحية النارْنيانيّة من قمّة العواصف ذاتَ يومٍ من أيّام الشتاء، حين كان الثلج يكسو التلال، ولاكمه بغير وجود مَن يضبط الوقت ويحدِّدُه ثلاثاً وثلاثين جولة. وفي النهاية لم يعُد الدبُّ يستطيعُ أن يُبصِر بعينيه، وصار دُبّاً مهذّباً!

وقد كان لأراڤيس أيضاً مُخاصماتٌ كثيرة (بل معارك، كما أكاد أقول) مع كور، إلّا أنّهما دائماً كانا يُسوّيان الوضع. حتّى إنّهما بعد سنين عديدة، بعدما صارا راشِدَين، كانا قد اعتادا الخصام ثمّ الوئام كثيراً بحيث تزوّجا بعضهما بعضاً كي يتيسّر لهما القيام بذلك على نحوٍ أنسب. وبعد وفاة الملك لُون أصبحا ملكاً وملكةً صالِحَين على بلاد آرخيا، ثمّ إنّ رامَ العظيم -أشهر فرسان آرخيا- كان ابنَهما.

أمّا بري وهُوين فقد عاشا بسعادة حتّى تقدّم بهما العمر كثيراً، وتزوّجا كلاهما، لكنْ ليس بعضُهما بعضاً. ولم تكُن تمضي شهورٌ كثيرة دون أن يأتيَ أحدُهما، أو كِلاهما، هرولةً فوق المعبر، لزيارة أصدقائهما في أنْقارد.

الأمير كاسبيان

أمير شاب عليه أن يحارب لإستعادة عرشه المسلوب.

نارنيا ... أرض ما وراء عامود الإنارة، حيث تحدثُ أمورٌ عجيبة، حيث يعود الأسد ... حيث توشِك معركةٌ أن تبدأ.

يجلس ملكٌ شرير على عرش نارنيا، حيث توشِك معركةٌ أن تبدأ، مجْبِراً المخلوقات الأسطورية على العيش مختبئين. ويحارب الملك الشرعي، الأمير كاسبيان، بشدةٍ لاستعادةِ عرشِهِ وإنقاذ شعبِهِ. ولكن حين يبدو أنه خسِر كل شيء، يدعو الأسد العظيم، أصلان، بطرس وسوزان وإدمون ولوسي، وهم أربعةُ ابطالٍ من عالمٍ آخر، للمشاركة في المعركة لتحرير نارنيا.

هذه مغامرة رابعة في روايات «عالم نارنيا» المثير.